الاستشراق

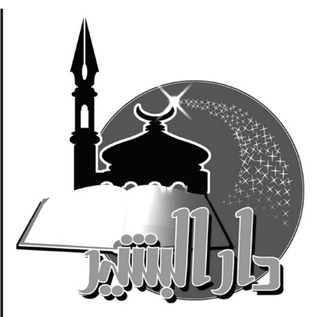
(وتشكيل نظرة الغرب للإسلام)

تأليف الأستاذ الدكتور:

محمد عبدالله الشرقاوي

أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان





إسم الكتاب: الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام

التأليف: الأستاذ الدكتور: محمد عبدالله الشرقاوي أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان

موضوع الكتاب: فكر

عدد الصفحات: 240 صفحة

عدد الملازم: 15 ملزمة

مقاس الكتاب: 17 × 24

عدد الطبعات: الطبعة الثانية

رقم الإيداع: 26054 / 2015

الترقيم الدولى: ISBN : 978 - 977 - 278 - 541 - 8

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714

1436 هـ
2015م



الاستشراق

(وتشكيل نظرة الغرب للإسلام)



هذه الطبعة

لقد صدرت الطبعة الأولى التي هي نواة هذا الكتاب قبل ربع قرن من الزمان، ثم شاء الله لي أن أسافر – بعد ذلك – إلى آسيا، وقد تعرفت هناك على مكتبة علامة الهند الكبير الدكتور محمد حميد الله، التي أهداها إلى مجمع البحوث الإسلامية بالجامعة الإسلامية بإسلام آباد؛ وهي مكتبة نوعية متميزة، تحتوي على كثير جدًّا مما كتبه كبار المستشرقين باللغة الإنجليزية أو المترجمة إليها من اللغات الأوروبية الأخرى. وقد أتاحت لي هذه المكتبة الثرية فرصة ثمينة للاطلاع على هذه الكتب الاستشراقية النادرة التي لم تتوفر لي في بلادنا العربية، وقد شجعني ذلك على إعداد الطبعة الثانية (من هذا الكتاب) بعد أن زدت فيها موضوعات جديدة، ونقحت أفكارًا وترجمت نصوصًا وعدّلت أحكامًا، معتمدًا في كل ذلك على كلام المستشرقين أنفسهم الذي سطروه في كتبهم.

ولقيت هذه الطبعة قبولًا حسنًا من الباحثين، وقد طلب مني بعض الناشرين وطلّاب العلم إعادة نشرها، إلا أنني تراخيت طلبًا للتجويد وإعادة النظر في بعض المسائل، غير أنه طال انتظاري لسنوات، جرت خلالها في النهر مياه كثيرة كما يقال، فقد سافرت إلى بلاد عديدة وحاضرت في جامعات غربية وإسلامية ومراكز ومؤسسات بحثية، والتقيت بمستشرقين كثر وتناقشنا وتشاركنا في بعض المؤتمرات العلمية ونشأت بيننا علاقات فكرية وعلمية وكل ذلك وسّع من نظرتي

إلى الدراسات الاستشراقية نشأة وتطورًا وأهدافًا وإنجازات وإخفاقات.

وقد توجهت همتي إلى إعادة نشر الكتاب نشرة جديدة أبيّن فيها دور مؤسسة الاستشراق منذ النشأة الأولى في رسم أو تشكيل ملامح لصورة الإسلام والعمل على غرسها في وعي الإنسان الغربي لتحرك مشاعره ووجدانه تجاه الإسلام حركة معينة؛ أعني: رسم صورة غربية مشوهة للإسلام – وتسويقها في الغرب– ليكون الإنسان الغربي خائفًا من الإسلام وكارهًا له في نفس الوقت.

وأشهد أن مؤسسة الاستشراق قد نجحت نجاحًا عظيمًا في مشروعها هذا، وبقي العقل الغربي يتوارث هذه الصورة النمطية جيلًا بعد جيل.

نعم كان ذلك كذلك، لكن بعض المستشرقين المستقلين أحرار الفكر ساروا ضد التيار العام للمؤسسة الاستشراقية وعارضوها ووجهوا إليها نقدًا ولومًا وتقريعًا، وقد وجدت هذه النماذج الشريفة من المستشرقين في كل جيل من أجيالهم وقد أشرت إلى بعضهم واقتبست بعض اعترافاتهم المهمة، وقد أدهشني وبهرني أحدهم وهو الإنجليزي Dr. Henry Stubbe، وجرأته في تعرية المستشرقين والمبشرين أيضًا، وقد ألف كتابًا نادرًا في الدّفاع عن النبي محمد ﷺ والقرآن الكريم، وبقي كتابه مهملًا في مكتبة المتحف البريطاني في لندن ولم يجرؤ أحدهم على نشره إلا مؤخرًا، لقد كتبت فصلًا عن هذ الرجل النبيل المتمرد الذي وضع حياته ثمناً لموقفه المنصف النزيه.

نشأ الاستشراق ليؤثر في الغرب، لكن الذي حدث أن امتد تأثيره إلى الشرق، وإلى الإنسان المسلم.

لقد كان تأثير الاستشراق مقصورًا على الإنسان الغربي حين كانت أمة الإسلام قوية منيعة فاعلة، وحين ضعفت امتد تأثير الاستشراق إليها وفعل فيها ما فعل.

ولم تكن الدراسات الاستشراقية كلها منصبة على دراسة الإسلام عقيدة وشريعة فحسب لكنها توغلت وتغلغلت في حقول معرفية عديدة مثل اللغة واللهجات واللغات القديمة والإثنيات والأعراق والجغرافيا والاقتصاد والسياسة والدبلوماسية والاجتماع والعادات والتقاليد.

هذا، وقد تشكلت مدارس استشراقية عدة اتسم كل منها بخصائص تميزها- قليلًا أو كثيرًا - عن أخواتها ويمكننا أن نشير هنا إلى:

* المدرسة الاستشراقية البريطانية.
* المدرسة الاستشراقية الفرنسية.
* المدرسة الاستشراقية الهولندية.
* المدرسة الاستشراقية الإسبانية.
* المدرسة الاستشراقية الإيطالية.
* المدرسة الاستشراقية الروسية.
* المدرسة الاستشراقية الألمانية.
* المدرسة الاستشراقية الأمريكية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الاستشراق الأمريكي يمثل الحقبة الجديدة التي تغيرت فيها الآليات والوسائل والاهتمامات والمصطلحات، وتلونت البحوث الاستشراقية في أمريكا بلون الحياة الأمريكية بشكل عام؛ فأصبح المستشرق خبيرًا استراتيجيًّا أو باحثًا سياسيًّا في دراسات الشرق الأوسط وتاريخه.

وقد وفد إلينا في عالمنا الإسلامي- في مصر مثلا- عشرات المستشرقين للتدريس في جامعاتنا وترجمة الكتب وإنجاز البحوث وإدارة المعاهد والمراكز الاستشراقية في القاهرة والإسكندرية مثل المعهد الهولندي والفرنسي والبريطاني والأمريكي والروسي والآباء الدومينيكان.. إلخ.

كما أن بعض المستشرقين قد ترأس دار الكتب والمخطوطات والوثائق المصرية، وبعضهم قد أشرف على دار الآثار والمتاحف المصرية.

وقد أثر هؤلاء المستشرقون الوافدون على الفكر والثقافة في مصر والمنطقة العربية، تأثيرًا لم يُدرس دراسة موضوعية علمية، ويُشارُ هنا إلى تتلمُذ أذكياء المصريين ونوابغهم مثل عميد الأدب العربي طه حسين وغيره عليهم تلمذةً مباشرة في الجامعة المصرية.

ثم أتى زمن الرحلة إلى الغرب للتعلم في أقسام الدراسات الإسلامية الاستشراقية فقصدها شيوخ الأزهر وكبار علمائه مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق، وعبدالحليم محمود، وعبدالرحمن تاج، ومحمد عبدالله دراز، ومحمد البهيّ، وعبدالجليل شلبي، وأحمد الطيب وغيرهم.

ولا ريب أن أثر الاستشراق – في الغرب والشرق – لا يزال مستمرًّا وقويًّا، ومن ثمّ تشتد الحاجة إلى دراسته دراساتٍ عميقة ورصينة نظرية وميدانية، وقد أحسنت جامعة طيبة في المدينة المنورة إذ أنشأت قسمًا أكاديميًّا للدراسات الاستشراقية لينهض بجانب من هذا الواجب.

محمد الشرقاوي

أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان

في جامعتي القاهرة وطيبة

المدينة المنورة في 20 **شعبان** 1436 (8 - 6 - 2015)

msharkawi@msn.com

المقدمة

الحمد لله، وأصلي وأسلم على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه:

ثم أما بعد،

فمما لا شك فيه أن الاستشراق والمستشرقين قد بذلوا أعظم الجهد وأخطره فيما يمكن أن يندرج تحت ما يطلق عليه: «الحوار بين الحضارات»، وقد درس بعض الباحثين هذا الجهد الكبير وقيموه وذهبوا فيه مذاهب شتى- بين مادح لا يرى فيه عيبًا ولا عوجًا، ولا أمتًا ولا نقصًا، وقادح لا يرى غير السلبيات والمثالب.

وأرى- وأرجو أن أكون مصيبًا- أن هؤلاء وأولئك قد سلكوا مضايق التعميم والأحكام المسبقة وردود الأفعال، فالواقع أن الاستشراق ظاهرة قد حدثت نتيجة أسباب نظرية وعملية ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا، وعلى ذلك فإن التعامل الموضوعي معها، درسًا وتقويمًا يعد من المطالب العلمية الواجبة، بل المتعينة.

ومما يؤسف له كثيرًا أن بعض هؤلاء المادحين بلا تحفظ، وأولئك القادحين بلا حدود: لم يقرأوا بأنفسهم من إنتاج المؤسسة الاستشراقية الهائل - بل إن بعضهم لم يعط الأداة لذلك- ما يمكنهم من الحكم السديد المؤسس على حيثيات صحيحة من دراسات القوم أنفسهم قديمًا وحديثًا، ومن هنا جاءت أحكامهم كلية قاطعة، وهذا ما تأباه طبيعة البحث العلمي ومناهجه الصحيحة.

وللاستشراق فيما يتعلق بالفكر الإسلامي، أو قل فيما يتعلق بالحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية ثمرات إيجابية متعددة يستحق كثير منها الذكر والتقدير، ومن ذلك مثلًا:

1. هذه الجهود الكبيرة التي بذلها بعض المستشرقين لتحقيق ونشر كثير من الآثار الإسلامية المهمة وغير المهمة ومعاناة قراءة مخطوطاتها مع الصبر الجميل والتحري والتدقيق في إخراجها، في وقت لم يكن بعض الباحثين في العالم الإسلامي ليعرفوا عن هذه الآثار غير الإشارة إلى أسمائها أو أسماء مؤلفيها فحسب.
2. كما أن جهود المستشرقين في جمع المخطوطات الإسلامية – بكل الوسائل – من شتى الأقطار والأمصار وحفظها غير خاف على الدارس المنصف، وأكبر من ذلك العمل على تصنيف هذه المخطوطات ووضع فهارس بها تسهل مراجعتها، وتيسر الاستفادة منها في مختلف مكتبات العالم شرقًا وغربًا، وما جهد بروكلمان – ثم متابعة سزكين له – ببعيد.
3. ومن أبرز أعمال المستشرقين وأكثرها ثمرة، ترجمتهم الكثير من أمهات المصادر والمراجع الإسلامية – في شتى فروع المعرفة – إلى اللغات الأوروبية الحديثة، مما أتاح للغربيين الاطلاع بأنفسهم على جانب غير قليل من التراث الإسلامي، وقد كان لهذا العمل أثر عظيم في فهم بعض العلماء الغربيين الإسلام على حقيقته أو أقرب إلى حقيقته، مما أثمر تحسنًا نسبيًّا لصورة الإسلام في فكر ووجدان كثير من الغربيين في العصر الحاضر. وهذا ركن أساسي للحوار بين الحضارتين؛ إذ الانطلاق من فهم صحيح متبادل لطرفي الحوار يقرب الشقة ويدفع التوهم والغلط.
4. ولئن كانت اللغة هي المدخل الصحيح لكل ذلك، فإن الدرس اللغوي قد حظي باهتمام طائفة كبيرة من المستشرقين، وأثمر عددًا من المعاجم اللغوية المهمة، وقدم بحوثًا مقارنة مفيدة في المستويات اللغوية المختلفة والآداب المقارنة.
5. وقد امتلك بعضهم من الشجاعة الأدبية ما جعلهم يتوفرون على نشر كتب

ونصوص جدلية كلامية وفلسفية تنتقد دياناتهم ومذاهبهم، بل ويترجمونها إلى بعض لغاتهم، ويشيدون بها في بعض الأحيان، وبين أيدينا نماذج كثيرة لذلك نذكر منها على سبيل المثال:

- نشرة روبير شدياق وترجمته لكتاب: «الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل» لأبي حامد الغزالي، وكذلك ترجمة فرنزو ألمز للكتاب ذاته.

- نشرة يوشع فنكل وترجمته لرسالة الجاحظ المسماه: «المختار في الرد على النصارى».

- تحقيق آسين بلاسيوس وترجمته لكتاب الفصل لابن حزم.

- تحقيق موشى برلمان وترجمته لكتاب السموأل بن يحيى المغربي: «إفحام اليهود».

- وترجمة موشى برلمان وتحقيقه لكتاب «السيف المحدود في الرد على اليهود» للمهتدي عبد الحق الإسلامي.

- وكذلك لكتاب: «تنقيح الأبحاث للملل الثلاث».

- ومسالك النظر في نبوة سيد البشر «للمهتدي سعيد بن حسن الإسكندراني»، نشرة وترجمة سدني أدمزوستون.

- الرد على النصارى لعلي بن ربي الطبري، حققه وترجمه كوتس.

- «الدين والدولة في إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ» حققه وترجمة منجانا.

- رد ابن تيمية على رسالة بولس الراهب وكذلك كتابه: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» للمستشرقين توماس راف وبول حورى وماتيو.

6. جهود المستشرقين في وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي وتفصيل آيات القرآن التي أسس عليها الأستاذ فؤاد عبد الباقي – رحمه الله معجمه المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أمر يعرفه العلماء المخلصون ويقدرونه حق قدره، ومعجم سلك البيان في مناقب القرآن، للمستشرق جون بنريز.
7. وهذا الكم الهائل من المعلومات والبيانات الذي جمعه المستشرقون وحشدوه في «دائرة المعارف الإسلامية» مع تحفظنا على منهجهم في التحليل والتعليل والاستدلال والاستنباط – يجعل الدارسين عاجزين عن إنجاز بحوثهم دون الرجوع إلى بياناتها ومعلوماتها من جهة، ويجعل المؤسسات العلمية والبحثية في العالم الإسلامي تشعر بالحرج الشديد إزاء عجزها وفشلها في إنجاز مثل هذا العمل الضخم.
8. ومنها تلك البحوث التي كتبها بعض المستشرقين وتدخل في دائرة ما يمكن أن يطلق عليه النقد الذاتي للاستشراق، مثل ذلك البحث الذي كتبه المستشرق J. Fueck بعنوان The Originality of the Arabian Prophet يرد فيه بقوة على نظريات المستشرقين الذين رأوا أن الرسول محمد قد لفق ديانته من اليهودية والنصرانية. ومثل كتاب:Tor Andrae بعنوان:«Muhammad، the Man and His Faith» وكتاب M. Watt: بعنوان: «The Influence of Islam on Medieval Europe» وكتاب Southern بعنوان «Western Views of Islam in the Middle Ages».

وكلها تكشف جوانب الصورة المشوهة السوداء الكالحة التي رسمها التبشير والاستشراق للإسلام والمسلمين في عقل المواطن الغربي ووجدانه في العصور الوسطى.

هنالك إذًا جوانب مثمرة إيجابية كثيرة في الإنجاز الكبير للمؤسسة الاستشراقية، ليس من همنا في هذه المقدمة أن نحصيها أو نستقصيها.

لكننا ينبغي أن نذكر هنا أن الروح العامة التي سيطرت على المنهج الاستشراقي في معظم الحالات، وعلى أكثر المستشرقين، إبان النشأة الحقيقية للاستشراق – المتمثلة، في رأينا، في إنشاء أقسام علمية وكراسي أستاذية لدراسة اللغة العربية والإسلام في الجامعات الأوروبية الكبرى في القرن الرابع عشر الميلادي – كانت روحًا جدلية عدائية للإسلام؛ أي أن منهج الاستشراق كان يقوم على دراسة الإسلام: لغة، وعقيدة، وشريعة، وقرآنًا، وسنة، وحضارة، وتاريخًا، للهجوم عليه،... أي أن المؤسسة الاستشراقية في هذه الفترة المبكرة كانت تعمل لحساب الكنيسة، وليس لحساب العلم والبحث عن الحقيقة المجردة عن الهوى الخالصة من الغرض.

ويلتقي كثير من الباحثين: مستشرقين ومسلمين على هذه الحقيقة ونشير من بينهم على سبيل المثال إلى:

- R. W. Southern: Westen Views of Islam in the Middle Ages، Cambridge - Harvard University Press، 1962 P. 72.

- Francis Dovernik، The Ecumenical Councils، New York - Howthorn Books، 1961. PP 65 - 66.

«Of special interest is the eleventh Canon directing that Chairs of teaching Hebrew. Greek and Arabic and Chaldeen should be created at main universities، The suggestion was Raymond Lull›s who advocated learning arabic as the best means for conversion of the arabs».

JOhn W. Fueck، Montgomry Watt. _ Noraman Daniel، Edward W. _ Said» Orientalism» Vintages Books، New York، 1979 P. 331.

ويقول إدوارد سعيد: (ص49 – 50):

«Strictly speaking، Orientalism is a field of learned study، in the Christian West، Orientalism is considered to have commenced its formal existence with the decision of the Church Council ofVienne in 1312 to establish series of Chairs in Arabic. Greek، Hebrew، and Syriac at Paris، Oxford، Bologna، Avignon. and Salamanca».

لقد تأسس الاستشراق رسميًّا، وبدأ انطلاقته الحقيقية في القرن الرابع عشر الميلادي بقرار من الكنيسة ليعمل لحسابها، على أساس أن الإسلام يمثل مشكلة للغرب المسيحي، وكان على هذا الغرب أن يتعامل مع هذه المشكلة (الإسلام) بوسائل فعالة، وقد بين ذلك الدكتور ألبرت حوراني- الأستاذ بجامعة أكسفورد- في دراسته الممتازة التي نشرها العام الماضي بعنوان:

«Islam in European Thought» Cambridge University Press، 1991، P.3.

«From the time it first appeared، the religion of Islam was a Problem for Christian Europe».

لقد وضع آباء المستشرقين خطط الاستشراق ومناهجه، وحددوا اتجاهاته وتقاليده في ضوء أهداف ريموند لول ورعيله، وفي ضوء قرار مجمع فينا الكنسي في بداية القرن الرابع عشر الميلادي.

ثم تطور الحال في أوروبا وتغير، وخرج الناس من سلطان الكنيسة، وتخلص معهم المستشرقون من العمل لحساب الكنيسة؛ لكن معظمهم لم يتخلصوا من التقاليد التي كانوا قد نشروها، والمناهج التي تتلمذوا عليها، والأفكار والآراء والتصورات والمشاعر والأحكام التي تشبعوا بها منذ نشأة الاستشراق.

ويقتضينا الحق أن نقول إن بعضهم قد حاولوا أن يدرسوا الإسلام بموضوعية ولحساب الحقيقة العلمية الخالصة، لكن قليلًا منهم هم الذين استطاعوا الانعتاق من أسر التقاليد الاستشراقية المستقرة والحاكمة منذ زمن بعيد جدًّا.

ثم تطور الحال مرة أخرى في أوروبا، وجاءت مرحلة السيطرة أو الهيمنة الاستعمارية على الشرق وتكوين الإمبراطوريات والمستعمرات في العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، وانحاز كثير من المستشرقين إلى مواقف بلدانهم الاستعمارية من الشرق، وسخروا علومهم ودراساتهم وأحكامهم لخدمة الأهداف الاستعمارية لبلادهم، وهنا نشأ تحالف ثالوثي جديد بين الاستشراق والاستعمار والتبشير.

ويقتضينا الحق أن نقول مرة أخرى إن فريقًا من المستشرقين قد وقفوا إلى جانب الحق ولم يسخروا علومهم وبحوثهم لخدمة الاستكبار والاستعلاء الغربي المتمثل في قهر الشرق الإسلامي واستعماره سياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًا وإعلاميًّا، بل إن بعضهم ليشعر بالحرج والخجل من موقف أساتذتهم وزملائهم المؤيد للاستعمار والاستكبار، والعامل لحسابه المتفاني في خدمته؛ يقول Stephan Wild: «والأقبح من ذلك أنه يوجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم، لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة».

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية بتحول مركز الثقل وقيادة العالم من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فيَمَّم الاستشراق وجهه شطر أمريكا، واجتذبت أمريكا كثيرًا من المستشرقين الأوروبيين إليها، وبذا تكون الحركة الاستشراقية قد دخلت طورًا جديدًا ومعاصرًا.

وخططت الولايات المتحدة لدورها الاستعماري الجديد في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ووظفت الاستشراق، ورسمت لذلك ما أسمته بسياسة العلاقات الثقافية «Cultural Relations Policy».

وقد أفصح Mortimer Graves عن جانب من هذه السياسة الثقافية قائلًا: إن العملية الهائلة لتجميع المطبوعات المتميزة في لغات الشرق الأدنى المهمة الصادرة منذ 1900 وحتى اليوم (1950). والنظر فيها وفحصها إجراء – كما يعترف Graves – يتعلق بالأمن القومي الأمريكي (As a measure of our National Security) وهو من أجل فهم أمريكي أفضل للقوى التي تناوئ أو تنافس الفكرة الأمريكية؛ وأهم هذه القوى المناوئة لأمريكا في المنطقة – كما يذكر M. Graves: قوتان؛ هما الشيوعية والإسلام، وهذه عبارته:

« Was the need for much better American understanding of the forces wich are contending with the American idea for acceptence by the Near East. The principal of these are، of course. Communism and Islam»

See: Mortimer Graves: A Cultural Relations Policy in the Near East ‹The Near East and the Great Powers» ed. Frye. PP. 76. 78.

ويحدد الدكتور إدوارد سعيد طبيعة الاستشراق في الوقت الحاضر في هذه الحقبة الأمريكية بقوله (ص 290):

وهكذا فقد أخذ الاستشراق المعاصر على عاتقه مهمة التحرش الثقافي مع القوى المناوئة للفكرة الأمريكية، وعلى رأس هذه القوى كما حددها (Graves): الشيوعية والإسلام. أما وإن الشيوعية اليوم قد انتحرت أو اندحرت، فإن الإسلام قد بقي وحده ليمارس معه الاستشراق المعاصر: (Cultural Hostility).

وهكذا فقد تعاظم الاهتمام بدراسة الإسلام في الجامعات الأمريكية، ولقد هاجر بعض كبار المستشرقين الأوروبيين إلى أمريكا؛ ومن بينهم D.B. Macdonald الذي تعلم على يد نولدكه وفيلشر، وهاجر H.A.R. Gibb إلى جامعة هارفارد، والصهيوني ذائع الصيت Bernard Lewis.

وأخذ الاستشراق في المرحلة الأمريكية الراهنة ملامح جديدة منها: الاهتمام بدراسة المجتمعات الإسلامية Area Studies دراسة ميدانية، ودراسة ما أسموه بالإسلام الشعبي (Popular Islam) والتركيز على بحوث التصوف والطرق الصوفية، والاهتمام بتتبع المعتقدات الشعبية في المجتمعات الإسلامية، ودراسة مشايخ الصوفية وموالدهم وأضرحتهم، وتبين الأهمية الاجتماعية والسياسية والفكرية لهذه الموالد والأضرحة.

لم يكتف الاستشراق في المرحلة الأمريكية إذًا بدراسة الإسلام ذاته فحسب، بل اهتم- وبالغ في الفحص والبحث والتدقيق- بدراسة المجتمعات الإسلامية ذاتها، دينيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا.. إلخ.

كما درس العلاقات بين الشعوب والمجتمعات الإسلامية؛ والخلافات القائمة والكامنة فيها. ثم اهتم بدارسة مدى صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق، ومدى تقبل المجتمعات الإسلامية لها وأسباب ذلك، وركز المستشرقون المعاصرون على دراسة ما أسموه بالإسلام السياسي، والحركات السياسية الإسلامية ومناقشة برامجها وطموحاتها، ودرسوا المدن الإسلامية وتاريخها وواقعها.. إلخ.

فالاستشراق المعاصر- كما نرى- لم يقف مثلما كان في السابق عند الحدود النظرية في البحث العلمي، وإنما تجاوز هذه الحدود إلى الدراسة الميدانية للمجتمعات والشعوب الإسلامية من كل النواحي.

(Islam in European Thought، PP.50 – 52)

ولقد وظف الاستشراق في هذه الدراسات المعاصرة تقنيات وأساليب جديدة، فقد استخدم المناهج السوسيولجية والأنثروبولوجية والسيكولوجية، والإحصائية والتاريخية؛ ولم يعبأ كثيرًا بنشر التراث وتحقيقه وترجمته كما كان يفعل المستشرقون من قبل.

ولأنه ليس من هدف هذه المقدمة التأريخ للاستشراق، فإني لا أتوقف عند هذه المرحلة الراهنة من سير الاستشراق، لكنني أقول مستندًا على كتابات المستشرقين أنفسهم: إن الانفكاك من أغلال الكنيسة في العصر الحديث قد حرر المستشرقين إلى حد كبير من توظيف الدراسات الاستشراقية جملة وتفصيلًا لأغراضها، ورغم مساندة كثير من كبار المستشرقين الأوروبيين الخطط الاستعمارية لحكوماتهم، فإن الدراسات الاستشراقية - في العصر الحديث - قد تطورت إلى حد كبير وقد تحسنت صورة الإسلام في كتاباتهم بشكل ملحوظ، لكن يبقى أن نذكر هنا أن كثيرًا من المستشرقين - مع ذلك - لا يزالون إلى اليوم يحملون أحكام العصور الوسطى في الغرب وتصوراته عن الإسلام والقرآن والسنة والرسول ﷺ والشريعة والحضارة والتاريخ الإسلامي. والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا يصعب حصرها، لذلك فإني أشير إلى نماذج فحسب، جاء في كتاب دراسي «Text Book» في الولايات المتحدة تعريف بالإسلام والرسول والقرآن ورد فيه:

«The Muslim Religion called Islam، began in the seventh century. It was started by a wealth businessman of Arabia. called Muhammad. He claimed that he was Prophet. He found followers among other Arabs. He told them that they were picked to rule the World. Shortly after Muhammad's death، his teachings were recorded in a book called the Quran. It became the Holy Book of Islam».

Cited in Ayad al Qazzaz and Ruth Afiyo، « The Arabs in American Text books » California State Board of Education، June 1975.

أما عن تلك المسألة التي أثارها المستشرقون وأسموها بقضية أصول أو مصادر الإسلام (Origins) وأنها تكمن في اليهودية والمسيحية والتقاليد

العربية وغير ذلك فإنها مسألة بدأها يوحنا الدمشقي في القرن الثامن الميلادي، ولم يزل المستشرقون يجمعون عليها في تسليم غريب بصحتها كأنها من البداهة المسلمة، أو من المتواترات المتيقنة، وقد خاض معظمهم في البحث عن أصول أو مصادر للقرآن غير الوحي النبوي، ولا أحيل في هذا إلى كتابات جولدزيهر ولا بلا شير، ولا شاخت، ونولدكه، وهرجورونيه، ومونتجمرى واط، وجب، ومكدونالد، وجرنباوم، وجورج سيل وريتشارد بل، وكل هؤلاء قد تعرضوا لذلك؛ لكني على الجملة أقول: إن أكثر المستشرقين قديمًا وحديثًا وحتى يومنا هذا، يحرصون على إثارة هذه المسألة بصورة مبالغ في افتعالها لإثارة غبار من الشك في مصدر القرآن الكريم وأنه وحي معصوم من الله، والقول إن محمدًا- ﷺ- قد ألفه أو لفقه من الأسفار اليهودية والمسيحية ومن الجاهلية العربية وغير العربية إلخ.

والنظر في عنوان كتاب C. C. Torrey الذي أعاد نشره Frank Rosenthal في نيويورك 1967 مع مقدمة ضافية: The Jewish foundation of Islam يؤكد ذلك. ولا يزال المستشرقون مقتنعين بأهمية، بل بضرورة دراسة المصادر التي تسربت أو التي أثرت في بناء القرآن الكريم؛ يقول المستشرق الفرنسي المعاصر Maxime Rodinson.

« The scholars of the period were interested in investigation of influences. Those works which insisted on Christian influence were counterbalanced by those which emphasized Jewish influences، this latter having being studied as early as 1833 by Rabbi Abraham Geiger in a carefully balanced study. The same tendency was subsequently continued by C. C. Torrey and others. Somewhat more broadly، serious studies were devoted to Judeo – Christian sources of Quranic narrative Concepts ».

ويؤكد مكسيم رودنسون أهمية التحقيق في أصل الإسلام وأصالته (Originality) قائلًا:

«Studies of this genre are assurely very necessary. Islam is not born in a sealed container in an environment sterilized against the germs of other ideologies as contemporary Muslims authors and certain others frequently imagine.

انظر بحثه المفصل بعنوان:

«A critical Survey of Modern Studies on Muhammad» ليس ذلك فحسب، ولكن لنقرأ ما كتبه المستشرق اليهودي المعاصر Goitein:

«Islam، however، is from the very flesh and bone of Judaism»

«الإسلام من صميم لحم وعظم اليهودية»

[Jews and Arabs، New york، 1955 P.129]

أما Watt فيرى أن على الإسلام أن يعترف بحقيقة مصدره ومدى تأثير الديانات السابقة من يهودية ونصرانية، والثقافات السورية العراقية والمصرية على بنيانه:

« Islam would have to admit the fact of its origin. The historical influence of the Judeo – Christian religious traditions and the cultural traditions of Syria، Iraq. and Egypt». [Islam and the integration of Society، London 1961 P. 283].

ولنقرأ أيضًا هذا الفصل الذي كتبه M.Cook عن أصول القرآن في كتابه واسع الانتشار بعنوان (محمد) ص77 وما بعده، طبعة جامعة أكسفورد سنة 1983م، وغير ذلك كثيرٌ جدًّا.

والحق أن الباحث المحقق في كلام المستشرقين حول ما أسموه أصول

القرآن ومصادره، لا يجد فرقًا كيفيًّا بينه وبين كلام المبشرين في هذا الصدد، فبالاطلاع على كتابات مثل: «ميزان الحق» للدكتور فندر وسنكلير، أو «مقدمة في الإسلام» للدكتور سال، أو «تنوير الأفهام بمصادر القرآن «للدكتور سنكلير تسدل، أو كتاب «الهداية» إلخ نستبين جلية الأمر. ولنذكر هنا نصًّا واحدًا من كتاب «تنوير الأفهام بمصادر القرآن» يقول مؤلفه وهو منصِّر معروف: «ولكن إذا أمكن، بالبحث والتحقيق والتأمل والتدقيق، إقامة الدليل الساطع الذي يكون أوضح من الشمس في رابعة النهار، أن أكثر القرآن وأغلب عقائده، أخذت بلا شك ولا شبهة من الأديان الأخرى ومن الكتب التي كانت موجودة في أيام محمد، ولا تزال موجودة الآن، فحينئذ تندك أسس الديانة الإسلامية دكًّا وتنهار دعائمها، وتندرس معالمها».

ص11 ت12 والطبعة بدون ذكر تاريخ النشر أو مكانه.

ويحسن أن نختم هذه المقدمة بذكر ما أوجزه الدكتور ألبرت حوراني– الأستاذ بجامعة أوكسفورد وهو ممن لا يُتهمون ألبتة بالتعصب ضد الاستشراق– من بيان لأهم الانتقادات التي وجهها العلماء الدارسون «Scholars» إلى المستشرقين، حصرها في ثلاث نقاط مهمة، هي:

1. نن شيوخ الاستشراق في الغرب اعتزموا أن يكونوا (مشيخة) «Essen-tialists» وأخذوا على عاتقهم شرح كل جوانب الثقافة والمجتمعات الإسلامية من زاوية تنظر إلى الإسلام على أنه ذو طبيعة أحادية جامدة، وأن جموده قد أثر على المجتمعات التي يسيطر عليها.
2. أن مشيخة الاستشراق في الغرب قد حركتها في دراساتها عن الإسلام الدوافع السياسية، في مرحلة السيطرة الأوروبية على العالم، وحتى الآن ففي ظل نموذج آخر من السيطرة الغربية على العالم Western Ascen-dancy وقد أخذ الاستشراق على عاتقه مهمة تبرير السيطرة الغربية على

المجتمعات الإسلامية، وذلك عن طريق خلق مجتمعات راكدة جامدة تسير القهقرى، عاجزة عن حكم نفسها، ويقول الدكتور ألبرت حوراني: إن الرعب من ثورة الإسلام الذي أزعج العقل الأوروبي إبَّان عصر الاستعمار قد عاد ليزعجه مرة أخرى!!!.

ويعلق الدكتور حوراني على هذا الاتهام الموجه للاستشراق بقوله: «Again، there is some truth in this accusation»

3. بل إن المستشرقين الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ليتحملون بعض المسئولية عن الطريقة التي مارست بها بلدانهم السلطة (في المستعمرات، وأن بعضهم قد قبل تقسيم العالم إلى شرق وغرب، وإسلامي ومسيحي، ومتقدم ومتخلف، وهذه التقسيمات هي التي تؤدي إلى تبرير السيطرة الغربية على العالم، ثم يستطرد الدكتور حوراني قائلًا: ليس كل المستشرقين قد قبلوا هذا التمييز؛ بل إن بعضهم كانوا خصومًا لسياسات بلدانهم الاستعمارية مثل Brown الذي كان مؤيدًا للثورة الدستورية في إيران.

خلق الفكر الغربي وأساتذة الاستشراق مجموعة من الأحكام السائدة نظر إليها على أنها حقائق ثابتة مؤبدة لا تناقش (عن الإسلام). والواقع أن هذه الأحكام تولدت من التأمل العقلي الدرسي الأكاديمي المنبت الصلة تمامًا عن الواقع الذي تدرسه وتحكم عليه.

ومن هذه الأفكار المؤبدة نظرة المستشرقين إلى الإسلام والحضارة العربية على أنها مرحلة انتقالية بين الحضارة الكلاسيكية اليونانية الرومانية والحضارة الحديثة في أوروبا، ولقد عبر عن ذلك المستشرق C. H. Becker بقوله: «لولا الإسكندر الأكبر لما كانت هناك حضارة إسلامية».

«Without Alexander the Great، no Islamic civilization would have flourished».

ومثل تركيز المستشرقين واهتمامهم البالغ بمسألة مصادر القرآن (Origins) والحديث كما درسها جيجر، وجولدزيهر، وهنرى لامانس، وتوري وأهرينز، وغيرهم.

«Islam in European Thought» PP. 57 – 60.

ومع ذلك فلا يفوتني أن أشيد بتلك الميزة العظيمة التي توفرت للمستشرقين وأعني بها حرصهم على امتلاك أدوات البحث في التراث الإسلامي؛ ومن ذلك معرفتهم باللغات التي كتب بها هذا التراث مثل العربية والفارسية، والتركية، وكذلك نظرتهم العامة الرحيبة إلى هذا التراث في مناطقه المختلفة أو مواطنه المتعددة المترامية مع سهولة في الحصول على المخطوطات الأصلية، الأمر الذي لم يتح للباحثين العرب إلا في القليل النادر. وأضرب في هذا المقام مثالًا واحدًا بالمستشرقة المعاصرة «Annimarie Schimmil» التي تخصصت في دراسة التصوف الإسلامي، فهي قد أتقنت أهم لغات المسلمين مثل العربية والفارسية والتركية والأردية علاوة على الإنجليزية والألمانية والفرنسية... والحق أن كثيرًا من المستشرقين يحرصون على تعلم لغتين من لغات المسلمين على الأقل ليتمكنوا من السير في بحوثهم، ولا يخفى ما لذلك من قيمة في حقل الدراسات الإسلامية.

وبعد: فمهما يكن من أمر، فإني قد حرصت– في هذا الكتاب– أن أجتهد – ما وسعني الاجتهاد – أن أطلع على دراسات المستشرقين أنفسهم، وعلى مراجعة أقوالهم وأحكامهم، وأن أقتبس كثيرًا منها، بعد أن أترجمه إلى اللغة العربية أو اللغة الإنجليزية، ليطلع القارئ الكريم عليها بنفسه ويشاركني الفهم والاستنباط والحكم، ولم ألتفت إلى الأحكام السابقة المادحة أو القادحة كما أسلفت.

كما ركز هذا البحث على تتبع دراسة المستشرقين لأصول الفكر الإسلامي: القرآن والحديث لما له في ذاته من أهمية علمية، ولما للاستشراق كله من أهمية إذ أنه يمثل مستوى من مستويات الحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية، كما يمثل وجهًا من وجوه العلاقة التاريخية بين الإسلام والغرب، وكما أنه المسئول عن رسم الصورة النمطية المتوطنة في الغرب عن الإسلام والمسلمين، كما أنه المسئول عن تشكيل العلاقة المتوترة بين الإسلام والغرب

هذا وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث، والحمد لله رب العالمين.

محمد عبد الله الشرقاوي

إسلام آباد في 21 / 8 / 1992**م**

تمهيد

مهما اختلف الباحثون بشأن الاستشراق والمستشرقين فإنهم غالبًا ما يلتقون[1] عند بعض النقاط البالغة الأهمية والتي يمكن إيجازها وإبرازها فيما يلي:

1 – كان الاستشراق في نشأته الأولى – في الزمن البعيد – صادرًا عن أغراض ودوافع دينية وتبشيرية كنسية.

2 – كما أن خدمة الاستعمار كانت وراء انطلاقة الاستشراق النشطة في القرن الثامن عشر وما تلاه.

3 – أثر المستشرقون أعمق تأثير وأخطره في صياغة التصورات الغربية عن الإسلام، ومن ثم كانت لهم اليد الطولى في تشكيل موقف الغرب إزاء الإسلام والمسلمين على مدى قرون عديدة وحتى اليوم.

4 – يثبت الواقع أن للمؤسسة الاستشراقية تأثيراتها العميقة الفاعلة في الفكر الإسلامي الحديث؛ فقد أثر المستشرقون إلى أبعد حدود التأثير في بناء بعض العقول الإسلامية النشطة، وصياغة رؤيتها الخاصة عن الإسلام ذاته، مع التمكين لها، وإذاعة فكرها ونشره على أوسع نطاق.

5 – هناك علاقات تبادل فريد وعجيب بين فهم الاستشراق من ناحية، وفهم العلاقات التاريخية بين الغرب والشرق من ناحية أخرى.

(1) يلتقي على هذا الرأي بعض المستشرقين مثل: دينيه وجرومانوس، وروجيه جارودي ومحمد أسد، ومعظم دارسي الاستشراق من العلماء العرب مثل إدوارد سعيد، ونجيب العقيقي، والدكتور حميد الله، والدكتور فؤاد سزكين، والدكتور محمود حمدي زقزوق، والدكتور مصطفى السباعي، والدكتور عبد الجليل شلبي، والدكتور قاسم السامرائي، والدكتور محمد البهي، والشيخ أبو الحسن الندوي، والدكتور عبد الحليم محمود، ومالك بن نبي، والدكتور عرفان عبد الحميد، والطيباوي، والدكتور حسن حنفي، والدكتور عبد الحميد مدكور، والدكتور إسماعيل راجي الفاروقي، والدكتور جعفر شيخ إدريس، وغير هؤلاء من الدارسين كثيرون.

6 – وتعتبر ظاهرة «الاستشراق» فريدة غير مسبوقة في تاريخ الحضارات كلها، فلم تقم حضارة بمثل هذا الجهد الشامل لدراسة حضارة أخرى من جميع وجوهها، لتحقيق غايات محددة مرسومة سلفًا.

وهذا يوضح لنا خطورة موضوع الاستشراق، ويؤكد الحاجة إلى دراسات علمية فاحصة متعمقة لمسألة الاستشراق من جميع زواياها، والوقوف على تفصيلاتها الدقيقة، وتشعباتها المتعينة السافرة، أو المحجبة غير المعلنة.

وليس من شأن هذا البحث الوجيز أن يضع حلولًا لمشكلات عويصة، لكن حسبه أن يشير ويقترح، كما أننا لا ندعي لأنفسنا فضلًا أو علمًا، فإن هذا البحث من أوله إلى آخره لا يعدو أن يكون دراسة لأقوال المستشرقين أنفسهم وتمحيصًا لاعترافاتهم الكثيرة في هذا الصدد.

وغني عن البيان أن نقول إن المستشرقين ORIENTALISTS هم أولئك النفر من الباحثين الغربيين الذين تخصصوا في دراسة لغات الشرق بعامه، وآدابه، وعقائده، ونُعنى في بحثنا هذا – من بينهم – بأولئك النفر الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية والدين الإسلامي، قرآنًا، وسنة، وتشريعًا، وحضارة، وفكرًا، وتصوفًا، وفلسفة، وفنونًا، وآدابًا، وعادات، وتقاليد... [1].

---

(1) انظر: 1979 ،Edward Said، Orientalism، New york المقدمة والفصل الأول، وكذلك انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، نشرة دار المعارف بمصر (ثلاثة مجلدات) – المقدمة.

– H.A.R. Gibb، Oriental Studies in the U.K.. Cambridge. 1951

– Anwar Abdulmalek: Orientalism in Crisis. 1963 (Diogenes 44)

– A.L. Taibawi، English – speaking Orientalists: A Critique of their Approach to the Islam and Arab Nationalism، P 1 – 2 (Islamic Quarterly)1964.

الاستشراق ودوره في صياغة العلاقة بين الغرب والإسلام(*)

الاستشراق Orientalism ظاهرة غربية مهمة؛ ذلك أن الإسلام قد احتك احتكاكًا مباشرًا بحضارات شرقية عديدة هندية وصينية، لكن الحضارة الغربية وحدها هي التي أنتجت ظاهرة الاستشراق بمعنى أن يتخصص عدد كبير جدًّا من أبنائها في دراسة الإسلام - عقيدة وشريعة وحضارة وتاريخًا ولغة إلخ - بكثافة وتركيز، منذ احتكاك الإسلام بالغرب وإلى اليوم.

وإذا كان العالم العربي هو مركز العالم الإسلامي، وإذا كانت أوروبا هي مركز الغرب فإن العلاقة بين العالم العربي وأوروبا أو بين شاطئي البحر المتوسط: شماله وجنوبه قد نشأت قبل الإسلام.

فقد احتل اليونان والرومان المنطقة العربية كلها، أو إن شئت قل إن المنطقة العربية جنوب البحر المتوسط كانت مجالًا حيويًّا للتوسع والهيمنة الاستعمارية من الغرب في شمال البحر المتوسط، وقد استقر الحال على ذلك لمئات من السنين إلى أن ظهر الإسلام في المنطقة العربية، ووحد شعوبها في أمة واحدة تحركت بقوة وثبات وسرعة مدهشة لفتح جميع البلاد التي كانت تحت الهيمنة الغربية، ثم عبرت البحر المتوسط من الجنوب إلى الشمال وفتحت أجزاء كبيرة من أوروبا. وورث الإسلام - ضمن ما ورث - الإمبراطوريتين الغربيتين اليونانية والرومانية.

وكانت الكنيسة إذ ذاك - متحالفة مع الملوك ورجال الإقطاع - هي المسيطرة على مقدرات العالم الغربي (أوروبا).

(*) بحث ألقيناه في مؤتمر (العالم الإسلامي والغرب) الذي نظمته الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا من 5 - 2006/9/7م في كوالالمبور.

ويرى كثير من الباحثين مثل ألبرت حوراني ومكسيم رودنسون وجون اسبوزيتو وغيرهم «أن الصعود والتوسع السريع للإمبراطورية الإسلامية وازدهار الحضارة الإسلامية قد فرضا خطرًا مباشرًا على مكانة العالم المسيحي في العالم من الناحيتين اللاهوتية والسياسية على السواء، كما لاحظ ماكسيم رودنسون: كان المسلمون تهديدًا للمسيحية الغربية قبل أن يصبحوا مشكلة سياسية بزمن طويل، كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بنيان الوحدة الروحية للغرب، ونموذجًا حضاريًّا يجتاز بتفوقه وبحركته الإبداعية المتسارعة وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب. إذ أنه وفي مواجهة تقدم هذا النموذج عبر مثقفو الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام الإسلام، وبدا لهم أنه خطر داهم على المسيحية.

تصور الغرب إذًا أن الإسلام يمثل خطرًا ينبغي وضعه في الحسبان، ومن هنا كانت استجابته – كما يذكر جون اسبوزيتو – دفاعية وذات صبغة حربية، تجلّت في إدانته واستبعاده باعتباره همجيًّا كافرًا بدلًا من فهمه[1].

امتلأ الغربيون بالإحساس بالنقص إزاء الدين الإسلامي وحضارته المتفوقة المزدهرة، ودفعهم شعورهم المتزايد بالخوف والمرارة بعد فشلهم المريع في حروبهم الصليبية إلى البحث عن خطط بديلة تحقق أهدافهم دون مواجهة عسكرية بحيث تؤدي إلى تشويه الإسلام في أعين الغربيين وتخويفهم منه بغية صرفهم عنه: أي القيام بعملية تزييف لوعي المواطن الغربي وحجب حقيقة الإسلام عنه. أي أن الغرب قد تصرف إزاء الإسلام تصرفًا ينسجم مع نزعته الاستعلائية العنصرية، فراح ينسج لهذا الدين صورة مزيفة كالحة السواد، ويسوِّق هذه الصورة البشعة المخيفة للمواطن الغربي بهدف تحصينه ضد الإسلام.

ولقد احتمل رجال الكنيسة كِبر هذا العمل وتحولت جماعة منهم إلى

(1) جون اسبوزيتو: التهديد الإسلامي، ترجمة قاسم عبده قاسم، ص61، القاهرة 2002...... ويلاحظ أن المستشرق Bernard Lewis في بحثه عن جذور التطرف الإسلامي يؤكد ذلك.

مستشرقين محترفين يدرسون الإسلام من كل جوانبه من أجل دحضه أو تشويهه بغية تسميم عقل الإنسان الغربي ووجدانه ضد الإسلام ورموزه ليصبح كارهًا له خائفًا منه، وبذلك يبلغ الغرب هدفه في تحصين مواطنيه ضد هذا الدين.

ولا يسعنا إلا أن نقر بأن المستشرقين قد أنجزوا مهمتهم بنجاح كبير واستطاعوا القيام بأكبر عملية تزييف وعي في التاريخ الإنساني حسب علمنا، لقد خان هؤلاء أماناتهم ولم يقدموا لذويهم في الغرب الحقيقة كما هي عليه في الواقع، فأساءوا إلى مواطنيهم، وأساءوا إلى الحقيقة وإلى الإنسانية كلها؛ لأن أعمالهم تسببت في توتر دائم في العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي، لقد نجح هؤلاء في خلق صورة نمطية عن الإسلام أو قل إنهم نجحوا في خلق مزاج أو مناخ عقلي عام يسيطر عليه – كما ذكرنا – الكره والخوف من الإسلام إلى الحد الذي لم يفلت منه كثير من عباقرتهم وفلاسفتهم، ثم ورثت وسائل الإعلام الحديثة هذه الصورة النمطية وأعادت إنتاجها وتعميمها على أوسع نطاق مما كرَّس بدوره عمقَ الشعور العدائي وزاد من توتير العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي.

معنى ذلك أن الصورة النمطية التي رسمها الاستشراق للإسلام وسوقها للمواطن الغربي في العصور الوسطى، قد انتقلت – مع تراكم في التشويه وتوظيف لأحدث الوسائل التقنية الإعلامية – إلى المواطن الغربي في العصر الحديث.

وللتعرف على ملامح صورة الإسلام في الغرب في العصور الوسطى يمكن الرجوع إلى بعض المصادر الغربية مثل:

«The influence of Islam on Medieval Europe»[1].

للمستشرق الأب W. Montgomery Watt

وكتاب:

(1) نشرته جامعة ادنبرة سنة 1972.

«Western Views of Islam in the Middle Ages» (1).

للمستشرق: Southern

والكتاب الوثيقة:

«Rise and Progress of Mohametanism»[2].

للمؤلف الدكتور: Henry Stubbe

ويمكننا أن نقتبس نصًّا من الكتاب الأول يختصر فيه M.Watt أبرز ملامح الصورة التي رسمت للإسلام والتي تمثلت في أن:

1 - الدين الإسلامي أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة:

كان مفهوم الأوروبيين في العصور الوسطى عن العالم والإنسان والرب شديد الارتباط بمفاهيم الكتاب المقدس، بحيث لم يكن في وسعهم أن يدركوا إن كان يمكن توفير صياغات بديلة للتعبير عن هذه المفاهيم، وبالتالي فإنه كلما اختلفت تعاليم الإسلام مع تعاليم المسيحية قيل: إن الأولى زائفة بالضرورة.

ويمكن أن نضرب مثلًا للنبرة العامة في الفكر الأوروبي بصدد هذه النقطة فقرة واردة في كتاب القديس توما الأكويني «Summa Contra Gentiles» فالأكويني كان من بين أكثر مفكري القرن الثالث عشر اعتدالًا ونبوغًا- فبعد أن تحدث عن الآيات والأدلة العديدة التي تؤكد صحة العقيدة المسيحية نجده يصر على أن هذه الأدلة مفتقرة لدى أمثال محمد ممن أسسوا ما أسماه توما بالفرق[3]. بالإضافة إلى (المتع الجسدية) التي يبيحها الإسلام والتي تجذب الناس إليه، إضافة إلى سذاجة الأدلة والحجج التي جاء بها محمد، وخلطه الحق بقصص لا سند لها في التاريخ، وتعاليمه الزائفة، وافتقاره إلى المعجزات التي تؤيد زعمه أنه نبي.

(1) نشرته جامعة هارفرد 1962.

(2) نشر في لاهور 1911.

(3) يقصد أن الإسلام فرقة منشقة عن المسيحية وقد تلقّف هذه الفرية من يوحنا الدشقي.

ثم وصف أتباعه الأول بأنهم لا علم لهم بالإلهيات، وكانوا يعيشون في الصحراء حياة أقرب إلى الحيوانات. ثم يضيف: إن هؤلاء الأتباع كانوا مع ذلك من الكثرة بحيث مكنوا محمدًا من إجبار الآخرين بالقوة العسكرية على اعتناق الإسلام. وذكر أنه بالرغم من زعم محمد أن الكتاب المقدس تنبأ بظهوره فإن النظرة المدققة توضح أنه حرّف كل شواهد العهدين.

وفي حين قنع الأكويني والكثيرون غيره من الكتاب المسيحيين بأن محمدًا خلط الحق بالباطل، تمادى آخرون فادَّعوا أنه حيث ما قال قولًا سليمًا دس فيه السم الكفيل بإفساده، فإنه يمكن مقارنة أقواله الصادقة بالعسل الذي أضيف ليخفي السم تحته. أو على حد قول أحدهم: لاحظْ في الكتاب بأسره دهاءه الرائع المتمثل في أنه كل ما أراد أن يقول شيئًا شريرًا، أسرع بإضافة كلام عن الصوم أو عن الصلاة أو عن حمد الله وتمجيده.

كان قصدهم من هذا الحديث في معرض رسمهم لصورة الإسلام بيان تناقض هذه الصورة مع الصورة المسيحية، لأنهم ارتأَوْا أن الكتاب المقدس هو التعبير النقي الذي لا تشوبه شائبة عن الحقيقة الإلهية، وأنه مطلق صالح لكل زمان ومكان.

2 - الإسلام دين العنف والسيف:

يقول Watt قد ذكرنا عرضًا أنه حتى العلماء من أمثال توما الأكويني كانوا يحسبون أن محمدًا إنما نشر الإسلام بالقوة العسكرية. كما كانوا يخالون أنه من بين تعاليم دين العرب: الدعوة إلى السرقة من أعداء الله ورسوله وأسرهم وقتلهم واضطهادهم وهدمهم بأي صورة من الصور.

والواقع أن الصورة الأوروبية للإسلام هي أبعد ما تكون للحقيقة، ويذكر Watt: أنه بيَّن أن اليهود والنصارى وأتباع الديانات الأخرى التي يعترف الإسلام بها لم يخيروا بين الإسلام والسيف، وأن الذين خيّروا بينهما هم عبدة الأوثان وحدهم، ولم نسمع عن حدوث هذا خارج جزيرة العرب، أما النشاط الحربي

للمسلمين فإنما أدى إلى توسع سياسي، وجاء اعتناق الإسلام نتيجة للدعوة إليه أو نتيجة الضغط الاجتماعي.

في تلك الصورة للإسلام باعتباره دين عنف ما يراد به الإيحاء بأنه على النقيض من المسيحية باعتبارها دين سلام انتشر عن طريق الإقناع.

3 - **الإسلام دين يطلق لشهوات المرء العنان:**

نظر الأوروبيون في القرون الوسطى للإسلام على أنه دين شهواني، وكثيرًا ما كانوا يحسبون أنه لا حدود لعدد الزوجات التي يمكن للمسلم الزواج بهن إن تيسر له الإنفاق الاقتصادي.

ويذكر Watt أن بعض الكتاب المسيحيين كان يعلم أن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع زوجات، وكتب مع ذلك يقول إن الحد الأقصى هو سبع أو عشر، وكثيرًا ما ترجموا آيات قرآنية بحيث توحي بمعنى جنسي منفر، والآيات بريئة من ذلك، بل وجد بعض الكتاب آية قرآنية زعم أنها تبيح الزنا... إلى غير ذلك!

4 - **أن محمدًا هو المسيح الدجال:**

يذكر Watt أن بعض الدارسين الأوروبيين للإسلام لم يكتفوا بالزعم أن القرآن يحوي الكثير من الكذب، وأن محمدًا ليس بنبي، فقد تناول «بطرس المحترم» فكرة لبعض علماء اللاهوت تذهب إلى أن الإسلام هرطقة مسيحية، وذهب إلى أن الإسلام أسوأ من هذا، وأنه من الواجب اعتبار المسلمين كفرة.

وكان جوهر التفكير المسيحي في هذا الصدد أن محمدًا ليس بنبي وأنه كان أداة للشيطان، وبهذا جعلوا الإسلام والمسيحية على طرفي نقيض[1].

* * *

(1) راجع: كتاب «محمد» تأليف كارين أرمسترونج، وكتاب «إنه رسول الله» تأليف أنا ماري شمل

نشأة الاستشراق وعلاقته بالكنيسة

نشأ الاستشراق أول مرة في أحضان الكنيسة خدمة للهدف الاستراتيجي الذي حدده بطرس المحترم رئيس رهبان دير Cluny في إسبانيا، المتمثل في دراسة الإسلام من أجل دحضه وإبطاله. وبطرس المحترم هذا قد درس في الأندلس وأشرف على ترجمة القرآن الكريم – لأول مرة – إلى اللغة اللاتينية، تلك الترجمة التي أنجزت في إسبانيا عام 1143 [1].

وقد كان من أبرز المتحمسين الذين دعوا إلى تعلم لغة المسلمين بغرض تنصيرهم Roger Bacon – 1293، فقد كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع العالم المسيحي في الشرق، ولبلوغ هذا الهدف لابد من توافر شروط ثلاثة هي:

1 – معرفة اللغات الإسلامية.

2 – دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها عن بعض. (دراسة الأديان)

3 – دراسة الحجج المضادة حتى يكمن دحضها.

لقد شارك Bacon في طموحاته هذه R. Lull – 1316، الذي كانت له جهود كبيرة أثمرت إنشاء كراسي خمسة لتدريس اللغة العربية في جامعات أوروبية، وكان الهدف من هذه الجهود هدفًا تنصيريًّا خالصًا. وقد أقر مجمع فيينا الكنسي عام 1312 أفكار R.Lull ومن قبله Bacon بشأن وجوب تدريس اللغات الإسلامية في الغرب، وتمت بموجب هذا القرار الكنسي الموافقة على تعليم اللغة العربية في

(1) رودي بارت: الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، ص9، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة 1967.

جامعات باريس وأوكسفورد وبولونيا وسلامنكا بالإضافة إلى الجامعة البابوية.... وقد قدّر لـ R.Lull أن يعيش حتى يرى حلمه يتحقق، وكان يعتقد أن الوقت قد حان لإخضاع المسلمين عن طريق التنصير، وبذلك تزول العقبة الكبرى التي تحول دون تحويل الإنسانية كلها إلى العقيدة الكاثوليكية[1].

وبرغم الاجتهادات العديدة الرامية إلى تحديد بداية نشأة الاستشراق، فإني أرى أنه قد بدأ بداية حقيقية منظمة بعد صدور قرار مجمع فيينا سنة 1312، وقد توسعت أوروبا– بعد ذلك– في فتح أقسام جديدة وإنشاء كراسي أستاذية في عدد من الجامعات: ففي سنة 1587 بدأ تدريس اللغة العربية بصورة منتظمة في College de France في باريس، وفي سنة 1613 في جامعة لايدن بهولندا، وفي كامبردج سنة 1639، وأنشئ كرسي أستاذية للعربية والدراسات الإسلامية في أوكسفورد سنة 1634. ويرى الدكتور ألبرت حوراني أنه منذ ذلك الوقت بدأت دراسات مهمة ومكثفة للمصادر العربية[2]، ثم توسعت أوروبا في دراسة الإسلام والمسلمين توسعًا كبيرًا في عصر الإمبراطوريات الاستعمارية الحديثة كما سنذكر فيما بعد.

وننقل هنا عن المستشرق الإنجليزي A.J.Arbarry ما جاء في المذكرة التي رفعها جمع من العلماء إلى المسؤولين في جامعة كامبريدج والتي سوغوا بها طلبهم إنشاء كرسي للدراسات العربية والإسلامية بالجامعة: «يضع المركز نصب عينيه خدمة مصالح الملك والدولة وذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الشرق، وتوسيع حدود الكنيسة في الوقت المناسب، ونشر هدي الدين المسيحي بين أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة»[3].

(1) المستشرق الألماني يوهان فوك: «الدراسات العربية في أوروبا» عن كتاب الاستشراق للدكتور زقزوق.

(2) A.Hurani, Islam In European Thought, PP. 12 - 13.

(3) A.J.Arbarry, The Cambridge school for Arabic, P.8, 1948.

الاستشراق في الحقبة الأمريكية:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تحول مركز الثقل وقيادة العالم من أوروبا إلى أمريكا، فيمّم كثير من المستشرقين الأوروبيين وجوههم شطر الولايات المتحدة، وبهذا تكون الحركة الاستشراقية قد دخلت طورًا جديدًا ومعاصرًا.

خططت الولايات المتحدة لدورها الاستعماري الجديد في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ووظفت الاستشراق ومراكز البحوث، ورسمت لذلك ما أطلقت مليه سياسة العلاقات الثقافية Cultural Relations Policy، وقد أفصح Mortimer Graves عن طبيعة هذه السياسة قائلًا: إن العملية الهائلة لتجميع المطبوعات المتميزة في لغات الشرق الصادرة منذ سنة 1900 وحتى اليوم 1950 وفحصها إجراء يتعلق بالأمن القومي الأمريكي، وهو من أجل فهم أمريكي أفضل للقوى التي تنافس الفكرة الأمريكية، وأهم هذه القوة المناوئة لأمريكا قوتان: الشيوعية والإسلام. وهذه عبارته:

Was the need for much better American understanding of the forces which are contending with the American ideas for acceptance by the near east. The principals of these are ،of course، communism and Islam[1].

وهكذا فقد تعاظم الاهتمام بدراسة الإسلام في الجامعات الأمريكية ومراكز البحوث، ولقد هاجر – كما أشرنا – بعض كبار المستشرقين من أوروبا إلى أمريكا ومن بينهم McDonald الذي تعلم على يد نولديكا وفليشر وهاجر Gibb إلى جامعة هارفارد، وكذلك المستشرق المعروف Bernard Lewis. وأخذ الاستشراق في المرحلة الأمريكية الراهنة طابعًا عامًّا يتمثل في التحرش الثقافي مع القوى المناوئة

(1) M.Graves، A cultural relations policy in the Near East، "The Near East and the Great Powers"، ED.Frye، pp.76 - 78.

للفكرة الأمريكية على حد تعبير إدوارد سعيد[1].

وتذكر الباحثة الأمريكية المعاصرة مارجريت ماركس بصراحة: أن هذه الأقسام وغيرها لا تزال تقوم بنفس تلك الوظائف حتى الوقت الحاضر... تقول «إن المستشرقين العلماء والسياسيين الغربيين الدهاة واعون جيدًا لهذه الحقائق، وكذلك فإن الأقسام المتخصصة في الجامعات والمراكز العلمية المنتشرة في أوروبا وأمريكا والمتخصصة في دراسة الإسلام إنما تقوم بذلك من أجل تحقيق غاية واحدة هي: التمكن من العدو لتدميره.؟ وتلك المعاهد ومراكز البحوث مشغولة اليوم بتكوين أتباع للغرب في قطر إسلامي تلو الآخر، وهدفهم من وراء ذلك إجهاض القضية الإسلامية من داخلها وإحباط أي محاولة لبعث إسلامي حقيقي» [2].

***

(1) E.Said, Orientalism, New York, 1979.

(2) Islam and Orientalism, pp.16 - 17,1981, Anarkali - Pakistan

الاستشراق في خدمة الاستعمار

أشرنا إلى أن العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي علاقة معقدة وتراكمية، ولطالما وظف الاستشراق في خدمة خطط الغرب الإستراتيجية في التعامل مع العالم الإسلامي منذ رأي الغرب أن ظهور الإسلام وتوحيده لشعوب الشرق يعد مشكلة خطيرة عليه أن يتعامل معها، وكان تحصين المواطن الغربي وإكسابه مناعة فعالة ضد الإسلام والمسلمين عن طريق تسميم عقله وتلويث مشاعره ضد الإسلام والمسلمين أحد هذه الخطط الإستراتيجية التي جند الغرب لها جيشًا جرارًا من المستشرقين. وأنا أقر هنا بأن هذه الخطة قد نجحت في هدفها وأكسبت الإنسان الغربي مناعة فجعلته كما قلنا كارهًا للإسلام خائفًا منه في كثير من الأحوال. ولعل النجاح الذي تحقق قد أغراهم في مواصلة العمل بهذه الإستراتيجية حتى اليوم بعد تحديث أساليبها وتطوير آلياتها وبعد تحالف بعض المستشرقين مع خبراء مراكز البحوث ورجال الإعلام.

وكما وضع كبار المستشرقين أنفسهم في خدمة الكنيسة وأغراضها، وضعوا أنفسهم - إلى جانب ذلك - في خدمة حكوماتهم الاستعمارية، أي أن الاستشراق قد أدى دورًا كبيرًا وأسهم بفاعلية في التهيئة لاستعمار العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر. ولما تم للغرب ما أراد، وسيطر على الشرق الإسلامي عسكريًّا وسياسيًّا وثقافيًّا، هب الاستشراق للعمل على إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية، وبث الوهن والارتباك في التفكير، وذلك عن طريق التشكيك في ما بأيدينا من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية عليا، حتى نفقد ثقتنا بأنفسنا ونستسلم للهيمنة الغربية المتجبرة.

نجح المستعمرون إذًا في توظيف المؤسسة الاستشراقية لخدمة أغراضهم الاستعمارية وتمكين سلطانهم في بلاد المسلمين أي أن رباطًا غير مقدس قد نشأ بين هاتين المؤسستين: مؤسسة الاستعمار، ومؤسسة الاستشراق. وقد خاض في هذا كثير من المستشرقين الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون عملهم «وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام وقيمه» وهذا عمل يشعر إزاءه بعض المستشرقين الموضوعيين بالخجل والعار، يقول المستشرق Stephan Wield: «الأقبح من كل ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في خدمة مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة»[1].

ولا يفوتنا – في هذا السياق – أن نُذكِّر بأسماء بعض كبار المستشرقين الذين ارتبطوا بالقوى الإمبريالية وسخروا بحوثهم وعلومهم عن الإسلام والمسلمين لخدمة الأغراض الاستعمارية، من بين هؤلاء: K.H.Becker الذي أجرى دراسات لحساب الرايخ الألماني بشأن مستعمراتها في أفريقيا التي ظلت خاضعة له إلى سنة 1918 وتطلب ذلك تأسيس معهد اللغات الشرقية في برلين عام 1887 وهو معهد كانت مهمته تتلخص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية وشعوبها وثقافتها[2].

ولسنا نحن الذين نتهم Becker لكن المستشرق الألماني Ulrich Harman يقول: «كانت الدراسات الاستشراقية الألمانية أقل براءة وصفاء نية، فقد كان Becker – وهو من كبار مستشرقينا– منغمسًا في النشاطات السياسة حتى إنه أصبح في عام 1914 شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في إفريقيا والهند كدرع سياسية في وجه البريطانيين»[3].

(1) رودنسون: مقال في تراث الإسلام لشخت وبوزوورث ج1 ص81، الكويت 1978.

(2) رودي بارت، مرجع سابق ص 31 – 32.

(3) مقال عن الاستشراق في مجلة الباحث، ص145، فبراير 1983.

وقد عمل المستشرق النمساوي Alfred V. Kramer مستشارًا للإمبراطورية النمساوية وخدمها ثلاثين سنة في مصر ولبنان ومناطق أخرى [1]، وقد كلفت الحكومة الروسية المستشرق Bartold بالقيام ببحوث تخدم المصالح التوسعية الروسية في آسيا الوسطى.

أما المستشرق الهولندي العتيد Christian Snock فدراسة الشرق الإسلامي عنده- حسب تعبير إدوارد سعيد- إما أن تزيد أو تعمق الخلاف الذي بواسطته تستطيع السياسة الأوروبية أن تتوسع في آسيا الإسلامية [2]، ودوره في خدمة الاستعمار الهولندي في إندونيسيا وتشجيعه للسلطات الاستعمارية بارتكاب مجازر وحشية فيها فمعلوم لكل من يقرأ تاريخ الحقبة الاستعمارية الهولندية.

أما التحالف بين الاستشراق والاستعمار في فرنسا فهو أمر معلوم منذ حملة نابليون بونابرت العسكرية لاحتلال مصر سنة 1798، وأما الدعم العلمي والثقافي الذي قدمه له المستشرقون فسنشير إلى شيء من ذلك في ما بعد. لكننا نشير هنا إلى المستشرق «دي ساس» الذي خدم الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وكان هو الذي قرأ البيان الاستعماري الذي وجه إلى شعب الجزائر. وإلى عهد قريب كان المستشرق الكبير «لوي ماسنيون» مستشارًا للإدارة الاستعمارية الفرنسية للشؤون الإسلامية[3]. ويذكرنا الدكتور ألبرت حوراني أنه كان لماسنيون علاقات سيئة السمعة بسلطات الاستعمار مثل معظم المستشرقين في أيامه.

وإنا نُذكر هنا فقط بالمستشرق الذائع «Bernard Lewis» الذي يستشار كثيرًا من قبل الإدارة الأمريكية ويقدم الدراسات والنصائح لها والتي يبرر لها فيها تدخلاتها من أجل الهيمنة والسيطرة الاستعمارية على العالم العربي والإسلامي وتقسيمه والتمكين لإسرائيل فيه، استمع إليه يقول:

(1) A. Hourani، p.36.

(2) Edward Said، p255.

(3) Edward Said p.221.

«يجب أن يكون واضحًا الآن أننا نواجه تيارًا وحركة تتجاوز بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تلاحقها. إن هذا الشيء ليس أقل من صراع الحضارات، إنه رد فعل غير عقلاني، لكنه تاريخي لمنافس قديم موجه ضد ميراثنا اليهودي – المسيحي وضد حاضرنا الراهن، وضد امتدادهما العالمي»[1].

كما أنه يزعم للغربيين بإسهاب أن الدين الإسلامي هو العامل الأساس وراء كراهية المسلمين للغرب ولأمريكا وللحضارة والحداثة، ويقلل من أهمية السياسات والأطماع الغربية والأمريكية في العالم الإسلامي وخلق وحماية دولة إسرائيل ومسؤوليتها عن الغضب الإسلامي ضد أمريكا وبريطانيا ومن دار في فلكهما.

ولا أدري ماذا يقول Bernard Lewis اليوم عندما يرى قتل إسرائيل للمدنيين في لبنان وفلسطين وفي قانا الأولى والثانية وغزة بسلاح أمريكي؟!! وكذلك ماذا يقول في استخدام أمريكا وحليفتها بريطانيا كل نفوذهما لمنع صدور قرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار حماية للمدنيين من الهمجية الصهيونية الأمريكية؟! وأكثر من ذلك عندما يسمع تصريح وزيرة الخارجية الأمريكية بأن ما يجري ما هو إلا آلام المخاض لولادة شرق أوسط جديد، أي أن هذا التدمير الشامل للبشر والحجر في لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان يحقق الإستراتيجية الأمريكية في إعادة ترتيب المنطقة لترسيخ الهيمنة الأمريكية الصهيونية عليها.

أما عن خدمة الاستشراق للاستعمار فقد تجلى في الحملة الفرنسية على مصر بصورة تكشف قوة التحالف بين هاتين المؤسستين فقد كان نابليون على وعي تام بأهمية توظيف المستشرقين في خدمة حملته الاستعمارية على مصر، فقد كتب إلى «مونج» المستشرق الفرنسي يقول له: «أنا أعتمد عليك وعلى الدعاية المكتوبة باللغة العربية، وإذا لزم الأمر سوف أعود مع سرية إلى أعلى التيبر لإحضارك»[2] لكي يصطحبه معه على رأس فريق من المستشرقين إلى مصر.

---

(1) Bernard Lewis، A.Hourani، P.43. جذور السخط الإسلامي، ص30، نشرة بيروت.

(2) وثيقة رقم 2471، باريس، 20/ 4/ 1798 ضمن كتاب نابليون والإسلام» تأليف كريستيان تشيرفيلز، ص52، القاهرة 2002.

قدم المستشرقون إلى نابليون خدمات كبيرة، فقد فهم منهم أن المصريين شعب متدين، ولا بد أن يظهر لهم تقديسه للقرآن وتقديره للرسول واحترامه للعقيدة الإسلامية، وقد أفهموه كذلك كيف يوظف عقيدة القضاء والقدر الإسلامية في خدمة أغراضه الاستعمارية، وأن يقرب إليه الشيوخ والفقهاء والأئمة والعلماء لأنهم زعماء الشعب الحقيقيون. ولكي يكسب العلماء ومن وراءهم عامة الشعب أعلن نابليون أنه سيدخل هو وجيشه الإسلام. ومن يقرأ وثائق نابليون يدرك أن توظيفه للمؤسسة الاستشراقية كان كبيرًا جدًّا وفعالًا [1]. غاية الأمر إذًا أن معارف الاستشراق كانت في خدمة أهداف الاستعمار وكان رجال المؤسستين يسيرون في طريق واحد[2].

كلمة ختامية:

لا ريب أن بعض المستشرقين– في كل بلد أوروبي وفي كل جيل من أجيال الاستشراق، كانوا موضوعيين في دراساتهم، وبحثوا عن الحقيقة بشرف ونزاهة وتفانوا في خدمتها، لكن ذلك لا يمنعنا من القول بأن الاستشراق بشكل عام قد أساء إلى المواطن الغربي والمسلم في نفس الوقت، كما أساء إلى الحقيقة ذاتها، وإلى العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي، لأنه أسهم في خلق حالة عدائية كرّست توتر العلاقة بينهما.

ولا يمنعني ذلك من القول بأن الاستشراق – برغم الروح السلبية العامة التي سيطرت عليه وبرغم خدمته لأغراض الكنيسة والتبشير تارة والاستعمار تارة أخرى – كانت له إنجازات علمية وبحثية مقدّرة ومن ذلك مثلًا:

- تلك الجهود الكبيرة التي بذلها بعض المستشرقين لتحقيق ونشر بعض الآثار الإسلامية المهمة، ومعاناة قراءة مخطوطاتها مع الصبر الجميل والتحرّي الدقيق في إخراجها في وقت لم يكن بعض علماء المسلمين ليعرفوا عنها أكثر من أسمائها.

(1) انظر رسائل نابليون وبياناته ومنشوراته في المرجع السابق.

(2) ينظر كتابنا: الاستشراق ص64 – 80، القاهرة، 1993.

• كما أن جهود المستشرقين في جمع المخطوطات الإسلامية بالطرق المشروعة وغير المشروعة من شتّى أقطار العالم الإسلامي وحفظها وفهرستها والتعريف بها وتيسير الاستفادة منها غير خافٍ على أحد.

• ومن أبرز أعمال المستشرقين وأكثرها ثمرة ترجمتهم لبعض أمهات المصادر العربية إلى اللغات الأوروبية الحديثة، مما أتاح للغربيين فرصة الاطلاع المباشر على جانب من التراث الإسلامي، وقد كان لهذا العمل الجليل أثر عظيم في فهم بعض العلماء الغربيين الإسلام على حقيقته أو أقرب إلى حقيقته، مما أثمر تحسنًا نسبيًّا لصورة الإسلام في فكر بعض الغربيين.

• ومن آثارهم المهمة وضع المعاجم والقواميس وتيسير اللغة العربية لغير الناطقين باللسان العربي.

• وقد امتلك بعضهم من الشجاعة الأدبية ما جعلهم يتوفرون على نشر كتب ونصوص جدلية كلامية تنتقد دياناتهم ومذاهبهم، بل ويترجمونها إلى بعض لغاتهم ويشيدون بها في بعض الأحيان.

• ولا بد هنا من الإشارة إلى جهود المستشرقين في وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، وتفصيل آيات القرآن الكريم التي أسس عليها الأستاذ فؤاد عبد الباقي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

• ونشير هنا إلى أن هذا الكم الهائل من المعلومات والبيانات الذي جمعه المستشرقون وحشدوه في «دائرة المعارف الإسلامية» – ومع تحفظنا على منهجهم في التحليل والتفسير والاستنباط – الذي يجعل الباحث المسلم يعجز عن إنجاز بحثه دون الرجوع إليها غالبًا، كما أن المؤسسات العلمية والبحثية الإسلامية ينبغي أن تشعر بحرج؛ لأنها لم تنتج مثل هذه الموسوعة.

• ومما يستحق الإشارة تلك البحوث التي كتبها بعض المستشرقين وتدخل

في باب «النقد الذاتي للاستشراق»......... هنالك إذًا جوانب مثمرة للاستشراق ليس من همنا هنا إحصاؤها جميعًا.

إن هذه الايجابيات قد تحققت عرضا، إلى جانب ما حققه الاستشراق من نجاح فائق في خلق صورة مشوهة للإسلام والمسلمين، وغرسها في عقل ومشاعر الإنسان الغربي وتوارثتها الأجيال في الغرب حتى اليوم: تلك الصورة النمطية التي جعلت الإنسان الغربي العادي كارهًا للإسلام خائفًا منه[1]، كل ذلك أسهم في استمرار التوتر في العلاقات الغربية الإسلامية.

***

(1) **انظر المراجع التالية:**

- الإسلام والغرب، جراهام فوللر وإيان ليسر، ترجمة شوقي جلال، القاهرة 1996.
- حوار الاستشراق، أحمد الشيخ، القاهرة 1999.
- جون اسبوزيتو: التهديد الإسلامي، القاهرة 2002.
- الإسلام في عيون السوسريين، ثابت عيد، ألمانيا 1999.
- حوار المسيحية والإسلام، هانز كونج وجوزيف فان إس، ترجمة الدكتور السيد الشاهد، بيروت 1994.
- الإسلام والغرب، إدوارد سعيد، بيروت 1994.
- Faith and Power, Edward Mortimer, New York 1982.

الاستشراق والنقد الذاتي في ضوء كتاب(*)

An account of the Rise and Progress of Mahometanism with the life Of Mahomet، and A Vindication of him and his Religion From the Columines of the Christians

القسم الأول

توطئة

لا ريب أن مؤسسة الاستشراق قد نشأت في سياق موقف التحدي الذي وقفه الغرب إزاء الإسلام، ثم أصبح مسؤولا– فيما بعد– عن تشكيل موقف الغرب من الإسلام والمسلمين. إنه ظاهرة معقدة تختلط فيها الإيجابيات بالسلبيات والحسنات بالسيئات.

ولا ريب أن الاستشراق قد حقق كثيرًا من الأغراض التي قام من أجلها، ولا ريب كذلك فإن الاستشراق (بمعنى أن يتخصص آلاف من أبناء الحضارة الغربية في دراسة الإسلام وحضارته من جميع جوانبها، كلياتها وتفاصيلها، فكرها وواقعها) يعد ظاهرة فريدة في تاريخ الحضارات والثقافات الإنسانية، فنحن لا نعرف أن ذلك قد حدث بين حضارتين بنفس الكثافة والتركيز وامتداد الفترة التي استغرقها.

يشرح ألبرت حوراني الأستاذ في Oxford في كتابه:

* Ialam in European Thought، Cambridge، 1991.

---

(1) (*) نشر هذا البحث سنة 2000م في الولايات المتحدة الأمريكية في العدد (60) من مجلة (إسلامية المعرفة) التي يصدرها (المعهد العالمي للفكر الإسلامي)

راجع كتابنا (الاستشراق: دراسات تحليلية تقويمية) نشر دار الفكر العربي، القاهرة 1993.

«إن الإسلام قد شكل تحديًا هائلًا للغرب منذ أيامه الأولى»... وقد شمل هذا التحدي الجوانب الدينية والسياسية والحضارية، فصمم الغرب على الاستجابة لهذا التحدي، وفي هذا السياق المحموم نشأ الاستشراق؛ أي نشأ في إطار استجابة الغرب لما تصوره تحديًا إسلاميًّا شاملًا، تلك الاستجابة الغربية التي اعتمدت (حتمية الصراع) مع الإسلام استراتيجية عامة ومطلقة.

لقد كان الغرض الأساسي للاستشراق– منذ البداية– تحصين المواطن الغربي ضد الإسلام، وذلك عن طريق نسج صورة سوداء بشعة للإسلام، تجعل المواطن الغربي خائفًا منه كارهًا له؛ أي عن طريق تسميم عقله ووجدانه تجاه الإسلام والمسلمين.

وقع ذلك منذ البدء، ومرورًا ببطرس المبجل Venerable Peter وترجمته لمعاني القرآن الكريم[1]، ورهبان دير كلوني[2] Cluny في جنوب فرنسا (وقد كان بطرس نفسه رئيسًا له ثم ترأسه من بعد ريموند لول R. Lull) إلى قرار مجمع فيينا الكنسي[3] 1312م بإنشاء خمسة أقسام علمية أكاديمية لتدريس اللغة العربية– رسميًّا– في جامعات الغرب الكبرى في ذلك الوقت (القرن الرابع عشر أي منذ سبعة قرون) بما فيها جامعة الفاتيكان نفسها؛ أي أن الاستشراق قد نشأ رسميًا بقرار من مجمع الكنيسة لأغراض حمائية وتبشيرية، ثم التقت هذه الأغراض في القرن التاسع عشر مع الإستراتيجيات والخطط الاستعمارية (الكولونيالية) الغربية لإخضاع العالم الإسلامي لهيمنة الغرب.

وفي سبيل ذلك سخّر الغرب آلاف الباحثين لدراسة الشرق Orient الإسلامي العربي دراسة مستوعبة شاملة، وقد تمخض هذا الجهد الهائل المتواصل عن آلاف البحوث والدراسات والكتب والمؤتمرات والمجلات التي استطاعت

(1) peter the venerable and Islam, Princeton, 1964.

(2) انظر رسالة راهب دير كلوني إلى المسلمين وجواب القاضي الباجي عليها، بتحقيقنا، نشر دار الجيل، بيروت 1991م.

(3) F. Dovemilk, the Ecumenical Councils, N.Y. 1961.

بنجاح كبير أن توجه العقل الغربي، وأن تشكل الشعور والمزاج العام في الغرب تجاه الإسلام والمسلمين. وقد تجلى ذلك في توتر العلاقات بين الغرب والشرق الإسلامي العربي في كل مراحلها التاريخية والمعاصرة. لقد نفذ المستشرقون بنجاح- يغبطون عليه- أكبر عملية غسل مخ أو تزييف وعي لمواطنيهم عرفها التاريخ الإنساني[1]، وإن رمت الدقة قلت: إنها عملية إكراه ثقافي أو إخضاع فكري للمواطن الغربي.

وقد اقتضى ذلك اقتحام مجالات بحثية وعلمية مهمة مثل: تحقيق المخطوطات الإسلامية وترجمتها إلى اللغات الأوروبية ودراستها ونشرها، ومثل جمع المخطوطات وفهرستها وحفظها، ومثل تأليف المعجمات اللغوية الحديثة، وإنجاز دائرة للمعارف الإسلامية، ومعجم مفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف، ومعجم مفهرس لموضوعات القرآن الكريم، ومثل اصطناع مناهج بحثية نقدية في دراسة التراث الإسلامي، ومثل الإشراف على الأطروحات الأكاديمية التي تتعلق بالثقافة الإسلامية، وكذلك تدريس الفكر الإسلامي في الجامعات العربية والإسلامية، ومثل عقد سلسلة من المؤتمرات ونشر عدد من المجلات الاستشراقية... إلخ.

تلك باختصار رحلة الاستشراق منذ نشأته الموغلة في الزمان حتى اليوم الذي تسلمت فيه آلة الإعلام الغربية «الجهنمية» نتائج تلك البحوث لتوظفها بصورة عصرية تعتمد فيها على أحدث تقنيات الاتصال والمعلوماتية المتطورة.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن كثيرًا من كبار المستشرقين - بعد الحرب العالمية الثانية - وتوسد الولايات المتحدة الأمريكية سدة الزعامة في العالم - قد يمموا وجوههم

---

(1) انظر بحثنا الذي ألقيناه في الندوة الدولية عن مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي (الرياض نوفمبر 1999) بعنوان (كتابات علماء مقارنة الأديان الغربيين كمصدر معلومات عن الإسلام والمسلمين).

شطر أمريكا، وبدأوا هنالك مرحلة جديدة.. تقارب فيها المستشرقون وخبراء السياسة والإستراتيجية ورجال الإعلام والاجتماع والأنثربولوجيا، وتخفّف المستشرقون من الدراسات الأكاديمية للإسلام، ومن تحقيق نصوصه وترجماتها دراسة نظرية، وانشغلوا في نوع من الدراسات الميدانية، أو ما أطلق عليه في أمريكا: Area studies، فجاء المستشرقون (وشركاؤهم من خبراء الإعلام والإستراتيجية والأنثربولوجيا والنفط والمخابرات) لدراسة الواقع الإسلامي الراهن، والإحاطة بتفاصيله ميدانيًّا لمساعدة صانعي القرار – في الغرب – في رسم الخطط الكفيلة بتحقيق المصالح الوطنية الحيوية لهم في العالم العربي الإسلامي بأقصى عائد وأقل تكلفة.

ذلكم هو التيار العام للاستشراق الرسمي منذ بداياته الأولى حتى اليوم. ومما يذكر أن معظم المستشرقين قد بقوا أوفياء لأغراض المؤسسة الاستشراقية في مجملها، وإن خالفها بعضهم من ذوي الضمائر الحية.

1 – **نقد الذات:**

خضعت الدراسات الاستشراقية لعملية مراجعة وتقويم أو نقد من داخل المؤسسة الاستشراقية ذاتها، وهذا ما نطلق عليه (نقد الأنا) أو النقد الذاتي Self Criticism – فالمستشرقون– في واقع الأمر– ليسوا سواءً، فمنهم الراديكاليون، والمعتدلون نسبيًّا، والمنصفون.

ولقد انتقد بعض المستشرقين أنفسَهم، مثل:

M. watt; J.Fueck ، Arberry ; Annemarie Schimmel;M.Marcus;Van Koningsfild; Gorafisky; L.Massignion; Th. Arnold; N.Daniel; Southern; Stephan Wild; R.parret;Juan Goytisolo.....etc.

انتقد هؤلاء مؤسسة الاستشراق في جوانب متعددة منها:

أ – الغرض الأساسي للاستشراق وهو محاربة الإسلام وانتزاع كل أصالة منه وتصويره على أنه هرطقة مسيحية، أو تلفيق من الديانات والثقافات السابقة. يحدد

المستشرق الألماني المعاصر Rudi paret هدف الاستشراق- إبَّان النشأة في وضوح وجرأة، فيقول «كان الهدف من هذه الجهود- الاستشراقية - في ذلك العصر، وفي القرون التالية هو التبشير؛ أي: «إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي»[1]. ولقد وظف المستشرقون بكفاءة كتابات يوحنا الدمشقي (749 - 675)م الذي يعد أول لاهوتي مسيحي يسجل عن الإسلام أنه (هرطقة) مسيحية، وأنه ديانة زائفة، وأن (الله) ليس هو الرب أو السيد كما يعتقد فيه النصارى، وأن الإسلام قد لفقه محمد بدافع من الطموح الشخصي، وأنه قد نشره بحد السيف[2]...إلخ.

ويذكر William Maur مدير جامعة أدنبرة الذي شهد المناظرة الكبرى بين الدكتور K. pfinder والشيخ رحمت الله الهندي في كتابيه:

Life of Muhammad «Muhammadan Controversy»»

أن الإسلام فيه حق كثير، لكنه مأخوذ من الأديان السابقة الموحى بها[3].

ب - المناهج النقدية المتعسفة في التعامل مع القرآن الكريم والسنة المطهرة. يقول (يوهان فوك) في كتاب له بعنوان:

The originality of the Arabian Prophet، oxford، 1981

فيما ينقله عنه الفرنسي M. Rodinson: «على كل حال لقد أصبح النظر في عدم أصالة الإسلام واعتماده على الأديان السابقة موضة (Vougue) بين عموم المستشرقين»[4] ويقول:« لقد فقدت دراسات المستشرقين الكبار صلتها بأفكار القرآن المتميزة والرصينة، واكتفت باجترار البحث في تبعية كل مقطع قرآني وإرجاعه إلى مصدره في الأديان السابقة، كلما كان ذلك ممكنًا، بهدف تمزيق

---

(1) رودي بارت: الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان من تيودر نولدكه، ترجمة د. مصطفى ماهر، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1967م، ص9.

(2) .D J.shohas، John of Damascus on Islam، Lieden، 1972،pp.l32 - 41

(3) Dr.A.Hourany، pp. 18 - 19

(4) Maxim Rodinson، a. Critical survey of Moder n studies on Muhammad (English Translation) oxford، 1981

الصورة الحية المتكاملة للرسول والقرآن إلى ألف نتفة وجذاذة»[1].

واعترض المستشرق السويدي Tor Andrae على هذا الاتجاه الاستشراقي المشكك في أصالة القرآن قائلًا: «كأن المهمة الكبرى للمستشرقين الدارسين لشخص الرسول هي محاولة فهم كيف أنه – بتأثير البيئة المحيطة – قد لفَّق أو زوَّر Forged أشتاتًا متعددة بالغة التنافر في كل واحد، هو القرآن[2].

لقد بذل المستشرقون اليهود أكبر الجهد في محاولة الطعن في أصالة القرآن الكريم، ولا ننسى الرابي أبراهام جيجر Geoger وتوري Torrey اللذين لم يريا في محمد إلا التلميذ المتلقي في معبد اليهود Synagogue ثم جويتن الذي يؤكد على أن الإسلام إنما هو مستمد من صميم لحم وعظم اليهودية[3] ولقد غلا هنرى لامانس اليسوعي في دراسته عن القرآن غلوًّا شديدًا أثار عليه المستشرق اليهودي جولدزيهر نفسه (!!) فانتقده فيما يذكر مكسيم رودنسون: «لقد شعر كثيرون من بينهم أنا شخصيًّا بنفس الشعور الذي عبر عنه جولدزيهر نفسه (ورواه لي الراحل ماسنيون في خطابه المؤرخ في 1964/ 8/ 7م قائلًا فيه: ماذا سيبقى من الأناجيل لو أن هنرى لامانس طبق عليها الطرق النقدية نفسها التي طبقها على القرآن».

ج – خدمته للاستعمار ووضع الاستشراق كل خبراته ودراساته في خدمة وزارات المستعمرات الغربية، وعمل المستشرقون في تلك الدوائر الاستعمارية كخبراء ومستشارين. إن أعداد المستشرقين الذين سخروا علومهم ومعارفهم لخدمة خطط المستعمرين يصعب حصرها، وحسبنا أن نشير هنا إلى كل من Alfrid Vo Kramer والروسي Bartold و Karl Heinrich Beker و Ch.H.Snock وماسينون ومستشاري نابليون، ويكفي أن نعرف أن مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن قد أنشئت بتوجيه من كيرزن لخدمة سياسة الإمبراطورية البريطانية، ولو قرأنا حيثيات قرار

(1) Ibid.

(2) Tor Andrae, Muhammad the Man and His Faith, N.Y.I 936.

(3) Goitein, Jews and Arabs, N.Y.I 955, p. 129.

تأسيس قسم الدراسات العربية في جامعة كيمبردج التي نشرها A.J. Arbery لعرفنا المزيد في هذا الصدد[1] ولقد تألم بعض المستشرقين من موقف زملائهم هذا، يقول Stephan Wild «.... والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم، لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة»[2].

د - تقديم أنفسهم على أنهم مشيخة أو مرجعية للدراسات الإسلامية في العالم[3].

هـ - صك أحكام عامة نمطية جامدة عن الإسلام والمسلمين وتسويقها في الغرب والشرق على السواء.

و - تكريس نزعة الاستعلاء العنصري ضد الإسلام والمسلمين، وقد تمثل ذلك في محاولة تجريد الإسلام من أصالته في ميادين الفلسفة والتصوف والفقه والكلام والقيم العليا.. إلخ.

ز - اتهام الإسلام بالانغلاق والتعصب وعدم إقراره بالتعددية ومن ثم رفضه لقبول الآخر، أو عدم قدرته على التعايش معه.

ح - تشويه موقف الإسلام من المرأة خاصةً، ومن حقوق الإنسان عامةً.

ط - التحريض والتشويه والدس عن طريق اختلاق مفاهيم زائفة مثل «الأصولية الإسلامية» بهدف شيطنة الإسلام، وأسلمة الإرهاب لتسويغ ضرب الشعوب الإسلامية، أو التدخل في شؤونها وإخضاعها.

ي - تشويه مفهوم مبدأ الجهاد في الإسلام، وطرحه بصورة مستفزة مثيرة للآخرين بقصد تعبئتهم ضد الإسلام والمسلمين، وكذلك تشويه مفهوم عقيدة

---

(1) A.J. Arbery, The Cambridge School for Arabic, 1948, p.8.

(2) رودنسون في مقالة ضمن كتاب (تراث الإسلام) لشاخت وبوزورث ج1، عالم المعرفة، الكويت 1978م، ص83.

(3) A - Hourany. Ibid

القضاء والقدر.. إلخ.

ك - تحميل الإسلام مسؤولية تخلف الشعوب الإسلامية وضعفها وفقرها وانكسارها الحضاري.

مثل هذه الأحكام التي أنتجتها الجهود الاستشراقية، كانت موضع ملاحظة ونقد من بعض المستشرقين داخل المؤسسة الاستشراقية، بل كان انتقاد بعضهم للغلو الاستشراقي شديدًا ولاذعًا.

2 - وثيقة مهمة في النقد الذاتي للاستشراق

ومما يسترعي النظر أن النقد الاستشراقي الذاتي وإن كان قد بدأ مع بداية القرن العشرين، فإنه قد تصاعد في النصف الثاني منه، ومع ذلك فإننا قد عثرنا على وثيقة فذة بالغة الأهمية في النقد الذاتي للاستشراق ترجع إلى سنة 1705، وهي عبارة عن كتاب لأحد الكتاب الإنكليز هو الدكتور Henry Stubbe خصصه كله لنقد موقف المستشرقين من الإسلام ورسوله (ﷺ)، وعنوان الكتاب كاملًا:

«An Account of the Rise and progress of Mahometanism, with the life of Mahomet, and AVindication of him and his Religion from the Calumnies of the Christians.

أي: «قصة انبثاق المحمدية- الإسلام- وتطورها مع سيرة محمد، وتبرئته وديانته من افتراءات المسيحيين»[1].

لقد أثارت افتراءات المستشرقين شعور الدكتور هنري ستوب، وأحرجت ضميره، فانتدب نفسه للدفاع عن محمد (ﷺ) وتبرئته من تشويهات وافتراءات القوم. وكم كان هذا الرجل شجاعًا إذ وقف ضد التيار الجارف في الغرب، في هذا الوقت المبكر، ولعل هذا يفسر لنا بقاء هذا الكتاب مخطوطًا لأكثر من مائتين وثلاثين عامًا، ولعله يشير بطرف خفي إلى الظروف الغامضة التي لقي فيها هذا

(1) Hafiz Mahmud Khan Shairani (ed), London, Oxford and Cambridge press, 1911Reprint in Lohore, 1975.

الكاتب الحر حتفه غرقًا. وسوف نفصل القول عن قصة هذا الكتاب ومحتواه وأهميته العلمية والوثائقية في القسم الثاني إن شاء الله.

3 - **نقد الآخر:**

هذا فيما يتعلق بنقد الذات، أما فيما يتعلق بنقد الآخر، وأعني به: نقد العرب (مسلمين ومسيحيين) للاستشراق، فقد ظهرت دراسات تقويمية نقدية متعددة منذ بداية القرن العشرين أو قبلها بقليل، ولا تزال حتى يومنا هذا. ومما يلاحظ على هذه الدراسات أنها تتمثل في جهود فردية تفتقر إلى التكامل أو تفتقر إلى طابع المشروع البحثي العام، كما أن هنالك ندرة في الرسائل الجامعية التي تبحث في الاستشراق. ومما يذكر هنا أننا لم نفرغ بعد من دراسة الاستشراق، دراسة أفقية ورأسية تتناوله في التاريخ والجغرافيا معًا؛ أي أن تدرسه في مراحله المتطورة في المناطق المختلفة، وتدرسه على مستوى المناهج والقضايا والشخصيات والآثار والنتائج، وهذا يؤكد الحاجة إلى «قاعدة بيانات حاسوبية عن الاستشراق– منذ النشأة إلى اليوم– تمكننا من دراسة هذه الظاهرة بالغة الأهمية والخطورة من كل جوانبها».

لا شك في أن هنالك جهودًا فردية لدراسة الاستشراق وتقويمه في العالم العربي وفي شبه القارة الهندية. ونسترعي النظر إلى أن هذه الجهود قد قام بها المسلمون والمسيحيون معًا. ولا ريب أن جهود إخواننا المسيحيين العرب مثل إدوارد سعيد، وأنور عبد الملك، وألبرت حوراني، وجريجوار مرشو كانت أعمق أثرًا من غيرها، فقد أثارت ردود فعل واسعة بين المستشرقين وغيرهم[1].

---

(1) راجع كتابنا (الاستشراق: دراسات تحليلية تقويمية) وقارن رسالة الباحث: سالم عبد اللطيف للماجستير عن الاستشراق، وقد ناقشناها بجامعة عين شمس، 1999م. وقارن:

د. قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض 1983م.

آلانروسيون، المناقشات الدائرة حول الاستشراق في الساحة الثقافية العربية، ترجمة هاشم صالح، بيروت: دار الساقي، 1994م.

هذا ولو قارنا نقد المسلمين للاستشراق- في عمومه- بالنقد الذاتي للاستشراق، لرأينا تقاربًا شديدًا بينهم في التناول العام وفي جوانب النقد، وإن تفاوتت معالجة التفاصيل، وهذا- ولا ريب- يؤكد زيف المقولة الرائجة – في الغرب – بأن المسلمين يضيقون ذرعًا بالنقد. ومن ثم فإنهم يهاجمون الاستشراق والمستشرقين لا لشيء إلا لأنهم ينتقدون الإسلام والمسلمين.

ولا ريب في أن هذه الدراسات التقويمية للاستشراق من الداخل والخارج (من الأنا- والآخر) قد كان لها أثرها الإيجابي على موقف الاستشراق النمطي المغرض، لأنها استرعت انتباه بعض المستشرقين إلى الغلو والشطط في بحوثهم وأحكامهم ومن ثم عمل بعضهم على مراجعة أحكامهم وخططهم ومناهجهم، ومن ثم التراجع عنها وتصويبها. وعلى الرغم مما يمكن أن يقال عن سلبيات الاستشراق المعاصر- وهو غير قليل- فإن نزعة المراجعة والتقويم الذاتي داخل المؤسسة الاستشرقية في تنامٍ ملحوظ، لا يعكرها سوى استدعاء وسائل الإعلام وبعض مراكز البحوث السياسية الغربية لتلك الصورة المزيفة التي رسمها الاستشراق للإسلام والمسلمين عبر مئات السنين وإعادة إنتاجها وتسويقها من جديد في سوق عالمي ينعم بالسموات المفتوحة والطريق فائق السرعة للمعلوماتية المتعولمة أو المتأمركة.

الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة هاشم صالح بيروت: دار الساقي 1994م.

خوان غويتسولو: الاستشرق الأسباني، ترجمة كاظم جهاد، نيقوسيا، 1987م.

إدوارد سعيد: الاستشراق، أنور عبد الملك: الاستشراق في أزمة، حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، جريجور مرشو: مقدمات الاستتباع، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1996م.

القسم الثاني: الكاتب والكتاب

أولًا: الكاتب

لا يملك من يقرأ كتاب الدكتور هنري ستوب، سواء أكان مسلمًا أم مسيحيًّا غربيًا- إلا أن يسأل نفسه: أي نوع من الرجال كان هذا الرجل؟ وأية نفس كبيرة متمردة رافضة قد سكنت جسده وأنهكته بوقوفها ضد التيار العارم الصارم، وخروجها على لغته وروحه وتوجيهاته ومسلماته فيما يتعلق بالإسلام ورسولهﷺ؟. لقد امتلأت روحه وعقله وضميره بالحرج أمام ركام الزيف من الخرافات والأساطير التي نسجها المسيحيون الغربيون حول الإسلام ورسوله، وتوطنت عقول العامة والخاصة منهم، وتجذرت في مشاعرهم ووجداناتهم حتى كادت أن تتميز كرهًا وخوفًا.

ولد «هنري ستوب» لرجل دين مسيحي بروتستانتي صاحب رأي، فقد تمسك بعقيدة عدم وجوب تجديد العماد anabaptism في بلده، وهاجر بسبب ذلك إلى أيرلندا مع أسرته، ثم عادت الأم وولداها هنري وأخوه إلى إنجلترا سنة 1641م حيث التحق مؤلفنا بمدرسة في وسستمنستر ولقي تشجيعًا كبيرًا من مديرها لما أظهره من نبوغ ومواهب. أما السياسي Sir. Henry Vane.

(الذي أعدم فيما بعد سنة 1662م) فقد رعاه رعاية خاصة. وقد حصل الطالب هنري ستوب على منحة دراسية ملكية في أكسفورد نتيجة لتفوقه الملحوظ وتخرج سنة 1653م.

طمح إلى دخول البرلمان في اسكوتلندا، لكنه لم يفلح في مسعاه، وحصل في أثناء ذلك على درجة الماجستير M.A.، وعين بها في وظيفة أمين مكتبة

بودليان الشهيرة[1] Bodleian Library حيث قضى بها ثلاث سنوات، ثم فصل منها بتحريض ووشاية من Dr. E.Reynold مدير المكتبة سنة 1659م الذي شنع بدفاع صاحبنا عن السير هنري فين في الكتاب الذي نشره بعنوان «دفاع عن الفارس الحكيم المبجل السير هنري فين»، نشر في لندن 1656م.

وقد نشر كتابًا ثانيًا في نفس العام بعنوان:

(ضوء يلتمع من الغسق Alight shining of Darkness) وقد نظر إليه على أنه يشكل هجومًا على رجال الدين (الأكليروس Clergy) والجامعات.

بعد أن فصل من عمله بالمكتبة عمل طبيبًا لحسابه الخاص، وسرعان ما حقق شهرة سافر على إثرها إلى جامايكا للعمل طبيبًا للملك، ورجع إلى لندن سنة 1665م بعد أن لم يستطع البقاء هنالك لاعتلال صحته وعدم قدرته على تحمل مُناخِ تلك البلاد.

سرعان ما أعلن الحرب على علماء الجمعية الملكية البريطانية، وأسهم علماء كثيرون كبار في تلك المجادلات القاسية المطولة التي أثرت أدبيات تلك الفترة وقد كتب سنة 1672م ردًّا على رسالة لأحد الكتاب الهولنديين بعنوان (مسوغات الحرب الحالية ضد هولندا، ثم كتب مبررات إضافية لتلك الحرب، ومنح لذلك مكافأة مالية كبيرة من الملك، وسمح له بالاطلاع على الوثائق الرسمية. ونشر سنة 1673م (إعلان باريس) الذي هاجم فيه زواج دوق يورك من أميرة مودينا Mode-na، وقد اعتقل بسبب ذلك الهجوم العلني وهدد بالإعدام، وعومل معاملة سيئة، ولم يعرف بدقة متى أفرج عنه.

قلنا أن د. هنري ستوب قد اشتغل بالطب وفي أثناء زيارة لأحد مرضاه،

(1) تضم مكتبة بودليان اليوم مخطوطات وكتبًا إسلامية، ولا أعرف على وجه الدقة متى اقتنيت هذه المخطوطات، وهل تمكن هنري ستوب من الاطلاع عليها، وهل كان يعرف اللغة العربية إلى جانب اللغات اللاتينية واليونانية أم لا؟.

وفي عودته عبر نهرًا ضحلًا بحصانه في بلدة Bristol على بعد ميلين من محل إقامته في بلدة Bath فغرق فيه، وقد أدى طقوس جنازته خصمه اللدود (Mr. Glanvill).

وهكذا طويت حياة د. هنري ستوب بصورة غريبة مفاجئة تبعث علامة استفهام ملحة. مات هنري ستوب وهو في الخامسة والأربعين من عمره بعد حياة حافلة بالقراءة والنظر والتأمل والتمرد النبيل والمعارضة والمراجعة والتصحيح والخروج عن المألوف.

لقد تأملت كثيرًا شخصية هنري ستوب فوجدته قد ولد لأب يفضل أن يطرد من عمله الكهنوتي المرموق، وأن يهاجر من بلده إنجلترا إلى إيرلندا، على أن يتنازل عن معتقده الشخصي ويقبل ما قبله عموم الناس، لكنه الرفض النبيل والتمرد البطولي الذي أورثه لهذا الابن الذي كان عليه أن يدافع بشجاعة عن فارسه «السير هنري فين» هذا الرجل الذي رعاه صغيرًا، فلم يتنكر له ويقف في طابور المرددين للتهم السياسية التي أعدموه بها.

وكان عليه أن يقف في وجه مؤسستين حليفتين طاغيتين: هما رجال الكهنوت، ورجال الجامعات، وأن يبشر بنور يراه يلتمع في حالك الغسق!!

وكان عليه أن يشتبك مع رجال الجمعية الملكية في حرب شرسة كان لها أثرها على توجه العلم والفكر في تلك الفترة!!.

وكان عليه أن يعلن معارضته لأهواء الأمراء وأصحاب السمو على الملأ وأن يركب الصعب في سبيل ذلك!!.

كان على هذا الرجل أن يقف ضد المسيحيين الغربيين في تزييفهم لتاريخ ومعتقدات الجماعات المسيحية الأولى.

هذه المواقف وأمثالها تفسر لنا كيف أخذ الدكتور هنري ستوب على عاتقه بعناد تلك المهمة الصعبة والخطرة في نفس الوقت، أعني مهمة أن يفحص ما كتبه الغربيون عن الإسلام، وأن يراجع الصورة التي رسموها له ولرسوله (ﷺ)، مراجعة ناقدة موضوعية يعلو بها فوق التلقي الأمين والتسليم الساذج بكل موروثات المسيحيين الأوروبيين عن الإسلام والمسلمين، وأن يفضح أساطيرها وخرافاتها التي سمموا بها عقول الأوروبيين ومشاعرهم تجاه الإسلام ومحمد (ﷺ).

كان عليه أن يفوز بشرف كتابة هذا الكتاب الوثيقة، وهو أول كتاب يكتب باللغة الإنكليزية – فيما أعلم –، ولعله أول كتاب غربي يتصدى لهذه المهمة النبيلة التي تفضح مواقف المسيحيين الأوروبيين من الإسلام ورسوله، وتجتهد في رسم الصورة الصحيحة الواقعية عن الإسلام ورسوله، وأن يخرج عن السياق النمطي المألوف الذي انزلق إليه عباقرة كبار مثل دانتي وشكسبير وفولتير وغيرهم، لقد تمتع صاحبنا بعقل حر وتفكير مستقل تمثل في كراهيته للتقليد والجمود، وتجافيه عن التعصب والانغلاق على الذات، ودفعه إلى الاعتراف بالآخر وتقديره بأمانة وموضوعية كما هو في الواقع المتعين، وليس كما تهوى الأنفس، ويمليه الظن السيء، فإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

لقد كتب هنري ستوب كتابه هذا في القرن السابع عشر؛ أي في عصر الجهالة في موقف الغرب من الإسلام كما وصفه Southern وفي عصر الانغلاق المسيحي والتعصب التام ضد الآخرين على حد تعبير مؤرخ الأديان المعروف Eric Sharpe، وقبل حقبة الاستعمار والخروج الأوروبي العظيم، فكان فذًّا وجاء استثناءً ليؤكد القاعدة العامة التي استقرت في الغرب المسيحي، وأعني بها العمل المنظم والمخطط لتشويه الإسلام ورسوله (ﷺ)، وهي مؤامرة ضد الحق والعقل والحرية، قبل أن تكون مؤامرة ضد الإسلام ونبيه.

ومما يؤسف له أن هذا الكتاب قد بقي، لأمر ما، مخطوطًا[1] قرابة قرنين ونصف من الزمان، إلى أن هيأ الله له نزيل لندن الهندي حافظ شيراني فقام على تحقيقه وتوثيقه ونشره في لندن سنة 1911، ثم أعادت تصويره مكتبة أكسفورد وكمبردج ونشرته دار Orientalia في لاهور سنة 1975م. وإني سعيد إذ أقدمه اليوم إلى القاريء العربي بعد أكثر من ثلاثة قرون على صدوره، وبعد صدور وثيقة البابا يوحنا بولس الثاني تحت عنوان «نحن نعتذر ونسأل الغفران» كما جاء في العنوان الرئيسي لصحيفة «أوزافاتوري روامانو» جريدة الفاتيكان الرسمية[2]. وإن ما اعترف به البابا يوحنا في بداية الألفية الثالثة من ذنوب وآثام واعتذر عنه وطلب المغفرة هو نفس ما اعترف به د. هنري ستوب منذ 325 عامًا ورذل المسيحيين الغربيين به.

ثانيًا: الكتاب... أفكار ونماذج[*]

يعد الكتاب أقدم أثر في الأدبيات الإنكليزية يتعاطف كاتبه مع الإسلام ورسوله، وهو يمثل فرصة فريدة لإطلاعنا على تصورات الأوروبيين المزيفة عن الإسلام، تلك التصورات التي لا تزال فاعلة في عقول بعض الغربيين ويظهر أثرها

---

(1) في المتحف البريطاني بلندن، وعندما كنت أتجول في هذا المتحف العريق في نوفمبر 2010 شعرت كأني أرى صورة هذا الفارس تملأ وجداني بل وتجري بعض عباراته على لساني.

(2) أعلن البابا بولس الثاني، في خطوة غير مسبوقة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الطويل اعتراف واعتذار الكنيسة عن الأخطاء التي وقعت فيها وارتكبتها على مدار الألفي سنة الماضية، وقد نشرت الأهرام في 20/3/2000 تحقيقًا مطولًا عن هذا الاعتذار والاعتراف الذي دعا فيه البابا إلى التوبة والندم على ما اقترفه الآباء والأجداد من ذنوب في الماضي الطويل، وقد جمعت الأخطاء والذنوب في سبعة عناصر رئيسية أطلق عليها (الاعترافات السبعة) من أهمها ما ارتكبه المسيحيون الغربيون من ذنوب وآثام ضد الإسلام والمسلمين.

(*) أثرنا أن نعطي الفرصة كاملة للكاتب ستوب ليقدم أفكاره بنفسه دونما تدخل منا بالتعليق أو الإضافة، وليس لنا من جهد سوى اختيار النصوص وتصنيفها وترجمتها إلى العربية عن اللغة الإنجليزية الكلاسيكية، مع بعض التوضيحات المنهجية والمعرفية الضرورية.

السيء فيما يكتب عن الإسلام، في المناهج الدراسية والمراجع والموسوعات ووسائل الإعلام وأفلام السينما.. إلخ.

يحتفظ المتحف البريطاني بثلاث نسخ مخطوطة لهذا الكتاب، علاوة على بعض خطابات ورسائل تبادلها هنري ستوب مع بعض العلماء والمفكرين، كما توجد نسخة مخطوطة أخرى للكتاب، أقدمها نسخة Mr. Charles Hornby وتعود إلى سنة 1705م، وقد أشار إليها Thomas Magney راعي كنيسة القديس نيكولاس في كتابه (ملاحظات عن الناصريين الذي نشره سنة 1718م. وقد نسب Mr. Wanely المخطوطة رقم (1876) في قائمة رئيسية تضم الفصول العشرة لهذا الكتاب، وقد كتب الأستاذ شيراني دراسة جيدة عن وصف النسخ المخطوطة، ووثق نسبتها إلى المؤلف توثيقًا بارعًا.

وعلى كل حال هنالك دراسة مفصلة عن الدكتور هنري ستوب وأعماله كتبها Mr. Antony Wood في الجزء الثاني من كتابه «Athenae Oxoniensis»

يتكون هذا الكتاب من عشرة فصول هي:

1 - نظرة عامة إلى حالة اليهودية والمسيحية منذ عيسى المسيح إلى محمد (ﷺ)..

2 - تقويم المؤلف للروايات السائدة عن تاريخ المسيحيين الأوائل وعقائدهم.

3 - تقرير موجز عن الجزيرة العربية والعرب Saracens.

4 - سيرة محمد (ﷺ) من مولده إلى هجرته من مكة.

5 - إنجازات محمد (ﷺ) في المدينة، وسفارة علي إلى العرب.

6 - غزوات محمد(ﷺ).

7 - حجة الوداع، وموت محمد (ﷺ) ومواراته الثرى.

8 - شخصية محمد (ﷺ) وادعاءات المسيحيين الخرافية عنه وعن ديانته.

9 - القرآن ومعجزات محمد (ﷺ). وبشارات الأسفار الدينية المقدسة به،

ورأي موجز عن ديانته وسياسته.

10 – عدالة الحروب الإسلامية، وتبرئة محمد (ﷺ) في موقفه من المسيحيين، وأنه لم ينشر ديانته بالسيف.

هذه فصول كتاب هنري ستوب ذلك الصوت الغربي الإنساني العميق المنصف الذي كان يشير أحيانًا إلى كتاب مسلمين مثل أحمد بن إدريس (أظنه القرافي المتوفي 684هـ) وابن كثير وأبي الفداء والبيضاوي، وكان في دفاعه عن الرسول (ﷺ) والإسلام يبين تهافت وتهاوي مزاعم الكتاب المسيحيين الأوروبيين ويصفهم في جرأة عجيبة بما يستحقون من أوصاف– في رأيه– مثل «المسيحيون الفسقة»[1] ويصف ادعاءاتهم بأنها نفايات (قمامة) حقيرة مثيرة للسخرية منهم[2]، ثم يشرح تصوره للمسألة التي يتناولها، وينتقد أحيانًا تفسير بعض الكتاب المسلمين المرموقين لبعض الظواهر والمسائل الإسلامية[3]، ويقدم توضيحات طريفة لها ويربط العلاقات بعضها ببعض، وهو كاتب مسيحي إنكليزي. وإن عبقريته لم تعصمه من الوقوع في بعض الأخطاء، كما أن حماسته لعقائد المسيحيين الأول (حورايي المسيح عليه السلام وتلاميذه الأقربين) جعلته يرى محمدًا (ﷺ) لم يخرج عن دائرتهم!!.

أ – توضيح ودفاع عن عدالة الحروب الإسلامية:

وليسمح لنا القارئ الكريم أن نستعرض له الفصل العاشر الأخير من الكتاب، يقول فيه هنري ستوب «إنه سُوقي ساذج ذلك الذي يذهب إلى أن محمدًا قد نشر ديانته بالسيف، وأنه لم يجبر العرب فقط على قبول عقيدته، لكنه فرض على خلفائه عهدًا أبديًّا وتكليفًا ملزمًا بأن يعملوا على استئصال المسيحية والأديان الأخرى لكي يحل الإسلام محلها ويصبح ديانة عالمية».

(1) Henry Stubbe، An Account of Rise and progress of Mahometanisni، (London، 1911. Lahore 1975، p. 142.

(2) Ibid. p142.

(3) Ibid. pp 136.

ويتعجب ستوب قائلًا:

ولكن كيف اعتقد الناس (في الغرب) على نطاق واسع بذلك، وكيف قال بها رجال عظام، وهي ليست إلا خطأً صريحًا!! حقًا لقد قام محمد بحروب عسكرية في الجزيرة العربية، لكنها كانت من أجل إعادة وإحياء الدين القديم (الذي أنزله الله على الرسل من قبل) وليس من أجل ديانة جديدة مبتدعة، ولقد دعا أتباعه إلى سحق الوثنية حيثما وجدت، وعلمهم أن العالم كله مدعو إلى الاعتراف بهذه الحقائق، أن لا إله إلا الله، لا شريك له، والعناية الإلهية، والثواب والعقاب، (وذلك تمامًا كما تصور اليهود أنفسهم مسؤولين عن دعوة الإنسانية كلها لاتّباع قانون الطبيعة الذي تضمنته تعاليم نوحٍ السبعة). ولكن أن يقال إن محمدًا (ﷺ) قد أكره الناس على ديانته أو أجبر أحدًا منهم على الإيمان بها فهذا هو التزييف بعينه.

ومع ذلك فقد تمسك كثير من رجال الكنيسة بأنه يجب أن تفرض الديانة المسيحية على الناس فرضًا، وأنه كان لهذا السبب فحسب يغزو الأمير أراضي أمير آخر ويستولي عليها ليفرض عليها المسيحية، ثم يبين (ستوب) ما كان يفعله ملوك الغرب المسيحيون في هذا الصدد ويذكر أن الأمثلة على ذلك تفوق الحصر. بل إنه وجد من بين اليهود هير كانوس الذي فرض على الأدوميين أن يختتنوا وأن يتهودوا. وباختصار فإن التاريخ المسيحي كله يعد مثالًا لهذه الترعة (إكراه الناس على الدين) وكان ذلك أمرًا مشروعًا يقره ويؤكد عليه علماء المسيحية.

وعلى الرغم من كل ذلك وجدنا البابوات ورجال الدين المسيحي يعدون المجادلات ضد حروب المسلمين «وإني لا أجد في الحروب التي خاضها محمد في الجزيرة العربية إلا حروبًا ضد الوثنية وليست لإكراه الناس على الإسلام، وأن محمدًا نفسه قد أعطى أمانًا وحماية لليهود والنصارى في الجزيرة العربية، ولم يستخدم العنف ضدهم ألبتة بهدف فرض العقيدة.

كما أن اليهود قد عاشوا في المدينة ينعمون بالأمن ويدفعون الجزية واستمروا

على ذلك إلى أيام عمر بن الخطاب الذي أخرجهم من الجزيرة العربية، لأنه قد أخبر أن محمدًا قد حظر وجود ديانتين مختلفتين في الجزيرة العربية مركز الدولة الإسلامية، وقد كان ذلك إجراءً أدنى لاعتبارات السياسة منه لاعتبارات الدين، لأنه لم يطردهم خارج الدولة الإسلامية كلها ويحرّم عليهم الإقامة في أية منطقة إسلامية أخرى.

وبالمثل فإن عمر بن الخطاب عندما فتح بيت المقدس قد أعطى للمسيحيين عهد أمن وحماية جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عمر بن الخطاب إلى سكان إيليا.. الأمن والحماية لسكانها رجالًا ونساءً وأطفالًا، لا تهدم كنائسهم ولا تخرب، ولا يمنع مسيحي من زيارتها، وكذلك كتب القائد العربي عمرو بن العاص بتوجيه من أبي بكر الصديق[*]– عندما فتح غزة– إعلانًا مماثلاً.. وبهذه الإعلانات يتضح أن المسلمين كانوا ينشرون دولتهم، وليس ديانتهم بقوة السلاح».

إن فكرة استخدام المسلمين للجيوش والسلاح من أجل توسيع رقعة الدولة وليس من أجل فرض الديانة، كانت فكرة أثيرة لدى صاحبنا وهي تستحق النظر والتقويم، ونراه يشبعها شرحًا وتفصيلًا ويسوق براهين كثيرة على سماحة المسلمين مع المسيحيين في الأندلس وفي اليونان، حيث كانت اليونان – وفي نفس الفترة التي كان يعيش فيها المؤلف – تحت حكم الدولة العثمانية، ويقول: إنه من الحقائق المؤكدة أن اليوناني العادي قد عاش في كنف الأتراك في ظروف أفضل من تلك التي عاش فيها تحت حكم أباطرته اليونانيين[2].

ويقر الدكتور هنري ستوب بأنه لولا حرص الملوك والنبلاء الأوروبيين على مصالحهم الشخصية لأسلمت أوروبا– كلها– نفسها للأتراك المسلمين.

(*) هو الفاروق عمر.

(2) وهذه الفكرة يوافق عليها، بل يدافع عنها كثير من الكتاب الغربيين المعاصرين أمثال مؤرخ الحضارة ولديورانت والسير توماس أرنولد في كتابه: الدعوة إلى الإسلام.

وينقل عن المؤرخ «المكين Elmacin» الذي اعتمد في كتابة تاريخه عن المسلمين على أوثق المراجع العربية، وكان هو نفسه وزيرًا لأمرائهم، أن محمدًا (ﷺ) قد أعطى الأمانة والحماية لأصحاب الديانات الذين واثقوه ودفعوا له الجزية. وأنه أرسل عمر إلى المسيحيين ليؤكد لهم أنهم سوف يتمتعون بالأمن والحماية في ظل الدولة الإسلامية وأنه سيحترم أنفسهم وأموالهم كما يحترم حياة المسلمين وأموالهم تمامًا.

ويشير إلى أن بعض الكتاب المسيحيين قد ذكروا أنه قد جرى اتفاق أو تحالف بين محمد والمسيحيين ينص على أن دفع الجزية في مقابل منحهم حرية ممارسة عقائدهم أي أنهم قد اشتروا تلك الحرية بالأموال التي دفعوها للمسلمين، لكن بعض العلماء المسيحيين نظر إليه على أنه ليس إلا بعض تلفيقات المسيحيين. ونظر إليه هنري ستوب على أنه من الخرافات الأسطورية، ويقول ستوب: «من كل هذا يتبين أن محمدًا وأتباعه لم يشنوا الحرب لكي يفرضوا ديانتهم على الآخرين، ولكن من أجل توسيع دولتهم.. ولكن يبقى أن نذكر أنه مع السيرة الحكيمة التي انتهجوها قد ازدادت أعداد المتحولين إلى الإسلام مع ازدياد فتوحاتهم، وأنهم لم يكرهوا الأمم المفتوحة على الإيمان بدينهم خوفًا من القتل أو فرارًا من التعذيب أو السجن أو أساليب الاضطهاد الأخرى، التي كانت ستسخط المسيحيين وتعمل على زيادة أعدادهم بدلًا من انتقاصها لحساب الإسلام. ويقول ستوب: إني أعتقد أن دليل ذلك أن المسيحية قد انتشرت واتسعت رقعتها تحت الاضطهادات العشرة التي تعاقبت عليها (من الرومان) وأنها قد اضمحلت وانكمشت تحت حكم العرب الرفيق بهم. وإننا عندما نقول إن دين محمد قد انتشر بحد السيف فإننا يجب أن نفهم أن ذلك كان نتيجة لانتصاراتهم، ولم يكن نتيجة قهر الناس قتلًا وذبحًا

على الدخول في ديانتهم. كما أنني أعتقد أن المسيحية مدينة في توسعها لأكثر الأساليب ظلمًا»[1].

ثم يسخر من انتقاص المسيحيين من الإسلام بسبب إباحته الاسترقاق والعبودية في الحروب قائلًا:

«وخلاصة القول إنه على الرغم من أن مبادئ المسيحيين تبدو كأنها تدين العبودية إلا أنهم قد مارسوا العبودية مرارًا وتكرارًا في البرتغال وأماكن أخرى كثيرة.. ومع أننا في العصور الأخيرة نحتجز في الهند الغربية أعدادًا لا حصر لها من الكائنات البشرية المسكينة تحت أبشع أنواع العبودية، ونحرمهم وذرياتهم من أن ينتفعوا بالإنجيل، لكي نضمن لأنفسنا أن ننتفع بتسخيرهم لخدمتنا، وهكذا فإننا حيث نحول بينهم وبين ذلك الباب الوحيد للعبودية (الحرب كما هو في الإسلام) نسترق أرواحهم وأبدانهم، ويالها من قسوة سوف يشعر المسلمون والوثنيون بالعار من ارتكاب مثلها!! [2].

ب - تعليقه على حجة الوداع:

بعد أن تحدث الدكتور هنري ستوب في الفصل السابع[3] عن وقائع غزوات الرسول (ﷺ) وحللها تحليلًا سياسيًّا وعسكريًّا موفقًا أظهر فيه تقديره وإعجابه بتخطيط الرسول وقيادته لها، وقف يتأمل وقع هذه الانتصارات المذهلة على نفس الرسول القائد، فقال:

«على غير القادة الفاتحين الذين يكسبون معارك قد لا تكون لها من هدف سوى البحث عن أمجاد ومفاخر لأشخاصهم، يرفعون بها هاماتهم فوق البشر، فإن الرسول لم يعز شيئًا من هذه الانتصارات إلى بسالته وإقدامه، لكنه أرجع ذلك كله

(1) Henry Stubbe, Ibid, pp180 - 188.
(2) Ibid, p188.
(3) Ibid. pp118 - 131.

إلى معرفة السماء، واعتبر أن من المتعين عليه أن يلهج بالشكر إلى الله قدر طاقته، وأن يشكر الله شكرًا عامًّا علنيًّا».

«من أجل ذلك، ومن أجل أن يشبع حنينه، ويظهر توقيره للبيت الحرام، ومن أجل أن يقدم القدوة للناس في أداء مناسك الحج، لكي يؤدوا هذه الشعيرة على بصيرة، غادر الرسول المدينة لأداء فريضة الحج، مصحوبًا باثنين وسبعين ألفًا من الرجال والنساء الذين تجمعوا في موكب الحج مع الرسول......»[1].

ونراه يجادل ابن الأثير المؤرخ المسلم الذي فسر مشقة بعض أعمال الحج بأن الرسول قد عمد إلى إقناع المشركين بأن أصحابه أصحاء أقوياء يقول هنري ستوب: أري من جانبي أنه مع أن الحب الشديد والتقوى هما اللذان دفعا الرسول إلى أداء مناسك الحج، فقد كان أمرًا بالغ الحكمة أن يزور الرسول مكة بعد غياب طويل عنها، وليس من أجل أن يثير الحسد والأطماع التي قد تسبب قلاقل، كما أنه أراد أن يظهر لأهل مكة بهذا الموكب المهيب أن إزالة الأصنام من البيت لم تقلل عدد قاصديه وحجاجه، ولم تنتقص من مكانة وشرف مكة التي تأكد كونها عاصمة جميع المسلمين[2].

ويستطرد قائلا: بعد أدائه الحج وإرشاده المسلمين عن كل ما يتعلق بدينهم وعبادتهم، قفل الرسول راجعًا إلى المدينة لكي يحتفظ رجاله بنظامهم السابق، ولكي يظهر للعرب كافة أن الانتصارات العسكرية والسلطة لم تغير من نفسه، وأنه لم يقلد نفسه صولجان الملك، ولكنه احتفظ بما عرف عنه واشتهر به من أنه «رسول الله» ويقول:

إن احتقار الرسول لزخارف الملك لم ينتقص من نبله وجلاله، إنه زهد في مظاهرها بينما تحمل تبعاتها. ويرى هنري ستوب أن عودة الرسول إلى المدينة كانت أمرًا حيويًّا توجبه الظروف الراهنة عندئذ.

---

(1) Ibid, pp.132

(2) Ibid, pp135 - 136.

ج - شخصية الرسول ومزاعم المسيحيين الأسطورية ضده وضد ديانته :

عقد المؤلف الفصل الأول من كتابه هذا لبيان حالة اليهودية والمسيحية منذ عيسى عليه السلام إلى زمان محمد (ﷺ)، وقال مستهلًا هذا الفصل: لقد كان انبثاق الإسلام وتطوره واحدًا من أعظم التحولات التي وقعت في العالم، لأن دينًا جديدًا قد ظهر منذ ألف عام، ومكّن لنفسه (في استقلال تام عن الوثنية واليهودية والمسيحية) وزاد من رقعته، ونشر أتباعه بسرعة فوق خمس العالم المعروف بصورة لم تعرفها الجماعات اليهودية، وربما لم تعرفها المسيحية نفسها[1].

ويقول: قبل أن ندلف إلى سيرة هذا الرجل وشخصيته، الذي استحق بأعماله تقدير واحترام جانب من العالم، وملأ الجانب الآخر بالدهشة والتعجب، ولسوف نحاول، بكل ما لدينا من طاقة أن نكتشف الوسائل التي حقق بها تلك الأعمال المجيدة. ثم نحاول دراسة أحوال صحابته وأتباعه، والتعرف إلى دوافعهم وراء هذا التحول العجيب ومناصرتهم للإسلام أو الثورة المذهلة[2].

أما الفصل الثامن فيخصصه للحديث عن شخصية الرسول (ﷺ) وتفنيد مزاعم المسيحيين الأوربيين عنه، فيبدأه برسم لوحة رائعة لبيان ملامحه الجسمية والنفسية، فيبدأ مخاطبًا قارئه قائلًا له: أنا لا أشك أنك الآن تتطلع إلى أن تتعرف إلى صورة ذلك الرجل الفذ، لقد سكنت نفسه العظيمة جسمًا ربعة.. ثم يواصل حديثه المشوب بالإعجاب والتقدير إلى أن يقول: وهكذا اجتمعت فيه كل المؤهلات التي يتطلبها تحقيق الأعمال الجليلة، كان مؤهلًا للأعمال العسكرية، كما كان مؤهلًا للأعمال المدنية وسياسة الحكم، تلك التي كانت موضع افتراءات المسيحيين (الأوروبيين) ضده ولسوف يتضح ذلك، لكل متأمل، من الروايات السابقة المعطاة عن حياته وأعماله، تلك التي اقتبسناها من أكثر الكتاب العرب وغير العرب موثوقية. كما أننا

(1) Ibid. p.1.
(2) Ibid. p.2.

قد عارضنا كلية ذلك الركام من الهراء (النفايات) الخرافية المثيرة للسخرية، الذي حشيت به معظم الروايات التي نسجها المسيحيون (الأوروبيون) عنه[1].

ويقول هنري ستوب: (إنك لو كلفت نفسك عناء النظر في روايات الكتاب المسيحيين التي كتبوها عن محمد لوجدت أنها تفتقر إلى التماسك والرصانة، كتلك التي لاحظناها من قبل (اللهم إلا بعض ما كتب عنه في القرن الأخير- السابع عشر- الذي شهد بعض التحسن في المعارف الشرقية).. نعم لقد نشر المسيحيون عنه أباطيل كثيرة جدًّا [2].

ثم ينتقل إلى مناقشة ودحض بعض مزاعم كتاب النصارى الأوروبيين عن الرسول فيقول: لقد بات من المسلم به، بعد التدقيق في المراجع العربية والمسيحية الموثوقة أن محمدًا قد انحدر من أكرم قبائل العرب محتدًا من جهة أبيه وأمه معًا.

ورغم ذلك، نجد أن الكتاب المتعصبين يذهبون إلى أن محمدًا لم يكن شريف النسب، كريم المحتد، وذهبوا إلى ما هو أكثر من ذلك في غرابته فقالوا: إن أباه كان حيثيًّا، وأن أمه كانت يهودية. هذا على الرغم من أن الكتاب المسيحيين الذين عاشوا بين المسلمين مثل Elmacin وآخرين قد بينوا ما يتمتع به محمد بين المسلمين من إجلال وتعظيم. كما أن بعض المسيحيين لا يزالون إلى اليوم يرددون أن محمدًا كان عدوًّا للمسيح، وأنه قد استنبط اسمه بطريقة سرية من طلسم الرقم 666، ويعلق ستوب على ذلك قائلًا: لا شيء يثير السخرية مثل ذلك!، أليس من الحماقة أن يتهجى الإنسان اسم رجل بطريقة خاطئة، ثم يتخيل أسرارًا طلسمية في هذا؟.

ثم يحدثنا عن طريقة كتابة اسم الرسول (ﷺ) فيقول: في اليونانية: بعضهم يكتبه هكذا، ويكتبه آخرون هكذا وفي اللاتينية، Machomet، Machumet، Maomthes، Magmed وفي العربية Mohammed، Muhammed وهو يعني: المروم، أو المُجتبى.

(1) Ibid, pp. 141 - 142.

(2) Ibid, p.142.

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى نقطة أخرى «مختلفة» نشير إليها لطرافتها وجدتها بالنسبة للقاريء المسلم، والأكثر طرافة هو أن صاحبنا يقرها ويراها حقيقة تاريخية، وهي أن الرسول (ﷺ) قد خرج في سرايا عسكرية إلى مصر وشمال إفريقيا وأسبانيا[1].

ويرى أنه – أي الرسول (ﷺ) – قد تحاور مع المسيحيين بكل طوائفهم ويبدو أنه قد أحاط علمًا بجميع عقائدهم والأسس التي أقاموها عليها، ولم تكن معرفته بالمباديء اليهودية والتعاليم التلمودية أقل من ذلك، وقد تجلى ذلك في القرآن الكريم.

وقد كانت حال العرب موزعة بين اليهود ومتهوّدة المسيحيين، ومتهموّدة العرب، والآريوسية، واليعقوبية، والنسطورية ومثلثة النصارى، والمانوية، والمونتانية، والصابئية، وعبدة الأوثان، كل ذلك أعطى محمدًا فرصة سانحة للاطلاع على هذه المذاهب والأديان، لكن المسيحيين (الأوروبيين) قد أعطوه مساعدين: أحدهما عبد الله وهو يهودي، وكان الآخر راهبًا مسيحيًّا نسطوريًّا اسمه سرجيوس، وأظهروا محمدًا نفسه على أنه تابع جاهل لا يدري ما يبثه هذان الرجلان في عقله ووجدانه، وهذا– في رأيهم– سبب تلك الأخطاء التي وجدت في القرآن. ولم أجد بين أصحابه من يسمى سرجيوس، ولو كان له معلم نسطوري– كما زعموا– فلِمَ لم يجذبه نحو النسطورية، ويبشر بأن عيسى كان إلهًا حقًّا وإنسانًا حقًّا في إطار شخصية مزدوجة أو طبيعة مزدوجة. ولماذا لم يذكر أسماء نسطور وتيودور مبسوستنسس أو ديدور تارسوريس ويعترف بهم كقديسين؟ ولماذا لم يشجب ويدين سيرل الإسكندراني؟. كما أني أعلم بأن أحدًا من أتباعه لم يفعل شيئًا من ذلك، ونحن لا نجد في ديانتهم شيئًا من النسطورية ولم تكن لمحمد علاقة ما بهذا الراهب المزعوم، ولم يكن هو الجامع أو المؤطر للإسلام كما افترى الأوروبيون، ولم يكن محمد مهتمًّا في يوم ما– مثل بقية النساطرة بتقوية علاقته بالفرس وبعد أن

(1) Ibid. p.143.

يدحض الدكتور ستوب هذا الزعم يأتي إلى افترائهم بأن معلمًا يهوديًّا كان يرشده فيقول: لم يتخذ محمد مرشدًا يهوديًّا مطلقًا لأنه كان عظيم التقدير والإعجاب بعيسى عليه السلام، وقد أعلن ذلك مرارًا فقال إن عيسى كان سلفه في الرسالة، وإنه يحمل نفس العقيدة التي بلغها عيسى للناس من قبل، كان هذا يعطي ذريعة للادّعاء بأنه مسيحي وليس يهوديًّا. ويضيف الدكتور ستوب: وأنا لا أعتقد ألبتة أن محمدًا قد أحب يومًا أو داهن اليهود، ولم يمتدحهم في القرآن.. وأنا أظن كذلك أن تغييره للقبلة من بيت المقدس إلى الكعبة جاء في سياق كراهته لأفعالهم، كما أنه حَرَصَ على مخالفة عاداتهم في صيام عاشوراء، مما يؤكد أنه لم يكن ليستجيب لمعلم يهودي. ثم يقول: دعونا من تصديق هذه القصص الخرافية!!.

لكن مؤلفنا قد التبس عليه التشابه الكبير بين الإسلام وعقيدة المسيحيين اليهود سواء في عدم الاعتراف بالتثليث، أو النظر إلى عيسى على أنه بشر رسول، أو نظمٍ التقوى لديهم.. إلخ، فاستنتج من ذلك أن الرسول (ﷺ) قد تمثل بهم أو أخذ عنهم، خصوصًا وأن هذه الطائفة كانت مضطهدة من قبل المسيحيين واليهود والرومان، وكانت تختبئ في الجزيرة العربية[1].

ويقول: أرجو أن يكون فيما ذكرته كفاية لتوضيح أن ديانة محمد قد تشابه إلى حد كبير ما وجد لدى الناصريين والأريوسيين، ومع ذلك فإنني لا أعتقد أن واحدة منهما يمكن أن يكون لها أي يد في بناء القرآن الكريم، لأنه لم يكن مؤلفًا أو ملفقًا (كما أساؤوا إلينا وأفهمونا ذلك خطأ) دفعة واحدة، قبل أن يبدأ محمد رسالته، لكنه نزل بعد البعثة تبعًا لأسباب النزول، ونزل معظمه في المدينة، وقد كانت أعين كثيرة تراقبه، ولم يكن ليقبل أية معونة من أي جانب[2]، (لأنه لم يكن بحاجة إليها).

ثم ينتقل إلى رفض ما زعمه قومه على الرسول (ﷺ) بأنه كان مريضًا بالصرع

(1) Ibid. p.145.

(2) Ibid. p146.

وهذا يأتي في إطار اتهامه بأسوأ أنواع الدجل والاحتيال، في نفس الوقت الذي يصفونه بأنه كان من البُله المعتوهين، ويسخر ستوب من قومه قائلًا:

«لقد اتهموه بأبشع أنواع الاحتيال والدجل غير مراعين أن مزاعمهم يناقض بعضها بعضًا»[1]. لقد ذكروا لنا أنه كان يعاني من الصرع ويتظاهر بعد أن يفيق من نوباته بالشعور بالابتهاج والفرح ويردد عليهم البسملة ويكرر اسم الله الرحمن الرحيم، ويتلو سورًا من القرآن.

ويعلق الدكتور ستوب على ذلك بقوله: لقد رفضت هذه القصة لأنها لم تذكر في المراجع العربية، كما أن المسلمين لم يذكروا عن رسولهم أي نوع من ذلك الوجد الصوفي. كما أضيف أن القرآن لم ينزل عليه بهذه الكيفية.

ويضيف: «وليس أقل تفاهة من ذلك، قصة الحمامة التي قالوا إن محمدًا قد دربها على أن تلتقط الحب من حول أذنه، فهي تحط على كتفه، وتلتقط الحب، فتبدو كأنها تحدثه أو توحي إليه بوصفها رمزًا للروح ممثلًا للروح القدس[2]. ويناقش الدكتور ستوب هذا التخريف– على حد وصفه – مستنكرًا إمكان حدوث ذلك عمليًّا، وكيف يقدم محمد على ما يزرع الشك في نفس أصحابه وأعدائه المتربصين به، ويطرح تساؤلات ينكر بها على المسيحيين الأوروبيين افتراءهم لها. ثم يخاطبهم قائلًا: أود أن تخبروني على أي أساس بنيتم خرافتكم هذه إذا كان المسلمون لم يشيروا ولو مجرد إشارة إلى شيء من ذلك، ولم يذكرهم أحد من المسيحيين العرب غير كاتب واحد Critious الذي استفسر منه الدكتور Pocock عن المصدر الذي استقى منه ذلك، فكان جوابه أنه لم يستند في ذكرها إلى روايات المسلمين Mahometans ولا إلى كتابات المسيحيين العرب، ولكن إلى كتابات المسيحيين الأوروبيين، ولاسَّيما إلى Scaligar في تعليقه على Manilius الذي

(1) Ibid, p.149.

(2) Ibid, pp.149 - 150.

ذكر قصة الحمامة، وهذا كل ما يمكن أن يقال عن تلك القصة.

ويضيف: إني أميل إلى الاعتقاد بأن ملفق هذه الخرافة إنما هو شخص جاهل نقلها من أثناسيوس Athanasius إلى محمد، لأنه قد روى بخصوص هذا الأب أن حمامة في الطريق قد طارت إليه وحطت على كتفه قريبًا من أذنه، وقد فسر المثلثون بأن الحمامة إنما هي جبريل، أما الأريوسيون Arrians فقد قطعوا بأن ذلك هو السحر الذي يعتري أثناسيوس، ولقد وجدت في قصص القديس جورج أن أثناسيوس كانت له شهرته الواسعة كساحر[1].

ويسوق لنا ستوب خرافة مسيحية أخرى هي ذلك «الثور» الذي روضه محمد، وكان يطعمه بيده، ومن أجل ذلك اعتاد على أن يجري نحو محمد عندما يراه، يقول المسيحيون الأوروبيون: ذات يوم ربط محمد نسخة القرآن في قرني ذلك الثور، وبينما كان محمد يعلم أصحابه الشريعة، اندفع ذلك الثور إلى مجلس محمد وقدم إليه القرآن، الذي استقبله محمد والمسلمون معه بكل مظاهر التقوى والتبجيل على أنه مرسل إليهم من الله. وفي تلك الأثناء حطت حمامة عليه ومعها مخطوط مكتوب فيه: من يقيد ذلكم الثور سوف يصبح ملكًا على العرب. وهنا يندفع الراهب النسطوري سرجيوس إلى تقييد ذلك العجل، وينادي به ملكًا على العرب. وتصبح للقرآن المرجعية والقداسة.

ويعلق الدكتور ستوب على هذه الفرية قائلًا: بمثل هذه الاختلافات قدم الغربيون المسيحيون محمدًا للناس على أنه أخس دجال في العالم...

كما حولوا أحكم مُشرَّع على الإطلاق إلى مجرد مخادع محتال.

ويضيف: مع أن القرآن لم يكتب مرة واحدة على الإطلاق كما بينت ذلك بالفعل، ولم يجمع في كتاب واحد في حياة محمد، لأن أبا بكر وعثمان هما اللذان جمعاه في كتاب واحد، كما أنه لا توجد إشارة إلى تلك المعجزات في التواريخ

(1) Ibid. p.150.

الإسلامية، التي تذكر معجزات الرسول[1].

ويطلعنا ستوب على زعم آخر قائلًا: ومن الخرافات التي لا تعقل قولهم إن محمدًا قد وعد أهل مكة (عندما طالبوه بمعجزة) أن يدعو الجبل فيأتيه الجبل، مسرعًا، واجتمع الناس، ودعا محمد الجبل، فلم يتحرك، فقال محمد بخفة: إن لم يأت الجبل إلى محمد، فليذهب محمد إلى الجبل!!

ويسترعي الدكتور هنري ستوب الانتباه- في تعليقه على ذلكم- إلى نقطة جديرة بالملاحظة، فيقول:

«هل يمكننا أن نتخيل حماقة أشد من حماقة هؤلاء القوم؟!! وتأمل سذاجة هؤلاء المسيحيين الذين ضللوا، وسذاجة هؤلاء المسيحيين الذين ضُللوا، وسذاجة أولئك المضللين بمثل تلك التلفيقات الغبية!!

وفي التخاريف التي نسجوها حول قديسيهم مثل هذه الحكايات، وعلى المرء ألا يتعجب إن هم لم يلفقوا لأعدائهم خرافات أفضل منها!!

ولم تحتمل نفس الدكتور ستوب المضي قدمًا في الحديث عن مزاعم المسيحيين الأوروبيين عن الرسول (ﷺ) ورسالته فيصرخ قائلًا:

«إني مشمئز (مقروف) من التقليب في مثل هذه الزبالة (القمامة) [2].

وخروجًا عن ذلك يسرع الدكتور ستوب بالحديث عن قصتين أو ثلاث فقط، فيقول: أخبرنا بعضهم أن محمدًا أمر واحدًا من أتباعه أن يسبقه إلى بئر على الطريق وأن ينزل إلى أعماقها، وعندما يقترب منها محمد وأتباعه يصيح بأعلى صوته قائلًا: محمد حبيب الله! محمد حبيب الله! وهنا يشكر محمد ربه لأنه شهد له بمحبته أمام هذا الجمع الغفير من الناس، ويأمر الناس بردم البئر

(1) Ibid, p.151.

(2) Ibid, p.151.

بالحجارة وبناء مسجد صغير عليها تخليدًا لهذه المعجزة، وبهذا دفن محمد صاحبه كيلا يكشف الخديعة.

ويسخر د. ستوب من وقاحة هؤلاء المفترين قائلًا: كان على هؤلاء أن يكدوا أنفسهم ليخبرونا عن موقف عامة المسلمين عندما عرفوا ظروف هذه الخدعة كما قصوها علينا؟!

ويقص علينا خرافة أخرى فيقول: أخبرونا أن محمدًا قد وعد أصحابه أنه سوف يبعث ويقوم من رقدته بعد ثلاثة أيام، ولما كان أصحابه ينتظرونه، وطال انتظارهم، وبدأت رائحة الموت تنبعث، ولم يعد إلى الحياة، وقد وضع جثمانه في تابوت حديدي وعلق في الهواء باستخدام قوة حجرين من المغناطيس!! في حين أخبرنا آخرون أن الكلاب قد نهشت جثته، وأن ما تبقى من عظامه هو الذي وضع في القبر.

ويعلق على ذلك بقوله: إن مثل هذه التلفيقات تثير ضحك المسلمين منها، وتجعلهم يسخرون بالمسيحيين الذين يتحدثون بها[1].

ويضيف قائلًا: إن الدكتور Pocock دحضها غير مرة، وها أنا أعيد كلماته التي ألقاها في جامعة أكسفورد عندما استجاش همم الأساتذة لدراسة اللغة العربية. ويضيف: إن العبارة الأخيرة للدكتور Pocock قد ذكرتني ببعض التشويهات التي دأب المسيحيون الأوروبيون على انتقاص المسلمين بها، ولا يزال المسيحيون إلى اليوم يلزمون المسلمين المتحولين إلى المسيحية بأن يلعنوا ويتبرأوا من شعائر وعبادات وثنية لم نعلم أنهم كانوا يقومون بها، بل كانوا أبعد الناس عنها[2].

(1) Ibid, p.152.

(2) كان الكاثوليك في الأندلس وغيرها من المناطق يبررون قهر المسلمين على التحول إلى المسيحية أمام أنفسهم وأمام الناس بزعمهم أن المسلمين ليسوا إلا عباد أوثان وأصنام!!

لقد تجرأوا على المسلمين بقولهم: إنهم يعبدون نجمة الصباح وفينوس بعد أن سموها Cabar، التي تعني بالعربية الإلهة العظيمة!، ويعجب كيف أن كتابًا كبارًا ثمثل Ethymius Zygabenus في (التعليم الإسلامي الشفوي) وسدرينوس Ce-drenus وآخرين مثل Hottinger، Pococ، Selde يقعون في مثل هذا. وما هتاف المسلمين – المشار على أنه عبادة لنجمة الصباح أو فينوس – سوى كلمات الآذان الإسلامية المعروفة.

وليس أقل بطلانًا من ذلك ادعاؤهم أن المسلمين يعبدون فينوس تحت اسم Bracthan، وقد صوروا لها صورة يقدسونها!! ويعلق ستوب على ذلك بقوله: إن ذلك القول صريح البطلان، وليس ما يتكلمون عنه غير «الحجر الأسود»، الذي لا يعبده المسلمون، ولكنهم يقبّلونه تشريفًا على أنه أثر من آثار الجنة، أو لأسباب أخرى يذكرونها، وربما يكون الناس قبل محمد قد عبدوه، لكن محمدًا وأتباعه لم يعبدوه بتاتًا، ولم يسموه Bracthan، وعلى كل حال فإن لغويينا لا يزالون يتساءلون في حيرة عن المصدر الذي اقتبس منه المسيحيون هذا الاسم!!

ويضيف ستوب: ولأن المدعو Ethymius Zygabenus قد ذكر صنمين آخرين للمسلمين وهما ليس إلا الصفا والمروة اللتين يسعى بينهما الحجاج رجالًا ونساءً في مكة.

ثم يختم الدكتور هنري ستوب هذا الفصل بتعليق طويل ضد زعم المسيحيين هذا قائلًا: هل يستحق مثل هؤلاء الكتاب المسيحيين الذين كتبوا هذا عن محمد (وكان معظمهم من الكتاب اليونان واللاتين) أي مصداقية!! وهل لنا أن نلوم المسلمين حين يسخرون من تلك التلفيقات التي يضعها كتابنا عن رسولهم؟! ومهما تكن الأخطاء أو الحماقات التي اختلقوها ضد المسلمين، فإن من المؤكد

أن المسلمين أبعد الناس عن عبادة الأوثان والوثنيات!! [1].

وإن محمدًا قد قضى على عبادة الأصنام، وإن بعض الشعائر القديمة التي أبقاها في ديانته، إنما أبقاها لغرض آخر يختلف عما كان لها من قبل.

ويقول:

ما أبعد هؤلاء المسلمين عن الوثنية! وما أشد نفورهم من التماثيل والصور! إلى درجة أنهم لا ينقشون على عملتهم أية صور، ويستبدلون بذلك كتابة بعض العبارات الإيمانية، كان المسلمون كذلك ولا يزالون، بل حتى إن الأتراك في أيامنا هذه لا يقبلون أية عملة مسيحية عليها نقوش آدمية أو حيوانية، إنهم أزالوا الأصنام والصور (التي كان الناس يقدسونها) حيثما وجدوها ووجدوا إلى ذلك سبيلًا.

ويجب أن نقر ونجهر بأنهم لم يعبدوا إلا الله الحق، وإن كانوا قد ارتكبوا يي خطأ فهو خطأ في الوسيلة وليس في الهدف، ولقد وجد الإمبراطور Manu-el Comnenus غيرَ سبب، فيما يبدو، لكي يغير صيغة القسم الذي كان يجبر من يتحول إلى المسيحية من المسلمين أن يتلوه (وكما يذكر الدكتور بوكوك في بحثه أنه كان يتضمن التبرؤ من إله محمد وسبه) إلى صيغة أخرى[2].

د - القرآن ومعجزات محمد:

عقد مؤلفنا الفصل التاسع للحديث عن القرآن وعن معجزات النبي الأخرى، وبشارات الرسل السابقين بنبوته وعن ديانته وسياسته، وقال في صدر الفصل:

بعد أن تحدثنا عن الكثير من الأخطاء والتلفيقات التي أذاعها المسيحيون ضد محمد ودينه وفندناها ودحضناها، وعلى الرغم من كونها بينة الزيف ومثيرة

(1) Ibid, p.155.

(2) Ibid, p.135.

للسخرية، فإنها قد انتشرت على نطاق واسع، وابتلعها الناس بشهية مفتوحة بسبب سذاجتهم في تلك العصور الغابرة، وتلقفتها الأجيال بالتسليم والقبول دونما امتحان وتمحيص إلى المائة سنة الأخيرة (القرن السابع عشر الميلادي). ولسوف أحاول فيما يلي أن أميز الحق من الباطل في مسائل أخرى متعددة، أن الجهل وتعمد الأذى والحقد لدى هؤلاء المنتقصين من الإسلام سيبقى ظاهرًا ومن ثم فإن تفنيده ودحضه ينبغي أن يشتد ويقوى[1].

ثم يقدم دراسة موجزة عن القرآن، وكيفية نزوله، وتلاوته، وتدوينه والأدوات التي كان يكتب عليها، وجمعه في مصحف واحد لأول مرة بأمر الخليفة الأول أبي بكر الصديق، وحفظ هذه النسخة في بيت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب، ثم جمع الخليفة الثالث عثمان الناس على هذه النسخة الواحدة وترك ما عداها، مع بيان أن القرآن قد نزل منجمًا طبقًا لحوادث معلومة، وأن لغة القرآن ليست من النثر المبتذل أو الدارج، لكنها صياغة شعرية (بلاغية) رائعة...، ثم يذكر أن محمدًا نفسه قد ذكر مرارًا وتكرارًا أن هذا القرآن هو معجزته وبرهان صدقه في رسالته. وأنه تحدى كل من يشك في ذلك أن يأتي بعشر سور مثله.

ويقول: ينظر المسلمون إلى أن كل آية[2] من آيات القرآن تعد معجزة، وبهذا فإن كانت المعجزات الحسية هي براهين صدق الأنبياء، فإن محمدًا قد قدم آلاف المعجزات (آيات القرآن) بما تحتويه من شرائع وهي معجزات يمكن نقلها للأجيال، على صدق رسالته. وإن الله قد فضل محمدًا بأن أعطاه معجزة باقية على مر العصور، لأن الحق ينبغي أن يكون في كل العصور يقينًا ومقنعًا. وقد قال بذلك كل من البيضاوي وأحمد بن إدريس والغزالي.

(1) Ibid. p.156.

(2) لفظ الآية في العربية من معانيه: المعجزة.

ثم يضيف قوله: الحق أني لم أجد كاتبًا متمكنًا ينازع في القرآن روعته وهنالك تقدير عام بأن القرآن يعد النموذج والمعيار للغة العربية وفصاحتها، لكن هنالك اعتراضات متعددة من الكتاب المسيحيين على عدم التناسق، والغموض، وأخطاء التاريخ، والتقاويم، واتهامه بعدد لا حصر له من التفاهات والأساطير والسخف المنافي للعقل[1].

وقد فند الدكتور ستوب هذه الاتهامات المسيحية للقرآن وبذل جهدًا كبيرًا في ذلك، فبدأ باقتباس شهادة من وصفه بالعالم الراحل السير جون جريجوري التي أوردها في صدر كتاب له وجاء فيها: لقد سألني ذات مرة رجل ذكي عما إذا كان القرآن – كما هو في ذاته يمكن أن يؤدي إلى اليقين البرهاني أو الإيمان العقلي؟. فأجبت على الفور: نعم!!، ثم يقارن السيد جون جريجوري بين القرآن والكتاب القدس، ويرى أن القرآن لو قرأناه في نصه الأصلي، أو في ترجمة جيدة سيبدو أكثر تميزًا.

ويضيف: نلاحظ أن هذا الرجل العالم ليس لديه رأي مريض عن القرآن وقد لاحظنا في بحثنا أن أولئك الرجال الذين تدبروا القرآن وكتب المسلمين الأخرى، قد تحرروا من كثير من تحيزات المسيحيين الأوروبيين العامة ضد القرآن وصاحبه، وتبنوا وجهات نظر أكثر إنصافًا وإعجابًا من أولئك الذين استبد بهم كرههم وجهلهم.

وينتهي إلى نتيجة واضحة فيقول:

«إننا إذا نظرنا إلى القرآن كما ننظر إلى أي كتاب آخر، دونما تمييز أو تحيز، فسنجد القرآن أكثر تميزًا من كتاب المسيحيين المقدس!!

(1) Ibid. p.158.

ثم يذكر د. ستوب بعض مزايا القرآن[1]. وينتقل إلى الحديث عما أسموه أخطاء التاريخ والتقاويم فيقول: ألسنا ندافع اليوم عن مثل تلك الأخطاء في أسفارنا المسيحية بقولنا إن روح الله التي أوحت إلى الأنبياء لم تكن حبيسة للقواعد اللغوية أو المناهج المألوفة!!. ويضيف: إنها أخطاء لأنها تتفق مع ما جاء في أسفار الفرق المسيحية الأخرى التي اعتبرتها الكنيسة مزورة.

ثم ينتقل إلى الحديث عن مسألة مهمة تتعلق بترجمات القرآن إلى الإنجليزية فيقول: من الملاحظ بوضوح أن القرآن بصياغته الشعرية، لا يمكن تقديره في ترجماته النثرية العادية التي نمتلكها. إن ترجماتنا الإنجليزية للقرآن، تحذو حذو الترجمات الفرنسية، وتلك الترجمات الفرنسية للقرآن بَيَّنت الفساد المتمثل في تغيير نصوص كثيرة وتبديلها وحذف نصوص كثيرة أخرى[2]، وكان على مترجمينا أن يستفيدوا من المفسرين العرب والفرس والأتراك، لكنهم لا يعرفون تلك اللغات، ولم يكن ذلك من همهم، وكل همهم في العالم هو إقحام تلك التلفيقات التي لم يَنْطق بها محمد (في القرآن).

ثم يختم الدكتور ستوب تعليقه قائلًا: لقد تأملت التحفظات التي أخذها المسيحيون على القرآن، فوجدتها ليست شيئًا غير تلك التي أثيرت بقوة ضد كتابنا المقدس، وما سوف يدافع به المسيحيون عن أنفسهم يكون كافيًا في الدفاع عن القرآن!! لذلك فإني لن أعتذر عن الأخطاء التي أثاروها ضد محمد بمقارنتها بأخطاء التلمود، وأخطاء تاريخنا الكنسي، والأساطير البابوية أو الخرافات التي رويت عن آباء الكنيسة، أو تلك التي آمن بها المسيحيون السذج[3].

---

(1) Ibid. p.158.
(2) Ibid. p.159.
(3) Ibid. pp.162 - 164.

وتحدث صاحبنا عن البشارات بنبوة محمد في الأسفار اليهودية والمسيحية[1]، وانتقل إلى الحديث عن أركان الإسلام الخمسة وعقائده وآدابه وتشريعاته ونظمه وقدرها تقديرًا عميقًا عاليًا. وقد دافع بقوة عن حكمة التشريعات الإسلامية في تحريم الخمر والزنا والربا ولحم الخنزير وإباحة تعدد الزوجات مع العدل والحاجة، وفند مزاعم المسيحيين الأوروبيين وانتقاداتهم للإسلام في هذه المسائل.

لعل هذه الورقة قد استطاعت أن تقدم للقاريء الكريم صورة واضحة القسمات عن نقد الذات الاستشراقية، متمثلًا في محتوى هذا الكتاب، ذي القيمة العلمية والتاريخية الكبيرة، وأن تلفت – في الوقت نفسه – أذهان الباحثين والمهتمين بالقضية الاستشراقية إلى قراءته ودرسه بوصفه «وثيقة» في موضوعها ومنهجها وتاريخ تدوينها، طالما نسيت أو تنوسيت، والكثير في غفله من أمرها[2].

(1) Ibid. pp. 164 - 179.

(2) كنت قد تلقيت نهاية العام الماضي 2010م دعوة كريمة من اللورد المخضرم Robert’s عضو مجلس العموم لزيارة بريطانيا والمشاركة في جلسة نقاشية بمبنى مجلس العموم البريطاني بين علماء الأديان السماوية المعنيين بالحوار، ثم ألقيت – بعد ذلك – محاضرة في كنيسة وستمنستر الملكية العريقة في لندن عن (علاقة المسلمين بأهل الكتاب كما يصورها القرآن الكريم والسنة المطهرة)، ثم ألقيت محاضرة في جامعة أكسفورد عن (منهجية المسلمين في فهم نصوص الوحي: القرآن والسنة) واستمعت إلى علماء اليهودية والمسيحية وهم يتحدثون عن نفس الموضوع، ثم ذهبت إلى جامعة كمبردج لمقابلة بعض علمائها وزيارة مكتبتها.. والمهم في هذا السياق أن صورة الدكتور هنري ستوب ابن هذه البلاد كانت قريبة مني وأنا أتجول في بلاده، وأحاضر وأناقش، وأتفق وأختلف مع مواطنيه، استلهم شجاعته وأستدعي نبالته، وأتساءل أحيانًا: هل دفع الرجل حياته ثمنًا لمواقفه؟!!

بداية الاستشراق

هنالك اجتهادات متنوعة لتحديد بداية النشاط الاستشراقي في الغرب، يقول المستشرق الألماني المعاصر رودي بارت (Rudi – Paret) مترجم معاني القرآن إلى اللغة الألمانية – «إذا نظر المرء إلى الوراء، إلى تاريخ تطور الاستشراق.. فإنه يستطيع أن يقول: إن بداية الدراسات العربية والإسلامية – في الغرب – ترجع إلى القرن الثاني عشر؛ ففي عام 1143م تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه الراهب بطرس المحترم رئيس دير كلوني وكان ذلك على أرض أسبانية.

وعلى الأرض الأسبانية، وفي القرن الثاني عشر أيضًا، نشأ أول قاموس لاتيني عربي.. وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر بذل ريموند لول– المولود في جزيرة ميورقه– جهودًا كبيرة لتدريس اللغة العربية، وكان قد تعلم اللغة العربية على يد عبد عربي»[1].

وهناك آراء ترجع بداية الاستشراق إلى القرن العاشر الميلادي بدءًا من الراهب الفرنسي جريبردي أوراليك 940 – 1003م الذي قصد الأندلس، وتتلمذ على أساتذة من المسلمين في أشبيلية وقرطبة، حتى أصبح من أكثر علماء عصره إلمامًا بالثقافة العربية الإسلامية، وقد اعتلى سدة كرسي البابوية في روما سنة 999م، وتسمى باسم سلفيتر الثاني[2].

كما يرجع بعض الباحثين بداية الاستشراق إلى بداية احتكاك المسلمين بالرومان في غزوة مؤتة وغزوة تبوك[3].

---

(1) رودي بارت: الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية «المستشرقون الألمان من تيودورد نولدكه» ص9، ترجمة د. مصطفى ماهر، نشر دار الكاتب العربي 1967م.

(2) نجيب العقيقي: المستشرقون ح1 ص110 طبعة4، دار المعارف، وكذلك الدكتور مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص1، نشر المكتب الإسلامي.

(3) محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص9، طبعة القاهرة.

ورأى فريق أن البداية الحقيقية للاستشراق كانت مع الحروب الصليبية حيث بدأ الاحتكاك السياسي والديني بين الإسلام والصليبية الغربية الغازية، واستحكم العداء بين المسلمين والغرب الصليبي أيام نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والملك العادل إثر الهزائم المتكررة التي ألحقها هؤلاء القادة العظام بالصليبيين، وكل هذا دفع الغرب إلى الانتقام بكل الوسائل[1].

ومما يؤكد هذا، ذلك الخبر الذي أورده ابن الأثير المؤرخ المعروف في كتابه (الكامل) ومفاده: أن بطريرك بيت المقدس خرج مع كثير من مشهوري الصليبيين وفرسانهم، حين فتح صلاح الدين بيت المقدس، ولبسوا السواد، وأظهروا الحزن على ذهاب بيت المقدس من بين أيديهم، ودخلوا بلاد الإفرنج يطوفونها، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بالثأر، بأرض بيت المقدس...، وصوروا المسيح، وجعلوا صورة رجل عربي أمامه، والعربي يضرب المسيح، وقد جعلوا الدماء تسيل على صورة المسيح، وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله[2].

كما أن المؤرخ بهاء الدين بن شداد (وهو معاصر للأحداث وقريب منها) يروي أنهم صوروا قبر المسيح (عليه السلام)، وصوروا على القبر فارسًا مسلمًا وقد وطئ قبر المسيح عليه السلام وبال الفارس على القبر، وأنهم أبدوا هذه الصورة وراء البحر – في بلادهم – ؛ في الأسواق والمجامع، يحملها القسوس ورؤوسهم مكشوفة، وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور[3].

ويؤكد جاردنر Gardner أن دوافع هذه الحروب الصليبية (التي تمخضت عنها الحركة الاستشراقية) كانت سياسية توسعية وإن تسربلت بالمسوح الدينية،

(1) انظر قاسم السامراني: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص20 دار الرافاعي بالرياض 1983م.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج9 ص201، القاهرة 1343هـ.

(3) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص121، القاهرة 1317هـ.

فيقول: لقد فشل الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين بالسيف ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي. والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الإسلام[1].

أما ليفونيان Levonlan فيري– بحق– أن الحروب الصليبية كانت أعظم مأساة نزلت بالصلات والعلاقات بين المسلمين والنصارى في الشرق.

لقد فشل الصليبيون في إقامة مملكة في هذا العالم (الإسلامي) فزرعوا العداوة والبغضاء[2].

ويقرر رشتر Richter أن دول أوروبا خابت في الحروب الصليبية الأولى عن طريق السيف، فأرادت أن تشن على المسلمين حربًا صليبية جديدة عن طريق التبشير، فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس، والمستشفيات، وفرقت المبشرين في العالم[3].

وهنالك قسم آخر يرد نشأة الاستشراق إلى الحرب الدموية التي نشبت بين المسلمين في الأندلس ونصاراها، خاصة بعد استيلاء (ألفونسو السادس) على طليطلة سنة 488هـ – 1085م فنشأت حركة التوبة والتكفير عن الذنوب، وكان مركزها في دير كلوني Cluny الذي سيطر عليه طائفة الرهبان البندكتيين برئاسة الراهب بطرس المحترم الفرنسي، ومن هذا الدير انطلقت حركة تغيير النصرانية الأسبانية بكل كتبها وطقوسها، وجعلها نصرانية كاثوليكية رومية صرف؛ ذلك لأن هؤلاء الرهبان رأوا أن النصرانية الأسبانية قد أصابها الفساد لاكتسابها الكثير من

(1) Gardner. W.TY.. The Reproach of Islam. Vol 2. P.221. Glodon. 1909.
عن (الاستعمار والتبشير) الدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدي، 115، ط2، المكتبة العصرية، بيروت.

(2) Levonian. L: Islam and Christianity. London. 1940 P. 124.

(3) Richter J. : A history of Protestant Missions in the Near East P14.N. y. 191.
عن المرجع السابق« ص115.

الإسلام، لذا بدأوا حربهم الصليبية ضد نصرانية أسبانيا وإسلامها على السواء[1].

وقد نشط هذا الدير في حشد القوى الغربية للاستيلاء على أسبانيا من أيدي المسلمين بكل الوسائل، وكان أول أسقف على طليطلة بعد استيلاء النصارى عليها من رهبان هذا الدير.. (دير كلوني) ومن هذا الدير انطلقت حركة إصلاح عمت النصرانية الأوروبية، وجعل منه الرهبان- بعد أن أووا إليه في القرن الثاني عشر- مركزًا خطيرًا لدراسة الثقافة العربية، وقصد رئيس الدير نفسه (بطرس المحترم) الأندلس فيمن قصدها مستزيدًا من علومها، ولما رجع إلى ديره طفق يصنف الكتب في الرد على علماء الجدل المسلمين[2].

ومعروف أن هذا المحترم بطرس قد كلف اليهودي المتنصر بطرس أوبيدرو (ألفونسي أو العبري، أو الطليطلي) أن يترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، وبالرغم من أن هذه الترجمة قد عزاها البعض إلى (هرمان الأرماني وروبرت أوف جستر) الراهبين اللذين قيل فيهما إن بطرس المحترم قد صرفهما عن دراسة الفلك في الأندلس إلى ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية، فإن المترجم الحقيقي نفسه يقول في مقدمة هذه الترجمة ما نصه: «أنا بطرس الطليطلي الذي ترجمت هذا الكتاب من اللسان العربي إلى اللاتيني، وذكر أيضًا أن راهبًا من دير كلوني كان قد أرسله بطرس المحترم قد أصلح لغتي اللاتينية لأنني لا أجيدها مثل إجادتي اللغة العربية. وبطرس الطليطلي هذا من عائلة يهودية نزحت من قرطبة حين استولى الموحدون عليها إلى طليطلة...، وقد نسبت هذه الترجمة إلى بطرس المحترم

(1) د. قاسم السامراني مرجع سابق، ص21، وانظر:

Mackay. A. :Spain in the Middle Ages. PP. 22 - 23. London

وللتعرف على بعض ما فعله هؤلاء انظر «الوثيقة الأندلسية» عن اضطهاد النصارى للمسلمين الأندلسيين، وتعليق المستشرق مونرو عليها، وترجمتنا لها، نشر دار الهداية بالقاهرة 1986م.

(2) نجيب العقيقي، ج1 ص122 - 123، وانظر (رسالة راهب فرنسا إلى المقتدر بالله أمير سرقسطة وجواب القاضي الباجي عليها) وهذا الراهب هو رئيس دير كلوني، والرسالة بتحقيقنا، ونشر دار الصحوة بالقاهرة 1986م وانظر مجلة (Andalous) العدد (1952)، (1963).

James Kritzeck – Peter The Venerable and Islam. Princeton. 1964

رئيس دير كلوني لأنه هو الذي أمر بها (حتى يستطيع دحض القرآن)[1].

ورأى قسم آخر أن نشوء الاستشراق كان لحاجة الغرب للرد على الإسلام أولًا، ثم لمعرفة أسباب هذه القوة الدافعة لأبنائه ثانيًا، خاصة بعد سقوط القسطنطينية سنة 1453م، ومن ثم وصول العثمانيين إلى أسوار فيينا، إذ وقف الإسلام سدًّا مانعًا من انتشار النصرانية[2].

وأرى من جانبي أن الاستشراق قد بدأ بداية حقيقية منتظمة بقرار المجمع الكنسي في فيينا بالموافقة على تدريس اللغات الشرقية في خمس من جامعات أوروبا الكبرى، هي: باريس، وأكسفورد، والجامعة البابوية، وبولونيا، وسلمنكا سنة 1312م. ثم توسعت أوروبا في فتح أقسام جديدة وانشاء كراسي أستاذية في عدد من جامعات الغرب؛ ففي سنة 1587م بدأ تدريس اللغة العربية بصورة منتظمة في College de France في باريس، وفي سنة 1613م في جامعة ليدن في هولندا، وفي كمبردج سنة 1632م، وأنشئ كرسي أستاذية للعربية والدراسات الإسلامية في أكسفورد سنة 1634م، ويرى الدكتور ألبرت حوراني أنه منذ ذلك الوقت بدأت دراسات مهمة ومكثفة للمصادر العربية، وقد برزت معها صورة محمد (ﷺ) أكثر وضوحًا[3].

وقد أنجز George Sale أول وأهم ترجمة للقرآن الكريم في القرن السابع عشر وكتب لها مقدمته الذائعة التي اعتمد عليها Lodvoico Marracci في ترجمته اللاتينية للقرآن الكريم.

ثم نشر Simone Okely كتابه عن تاريخ المسلمين «History of Saracens» في نفس القرن، وهكذا فقد نشطت الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، وأصبح لها مراكز وتقاليد علمية وأساتذة ودارسون مهتمون متخصصون.

---

(1) مرجع سابق ص23.

(2) د. قاسم السامراني، مرجع سابق ص23/ 22، وانظر كذلك:

Terror_Roper_ Hugh. The Rice of Christlan Europe، PP92_93، England، 1973.

(3) A. Hourani.Islam In European Thought.PP. 12،13.

وأما ما ذهب إليه الدكتور جورج مقدسي بأن القرن التاسع عشر هو الذي شهد ميلاد الدراسات الإسلامية في الغرب[1] فإنه يحمل على أن هذا القرن قد شهد نهضة كبيرة في الدراسات الاستشراقية، وقد ساعدت الحكومات الأوروبية الاستشراق طمعًا في الحصول على خدمة الأخير لأغراضها الاستعمارية، وفي هذا القرن تأسست الجمعيات الاستشراقية الكبرى مثل:

- Asiatic Society of Bengal 1786
- Royal Asiatic Society in London 1823
- Societe Asiatique in Paris 1822
- Deutshe Morgenlandische Gesellschaft in 1845

وكل جمعية من هذه الجمعيات أصدرت لها مجلة استشراقية لنشر بحوث المستشرقين ودراساتهم.

كما أن سلسلة المؤتمرات الاستشراقية قد بدأت سنة 1873م، وقد كانت هنالك اتصالات واسعة بين المستشرقين وشبكة من المراسلين في شتى أنحاء العالم؛ وكان جولدزيهر يوصي المستشرقين قائلًا: «Always answer letters and attend the Congress of Orientalists»[2].

وعلى كل حال فإن القول بأن الاستشراق قد ولد– ابتداءً– في أحضان الكنيسة والأديار النصرانية الرومانية يبقى صحيحًا على إطلاقه، وكل الاجتهادات المطروحة تؤكد هذه الحقيقة وتوثقها وتعمقها، وعلى كل حال يمكن التعرف على كثير من التفصيلات المفيدة في كتاب المستشرق Normon Daniel بعنوان Islam and The West (طبع في لندن 1963)، وكذلك كتاب المستشرق Southern بعنوان: Western Views of Islam in the Middle Ages طبع في جامعة هارفارد 1962م).

(1) Studies on Islam " PP. 217 - 22.George Makdisi: Hanbalite Islam Tranlated and edited by Merlin L، S. New York Oxford، 1981.

(2) A.Hourani، Ibid.

هدف الاستشراق إبَّان نشأته الأولى

يحدد المستشرق الألماني المعاصر Rudi paret هدف الاستشراق في وضوح وصراحة وجرأة، فيقول: «كان الهدف من هذه الجهود – الاستشراقية – في ذلك العصر، وفي القرون التالية هو التبشير، وهو إقناع المسلمين وبلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي[1] ويقول بارت كذلك:

«كان موقف الغرب النصراني – في العصور الوسطى – من الإسلام، هو موقف الدفع والمشاحنة فحسب. حقيقة إن العلماء ورجال اللاهوت – في العصر الوسيط – كانوا يتصلون بالمصادر الأولى (الأصلية) في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير، ولكن كل محاولة لتقييم الإسلام – على نحو موضوعي – كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للمسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير. وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا تلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المقرر من قبل، وكانوا يتلقون منهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى الإسلام[2].

كان الإسلام كما يقول (Southern) يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في أوروبا على كافة المستويات؛ فباعتباره مشكلة عملية استدعى الأمر اتخاذ إجراءات معينة بالصليبية والدعوة إلى النصرانية، وباعتباره مشكلة لاهوتية تطلب – بإلحاح – العديد من الإجابات على العديد من الأسئلة في هذا الصدد؛

(1) رودي بارت، مرجع سابق، ص9.

(2) المرجع السابق ص1 –، وانظر ص15.

وذلك يقتضي معرفة الحقائق التي لم يكن من السهل معرفتها، وهنا ظهرت مشكلة تاريخية صار من المتعذر حلها، كما ندر إمكانية تناولها دون معرفة أدبية ولغوية يصعب اكتسابها، وصارت المشكلة أكثر تعقيدًا بسبب السرية والتعصب والرغبة القوية في عدم معرفتها خشية الدنس[1].

وقد صور مكسيم رودنسون- بألفاظ مشابهة- مقدار الهلع والخوف الذي اجتاح رجال الكنيسة في الغرب من الإسلام، فقال: «كان المسلمون خطرًا على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلة، كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بنيان الوحدة الروحية للغرب، وأنموذجًا حضاريًّا يجتاز بتفوقه، وبحركته الإبداعية المتسارعة، وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب. إذ أنه- وفي مواجهة تقدم هذا الأنموذج عبَّر مثقفو الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام الإسلام، وبدا ذلك لهم وكأنه خطر على المسيحية[2]. امتلأ الغربيون بالإحساس بالنقص إزاء الدين الإسلامي وحضارته المتفوقة المزدهرة، ودفعهم شعورهم المتزايد بالخوف والمرارة- بعد فشلهم المريع في حروبهم الصليبية - إلى البحث عن خطط بديلة تحقق أهداف الحروب الصليبية دون مواجهة عسكرية بحيث تؤدي إلى تشويه الإسلام في أعين الغربيين وصرفهم عنه، كما تعمل- في صمت وهدوء- على تحقيق نصر على هذا الإسلام[3].

ولقد أسهمت كتابات يوحنا الدمشقي (675 – 749م) الذي يعد اللاهوتي المسيحي الأول الذي يسجل عن الإسلام أنه (هرقطة) أي بدعة مسيحية، وأن الإسلام ديانة زائفة، وأن (الله) ليس هو الرب أو السيد كما يعتقد فيه النصارى، وأن الإسلام قد اخترعه محمد (ﷺ) بدوافع الطموح الشخصي، وأنه قد نشره بحد

(1) Southern R.W. Western Views of Islam In the Middle Ages، Cambridge. 1962PP7 - 14

(2) مكسيم رودنسون: عن د. مدكور في دراسات في الفكر الإسلامي نشر في مكتبة الزهراء.

(3) إدوارد سعيد (عن مكسيم رودنسون).

السيف[1] أسهم ذلك التشخيص المبكر في تشكيل صورة محمد ﷺ في الغرب، وزادوا عليها أنه لم تبشر به الكتب السابقة، ولم تجرِ المعجزات على يديه، ولم يوحَ إليه بالأسرار، وأن أي إنسان يمكن أن يصنع ما صنعه محمد الذي سلك طريق النجاح الشخصي بينما عاش عيسى الرب من أجل الإنسانية[2].

ولقد سيطرت هذه الصورة الغربية عن الإسلام على المستشرقين بحيث أصبحت هي القاعدة العامة، وأمسى الخروج عليها أمرًا استثنائيًّا.

يقول الدكتور ألبرت حوراني: مع بداية القرن التاسع عشر، اتخذ الأوروبيون الدارسون للإسلام طريقين، هما: أن الإسلام عدو منافس للمسيحية؛ والآخر أن الإسلام ليس أكثر من واحد من التصورات البشرية لطبيعة الإله، والعالم. وفي هذا القرن (التاسع عشر) ظهر في- بريطانيا- حافز جديد لفكرة المخاصمة بين الإسلام والمسيحية؛ يتمثل في الروح الدينية الإنجليكانية بين الإنجليز. وقد أصبحت هذه الخصومة آنئذٍ ممكنة على نطاق واسع بسبب نمو وازدياد الأنشطة التبشيرية المنظمة، وبسبب توسع الإمبراطورية في الهند خصوصًا، مما منحها الفرصة السانحة والمسئولية معًا.

وعلى العموم فإن فكرة المبشرين المتشبعين بالروح الإنجيلية كانت مناهضة للإسلام، قائمة بواجب تنصير المسلمين. ويشير حوراني إلى بعض الأمثلة على ذلك منها: توماس فالبي الفرنساوي المتوفى 1891م الذي كان مديرًا لكلية القديس يوحنا في عليكرة، ثم أسقفًا في لاهور، كان يعتقد أن الإسلام والمسيحية مختلفان اختلاف السماء والأرض، ثم استقال من منصبه الكبير ليضطلع بواجبه نحو التبشير بالإنجيل في الجزيرة العربية ذاتها، وقد مات في مسقط. وتلك المناظرة التي جرت بين هنرى مارتن المبشر المشهور المتوفى 1882م وبين علماء الشيعة في شيراز

(1) D.J. Shahas.Johon of Damascus on Islam، Lieden، 1972 PP. 41 - 132.

(2) Islam in European Thought. P. 12.

سنة 1881م. وأهم نموذج لذلك تلك المناظرة العلنية التي وقعت بين كارل فندر والشيخ رحمة الله الهندي سنة 1845م.

ويذكر الدكتور ألبرت حوراني أن كارل فندر كان معضدًا من قبل كبار موظفي شركة الهند الشرقية الإنجليز مما جعله يسلك سياسة نشطة في التبشير والتأليف والنشر، وقد تحدى الشيخ رحمة الله للدخول في مناظرة علنية، ولم تستمر المناقشة بسبب انسحاب كارل فندر منها ويبدو من التقارير أن الشيخ رحمة الله قد ربح المناظرة. كما وأنه قد وضع أمر الثقة في الأناجيل على المحك.

ولم يكن المبشرون وحدهم الذين يحملون الروح الإنجيلية، وإنما كان كثير من رجال الدولة الإنجليز في الهند متأثرين بهذه الروح؛ ومنهم مثلًا: William Maur الذي كان حاضرًا في مناظرة الشيخ رحمة الله وفاندر، ثم كتب بعد ذلك كتابه The Muhammadan Controversy الذي أظهر فيه عداءًا شديدًا للإسلام والمسلمين؛ وقد أصبح هذا الرجل فيما بعد مديرًا لجامعة أدنبرة، وكتب كتابًا بعنوان «Life of Muhammad» وذكر فيه أن الإسلام فيه حق كثير بيد أنه مأخوذ من الأديان السابقة الموحى بها[1].

وكان من أهم الخطوات التي اتخذها رجال الكنيسة في أوروبا لمواجهة مشاعر الانبهار والإعجاب بالإسلام، أن تعمل على تشويه صورة الإسلام، وهذا ما يشير إليه مكسيم رودنسون حيث يقول: إن هذه المشاعر نحو الإسلام قد أدت إلى نتيجتين هامتين: أولاها: السعى نحو وحدة أيديولوجية أوروبية متكاملة في مواجهة فكر الإسلام وحضارته. وأخراها: أن الكنيسة الأوروبية قد عملت – من أجل تثبيت الإيمان المسيحي – على تشويه المنتجات الحضارية للإسلام، وما يصل منها إلى مسامع الغربيين[2].

---

(1) Islam in European Thought. PP. 18,19.

(2) م. رودنسون عن د. مذكور «دراسات في الفكر الإسلامي ص81.

وقد نشط اللاهوتيون النصارى– في ذلك الوقت المبكر– ضد الإسلام وراحوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ، وزعموا أن الإسلام قوة خبيثة شريرة، وأن محمدًا ﷺ ليس إلا صنمًا أو إله قبيلة أو شيطانًا، وغزت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتين. وهناك في هذا الصدد حكايات في وصف الإسلام مغرقة – كما يصفها الدكتور محمود حمدي زقزوق – في الخيال والضلال، اخترعها خيال جاحد مريض مثل أنشودة رولاند وغيرها من آثار تصف المسلمين بأنهم عباد أصنام، أو أنهم يعبدون ثلاثة آلهة هي: ترفجان ومحمد وأبوللو.

ويطلق – Southern – على هذا العصر (عصر الجهالة) ويذكر أن الشيء الوحيد الذي يجب أن لا نتوقع وجوده في تلك العصور هو الروح المتحررة الأكاديمية، أو البحث الإنساني الذي تميزت به الكثير من البحوث التي تناولت الإسلام في المائة سنة الأخيرة[1]. كان الهدف إذا من دراسة الإسلام محددًا وواضحًا وهو: محاربة هذه التعاليم (الإلحادية)!!!. ودحضها على حد قول بطرس المحترم رئيس رهبان دير كلوني[2].

وقد كان من أبرز الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلم لغة المسلمين لغرض تنصيرهم (روجر بيكون) 1214 – 1294 (جد فرنسيس بيكون رائد الفلسفة المادية التجريبية في الغرب)، وقد كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع العالم المسيحي (على حساب العالم الإسلامي) ولبلوغ هذا الغرض، لابد من توفر شروط ثلاثة هي:

(1) معرفة اللغات الإسلامية.

(2) دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها عن بعض (يعني دراسة الأديان).

(3) دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها[3].

---

(1) ساوذرن: مرجع سابق ص15، 17، 48، 49.

(2) المرجع السابق ص56.

(3) المرجع السابق ص76، وانظر يوسف كرم، الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ومقدمة هذه الرسالة.

وقد شارك بيكون في طموحاته (ريموند لول 1316 – Raymond Lull 1235) الذي كانت له جهود كبيرة أثمرت إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية في أماكن متعددة في أوروبا، وكان الهدف من كل هذه الجهود في ذلك العصر، وفي العصور التالية: هو التنصير[1].

وقد أقر مجمع فيينا الكنسي سنة 1312م أفكار بيكون ولول بشأن تعليم وتعلم اللغات الإسلامية، وتمت الموافقة على تعليم اللغة العربية في خمس جامعات أوروبية كبرى هي: باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وسلمنكا، بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية.. هذا وقدر لريموند لول أن يعيش حتى ينعم برؤية حلمه يتحقق.. وكان لول يعتقد بأن الوقت بذلك قد حان لإخضاع المسلمين عن طريق التنصير، وبذلك تزول العقبة الكبرى التي تحول دون تحويل الإنسانية كلها إلى العقيدة الكاثوليكية[2].

ومن العجيب أن المستشرقة الأمريكية المعاصرة Margaret Marcus ترى بصراحة أن هذه الأقسام وغيرها لا تزال تقوم بهذه الوظائف في الوقت الحاضر. تقول مارجريت ماركوس: «إن المستشرقين العلماء، والسياسيين الغربيين الدهاة واعون جيدًا لهذه الحقائق؛ كذلك فإن الأقسام الخاصة في الجامعات والمراكز العلمية المنتشرة في أوروبا وأمريكا والمتخصصة في دراسة الإسلام وفهمه، إنما تقوم بذلك من أجل تحقيق غاية واحدة هي: التمكن من العدو لتدميره، وتلك المعاهد الإسلامية ومراكز البحث الإسلامية مشغولة اليوم بتكوين أتباع للغرب في قطر إسلامي تلو الآخر، وهدفهم من وراء ذلك إجهاض القضية الإسلامية من داخلها، واحباط أي محاولة لبعث حقيقي إسلامي»

«The learned Orientalists and shrewd politicians of the West are thoroughly aware of these facts. Hence, the special departments in universities and seminaries scattered throughout Europe and Amer-

(1) د. زقزوق مرجع سابق ص28.

(2) المستشرق الألماني يوهان فك: (الدراسات العربية في أوروبا) عن: الاستشراق ص28.

ica dedicated to understand Islam only to enable its enemies to destroy it. These «Islamic Institutes›* and «Islamic Research Centres» are now busy establishing their satellites in one country after another، the purpose of which is to subvert the Islamic cause from within and frustrate any attempts for a genuine Islamic renaissance» [1].

لا ريب إذًا أن الدافع الأول لنشأة الاستشراق في الغرب هو الدافع الديني، فقد بدأ بالرهبان كما رأينا، واستمر كذلك.. وهؤلاء كان أكبر همهم الطعن في الإسلام، وتشويه محاسنه، وتحريف حقائقه، ليثبتوا للجماهير الخاضعة لزعامتهم أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج لصوص سفاكو دماء، يحثهم دينهم على الملذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي.

ثم اشتدت حاجتهم إلى هذا الهجوم في العصر الحاضر، بعد أن رأوا الحضارة الحديثة وقد زعزعت أسس العقيدة المسيحية عند الغربيين، وأخذت تشككهم في كل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين عندهم فيما مضى، فلم يجدوا خيرًا من تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة، وهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى، ثم الحروب الصليبية، ثم الفتوحات العثمانية في أوروبا بعد ذلك في نفوس الغربيين من خوف من قوة الإسلام، وكره أهله، فاستغلوا هذا الجو النفسي وازدادوا نشاطًا[2].

كان هدف الاستشراق إذًا- كما صرح المستشرقون أنفسهم- هو العمل من أجل إنكار المقومات الثقافية والروحية للأمة الإسلامية، والتنديد والاستخفاف بها[3]. وأن ما يشعر ويفكر به الغربيون نحو الإسلام- اليوم- متأصل في انفعالات وتأثيرات ترجع إلى خبرات سابقة عميقة الجذور في الفكر الأوروبي،

(1) Islam and Orientalism، PP، 16 - 17،1981.Anarkali

(2) د. مطصفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون: مالهم وما عليهم، ص16 ط2 – المكتب الإسلامي.

(3) د. محمد البهي: المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام؛ ص39 طبع وهبة.

ويذكر الدكتور عرفان عبد الحميد: أن من سخرية التاريخ أن يظل هذا الحقد القديم ضد الإسلام قائمًا بطريقة لا شعورية في زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره في مخيلة الأوروبي [1]. ويقر المستشرقون بهذه الحقيقة؛ وهي تعصب المستشرقين من رجال الدين الغربي ضد الإسلام، وتحاملهم عليه، وتسميم عقول الغربيين ووجدانهم ضده[2] كما يقررون أن هناك محاولات من بعض المستشرقين لتجاوز هذا التحيز الجاهل والتعصب البغيض ضد الإسلام، ولكن هذه المحاولات في معظمها تتعثر بموروثاتها الثقيلة التي تكبلها منذ ما يربو عن الألف عام.

يذكر (Norman Danial) أنه رغم المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا من أن يتجردوا كليًّا عنها كما قد يتوهمون[3].

ويؤكد ذلك المستشرق المعاصر مونتجمري واط M.Watt، إذ يقول: «منذ القرن الثاني عشر جد الباحثون الغربيون من أجل تقويم الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا للإسلام. ولكن رغم الجهد العملي المبذول فإن آثار الموقف المجافي للحقيقة والتي ولدتها كتابات القرون الوسطى في أوروبا لازالت قائمة فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتثاثها كليًّا »[4].

ويستطرد (Watt) قائلًا: «لقد قامت في صفوف المستشرقين في السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفاذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني للمسلمين؛ بدل السطحية الفاضحة التي صبغت دراساتهم السابقة، ولكن– ورغم ذلك– فإن التأثر بالأحكام التي صدرت مسبقًا على الإسلام، والتي اتخذت صورة

(1) د. عرفان عبد الحميد، المستشرقون والإسلام ص4 ط2، المكتب الإسلامي بدمشق.

(2) انظر حديث (مونتجمري واط) المفصل في نهاية هذا الفصل.

(3) Norman Daniel، The Arabs and Medieval Europe، London، 1975 Islam and the West، Edenburgh. 1960.

(4) Watt.W، Muhammad: Prophet and Stateman، Oxford، 1961،P3.

(كلشيهات تقليدية) في الغرب لا زال قويًّا في بحوثهم، ويصعب تجاوزها في أية دراسة لهم عن الإسلام[1].

أما المستشرق (برنارد لويس) فإنه يعبر عن ذلك في سخرية مريرة قائلًا: «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية»[2].

ومهما يكن من أمر فإن العلاقات بين الاستشراق والتبشير متشابكة متداخلة، وإذا نظرنا- مثلا- إلى المجلات الاستشراقية المتخصصة وجدنا المبشرين المعروفين من بين أهم وأبرز كتابها، ونفس الشيء يقال عن المجلَّات التبشيرية المتخصصة؛ بحيث يصعب التمييز في الغرض والمجال بينهما، ونذكر على سبيل المثال مجلة «The Muslim World» الأمريكية التي رأس تحريرها المستشرق الدكتور صمويل زويمر، ثم خلفه الدكتور كينيث كراج، ومجلة: «Middle East Studies» (تصدر في نيويورك) و «The Middle East» ومجلة: «American Near Eastern Studies» ومجلة: «Journal of the Oriental» التي تصدر في شيكاغو..

يتحدث التقرير الصادر عن مؤتمر قسطنطينة للمبشرين 1912م عن مجلة العالم الإسلامي: «The Muslim World» قائلًا: «نحن نرجو أن تكون هذه المجلة المنبر العام للإرساليات التبشيرية إلى المسلمين (على الأقل تلك الإرساليات التي تتمركز في بلاد تستعمل اللغة الإنجليزية).... وأي عجز في ميزانية طبع هذه الدورية تلتزم الإرساليات متضامنة بتغطيته».

(1) مقدمة كتابه: Mohammadanism نشر أكسفورد.

(2) له: (العرب في التاريخ) ص63، وانظر: (المستشرقون والإسلام) للدكتور عرفان ص5، وانظر بارت: المرجع السابق ص1.

We would urge that this quarterly be adopted as the Common organ of missions to Moslems(at least of those whose home base uses English) as a means of Communication of thougt and methods and of announcements of literature prepared in other lands. Any deficit in the publication of this quarterly should be covered by contributions from the missions co_operated[1].

ويتحدث التقرير الصادر عن مؤتمر المبشرين الذي عقد في حلوان بمصر 1912م عن مجلة العالم الإسلامي في التوصية رقم (2) قائلًا:

منذ ثلاث عشرة سنة تمثل هذه المجلة منتدًى مفتوحًا لكافة المنصرين المنتشرين في كل أنحاء العالم الإسلامي. ولقد نشرت مقالات تتعامل مع الأدب المسيحي ومسألة تنصير العالم الإسلامي، تلك المسألة البالغة الأهمية. كما أنها حققت تداولًا واسعًا، وتساند كل أولئك المهتمين بتنصير الشرق الأدنى.

ويثق هذا المؤتمر أن كل الجمعيات الممثلة فيه والمبشرين المستقلين سيولون هذه المجلة مساندتهم العميقة».

For thirteen years this magazine has been an open forum for scattered workers in every part of the Moslem World. It has published a number of articles dealing with Christian Literature and the problem of Moslem evangelization which are of permenent value. The magazine deserves a larger circulation،and the support of all

(1) Conferences of Christian Workers among Moslems، 1924، P.63 (A brief Account of the Conferences together with their finding and Lists of members) published by the Chairman of the International missionary Council، New york، 1924

وهذا الكتاب وثيقة مهمة تحتوي على خطة المبشرين في العالم الإسلامي وقراراتهم وتوصياتهم، طبع طبعة خاصة للتوزيع الخاص والمحدود سنة 1924م؛ كما جاء في الكتاب ذاته، وقد عثرت على نسخة منه في مكتبة الدكتور محمد حميد الله في مجمع البحوث بباكستان.

these interested in Evangei zating the Neaar East/The Conference trusts that all Socities here represented and individual missionary will lend the magazine hearty support».

وأخيرًا فإننا نسجل: أن كل باحث عن تاريخ الاستشراق يستطيع أن يتبين بما لا يدع مجالًا للشك أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق، وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه، ولم يستطع أن يتخلص منه بصفة نهائية[1].

ملاك القول إذًا، أن الاستشراق ولد أولًا في سراديب الأديرة والكنائس، ووظفه المستشرقون من رجال الدين في الغرب لتحقيق هدفهم في محاربة الإسلام بالافتراء الحاقد عليه، والدس الرخيص، والكذب، في محاولة لطمس وتشويه حقائقه، ووضع الحواجز والسدود بين الشعب الأوروبي وتفهم الإسلام كما أنزله الله تعالى وبلغه رسوله ﷺ. وقد نجح هؤلاء في تحقيق أغراضهم وحرموا العالم الغربي من نعمة الإسلام وهديه.

..... لقد قام الاستشراق أساسًا على أن الإسلام من وضع محمد،.... فالإسلام دين بشري، وعلى أن الرسول لفق فيه بين اليهودية والمسيحية، وأنه حرف في نقله تعاليم هاتين الديانتين؛ إما لأنه لم يستطع فهمهما– كما يذكرون– وإمّا لأن محمدًا نفسه لم يرتفع إلى مستوى عيسى حتى يتصوره على حقيقته، ولذلك أنكر محمد على عيسى أنه ابن الإله، وبالتالي أنكر التثليث، وتشبث بالتوحيد وببشرية الرسول، نعم، قام الاستشراق على مثل هذا الأساس بشكل عام، ولكن المستشرقين يختلفون فيما بينهم في تصوير آرائهم، وفي تقرير شروحهم لمباديء الإسلام، وأشدهم حدة وعاطفة وهوًى جامحًا وحيدة عن أدب الكتابة...، فضلًا عن البعد عن الأسلوب العلمي في الدراسة والحكمة: المستشرقون الكاثوليك في أوروبا وأمريكا[2].

---

(1) د. مدكور: دراسات في الفكر الإسلامي، ص87.

(2) ينقل الدكتور ألبرت حوراني في كتابه (الإسلام في الفكر الأوروبي) نصوصًا كثيرة في غاية الأهمية؛ تبين الصورة الغربية عن الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ، ص6: ص60 وانظر كذلك: Dr. Henry Stubbe، Rise and Progress of Mohanetanism، Lahore 1911 وهو كتاب في غاية الأهمية وقد كتب في القرن الثامن عشر وفيه تفنيد لوجهة النظر الغربية المتحاملة ضد الإسلام، فهو (نقد ذاتي للغرب).

يقول كيمون المستشرق الفرنسي الكاثوليكي في كتابه (باثولوجيا الإسلام): «إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكًا ذريعًا، بل هي مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يستيقظ منه إلا لسفك الدماء، ويدمن على معاقرة الخمر، ويجمح في القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي، وتكرار لفظة (الله) إلى ما لا نهاية، والتعود على عادات تنقلب إلى طبائع أصيلة: ككراهة لحم الخنزير والنبيذ، والموسيقى، وترتيب ما يستنبط منه من أفكار القسوة والفجور في اللذات...» [1].

لا شك إذًا، أن أوائل المستشرقين يتحملون وزر تشكيل موقف العداء التقليدي الذي يقفه الغرب من الإسلام والشرق، كما أنهم يتحملون كِبر تأجيج هذا العداء وتأريثه، وتغذيته، والنفخ فيه...

لا جرم أن هؤلاء المستشرقين قد تسببوا في حرمان ذويهم ومواطنيهم من خير عميم، كما تسببوا في حرمان الإنسانية – الغرب والشرق – من التنعم بالحب والسلام والإخاء قرونًا طويلة.

ولقد سأل الدكتور عبد الحليم محمود سؤالًا معقولًا فقال: إن الإسلام واضح جلي، وإن تعاليمه سهلة ميسورة تنسجم مع العقل والمنطق، فما السر في عدم أخذ الأوروبيين بهذا الدين، وعدم اقتناعهم به في سرعة سريعة وكثرة هائلة[2]؟!!

لا شك أن ما بذله المستشرقون المبشرون من جهود هائلة لتشويه حقيقة الإسلام أمام المواطن الغربي كانت من أهم الأسباب التي حالت دون ذلك.

والملاحظ أن أساليب جديدة قد حلت اليوم محل الأساليب المعروفة السائدة، ونترك المجال للمستشرقة الأمريكية المعاصرة (Margaret Marcus)

(1) تاريخ الأستاذ الإمام ح1 ص9 عن: (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار) ص45.

(2) أوروبا والإسلام ص41، طبعة دار المعارف.

لتوضيح ذلك، فهي تقول:

«إن العالم الغربي مستمر في حرب الإسلام بأكثر الأسلحة تطورًا، وعلى مستوى متقدم من الأستاذية، إذ يوجد ما لا يقل عن ثماني مجلات دورية أمريكية وأوروبية مكرسة كليًّا لذلك، وثنتان مخصصتان بصورة جزئية للهجوم على الإسلام؛ وهذه المجلات هي:

العالم الإسلامي (هارتفور كنتيكت)، ودراسات الشرق الأوسط (نيويورك) وجورنال الشرق الأوسط (واشنطن) وجورنال جمعية الدراسات الشرقية (نيوهيفن كنيكتكت) ودراسات الشرق الأدنى (شيكاغو).

كما أن دور النشر الغربية تصدر فيضًا من الأدبيات التي تتناول العالم الإسلامي، وما لم تكن الدراسة المنشورة تحقيقًا لنص قديم لمؤلف مسلم أو ترجمة لكتاب إسلامي، فإنها تحمل ملامح التحيز والخصومة التي تميز النظرة الغربية تجاه الإسلام، والتي تتمثل في أن: القرآن الكريم من عمل أو اختلاق محمد، وأن الحديث النبوي موضوع ومنحول، وأن الإسلام ليس أكثر من حركة مقاومة سياسية اقتصادية للبدو المقهورين، وليس حركة دينة. وأن الإسلام قد استلب القوة الابداعية الخلاقة للشعوب التي فتحها، وأن الإسلام ليس شيئًا أكثر من تلك الممارسات الراهنة للمسلمين المعاصرين؛ الخرافية الجبرية القديمة، اللاعلمية، واللاعصرية، والعائقة للتطور، والتي هي بحاجة إلى إصلاح مثل ذلك الإصلاح البروتستانتي الذي اجتازته المسيحية.

وأن أفضل ما في الإسلام ذلك التصوف الفردي المتحلل من أحكام الشريعة، المؤكد على سقوط الإنسان، وحاجته إلى مخلص علوي، ورفضهم تهمة التهالك على الخوض في الحروب، ومذهبهم السني المنغلق، وفوق كل ذلك فالإسلام يمثل أحط Inferior مستوى خلقي لتصوراته المادية الحسية عن الجنة، ولتدني وضع المرأة في الإسلام.

كما أن تحريمه للربا يمثل عقبة أمام التصنيع، كما أن خلق العفة والابتعاد عن للخمر يقفان حائلًا دون التحضر والحرية الحديثة، وأن جموده العقيدي Dog-matism ضد التقدم. وأن الإسلام يقود أتباعه البؤساء المغلوبين على أمرهم إلى الهوس العقلي بتعليمهم أن الله يقف معهم، وأنه خالق كل شيء (مؤلف أحداث التاريخ). كل هذه الأباطيل دائرة بصفة خاصة مع كل بحث غربي للدين أو الثقافة، أو التاريخ، أو الحضارة الإسلامية.

ومن جانب آخر فإن الدراسات الغربية قد نشرت الأمراض القومية والعلمانية بتعليمها أن المسلم إنما هو عربي، أو فارسي، أو تركي، أو هندي قبل أن يكون مسلمًا. وأن تركيزهم الشديد على الدراسات الفارسية يرمي إلى فصل الشيعة عن السنة تمامًا. ودفاعهم الحماسي المستميت عن الكمالية التركية، وإبرازهم ضياء جوكيلب ومصطفى كمال أتاتورك على أنهم مصلحون... ومعارضتهم للباكستان يعطي درسًا أنهم يريدون للمسلم أن يتخلى عن إرادة السيادة، وأن يوطن نفسه على أن يعيش في أقلية مقهورة. ولقد أخذ الغرب يبشر حديثًا بالعولمة ويزعم أن الإسلام لن يستطيع مشاركة الأديان الأخرى في الوجود ما لم يصلح نفسه.

ولقد خضعت البلاد الإسلامية خلال فترة طويلة للحكم الأوروبي، وخضعت نظمهم التربوية والعلمية تمامًا لسيطرة غزاتهم ومستعمريهم؛ الذين اهتموا غاية الاهتمام بإقناع الأجيال الجديدة بالتفوق المطلق للحضارة الغربية الحديثة، وتربيتهم على التخلي عن القيم والمثل التي جاء بها الإسلام، وقد نجح الأسياد الغربيون- بهذه الطريقة- في خلق أدوات لهم في كل بلد إسلامي. وعندما منحت الحرية السياسية لهذه المستعمرات أخيرًا، سلمت القيادة آليًّا لهذه الطبقة المستغربة.......

وبعد الحرب العالمية الثانية، عدل المستشرقون والمبشرون خططهم في تغيير أفكار الأفراد المسلمين إلى وجهة نظرهم وأفكارهم، إلى تغيير الإسلام نفسه بإعطاء تفسيرات له مختلفة تمامًا، وشن حركة منظمة لإعادة بنائه من الداخل. وقد

تبنت معظم كتابات المستشرقين المعاصرة هذا الطريق[1].

(1) مارجرت ماركوس في كتابها: Islam and Orientalism ص20 – 24، 1981 ونسوق فيما يلي هذه النصوص التي ترجمناها بحروفها كما كتبتها هي:

«The Western World continues to fight Islam whith increasingly sophisticated weaponry. On the advanced level of scholarship, Islam is being bombarded by no less than eight American and European periodicals devoted entirely and two particularly to Islamic Studies. The former are: The Muslim World, (Hartford, Connecticut),Middle East Studies, (New York, N. Y.) The Middle East Jounal, Washington D.c and the latter are Jounal of the Oriental Society, (New Haven, Connecticut) and American Near Eastern Studies,(Chicago).

The Western Publishing houses print a steady stream of literature dealing with Islam and the Muslim peoples. Unless the publication is a pure edition of a text by a classical Muslim author or a translation of one, it bears definite marks of antagonism and prejudice characteristic of Western attitudes to Islam.

That the Holy Quran is the Work of Muhammad, that the Hadith literature is forged; that Islam is a mere politico - economic outburst by impoverished beduins rather than a religious movement, That Islam stifled the artistic creativity of the people it conquered; that Islam is nothing but the current practices of its present people; that it is superstitious, fatalistic, that is unscientific, un - modem, and opposed to development; that it stands in need of the same reformation Christianity underwent: that the best in Islam is Sufism with its individualism, anti - Shari'a emphasis on the falleness of man and his need for a master - savior, and repudiation of the warlike and exclusivist Sunnism; and above all that Islam stands on an inferior moral level with its materialistic conceptions of paradise and low status of Women, that its prohibition of Interest is anti - industrialisation, its puritanical and anti - alcohol ethic is against urbanization and modern liberalism, its dogmatism is anti - progressive, and it drives its miserable and vanquished to people into psychosis by teaching them that God is on their side and that He is the author of history -all these falsehoods are current In practically every Western presentation of the religion, culture, history and civilization of Islam.

In another dimension. Western works spread the nationalist and secularist diseases, teaching that a Muslim is an Arab, Persian, Turk or Indian before he Is a Muslim. Their long emphasis on Persian studies is designed to separate Shi'ah from Sunna, to teach that Islam as given by the Prophet is desert - crude, that Persian Shi'ah esotericism had refined it and made it viable. Their enthusiastic

ويؤكد د. إدوارد سعيد في كتابه: Orientalism «أن الصورة المشوهة للإسلام والعرب مازالت مستمرة في الدراسات الاستشراقية وفي وسائل الإعلام في الغرب بوجه عام، وفي أمريكا بوجه خاص. وقد استشهد على ذلك بأمثلة عديدة حفل بها كتابه، وانتهى إلى التأكيد بأنه مازالت تنشر الكتب والمقالات دون توقف عن الإسلام والعرب، وهي لا تختلف إطلاقًا عن الجدل الخبيث المعادي للإسلام في القرون الوسطى وعصر النهضة. يقول هاري دورمان: «لن يكون تركيز المبشرين في السنوات القليلة القادمة على تغيير ديانة أفراد المسلمين، مثل عنايته بتغيير

---

defence of Turkish Kemalism pleads incessantly that Zyia Qokalp and Mustafa Kemal Ataturk were reformers long overdue and their opposition to Pakistan is dictated by the lesson that the Muslim must give up his will to sovereignty and be content to live as a vanquished minority. Most recently. Western preaching has taken the line of ecumenism and the claim that Islam - without reform - is incapable of co - existence with other religions.

During the long period the Muslim countries were ruled by Europe، their educational systems fell completely under the sway of the conquerors who took great care that new generations would be thoroughly convinced of the invincible supremacy of modem Western civilization and taught them to despise all the cultural values Islam stands for. In this way European Masters successfully created within each Muslim country، their puppets. When politcal freedom was at last granted to the colonial possessions، the leadership automatically fell into the hands of this same westernized class which today dominates all Muslim countries. Their material support from the United States،، Great Britain، France and Russia. Whenever they achieve any particular are rewarded with encouraging pats on success، they the back.

Since the second world war، the orientalists and missionaries have shifted their efforts from trying to change individual Muslims and concert them to their views to changing Islam itself through providing it with a totally different interpretation and launching an organized movement for Its reconstruction from within.

الإسلام نفسه»[1].

Books and articles are regularly published on Islam and the arabs، that represent absolutely no change over the virulent anti Islamic polemics of the Middle Ages and Renaissance» (P.287)

❊ ❊ ❊

---

(1) Harry Dorman: Towards Understanding Islam P.I 25

يقول:: Harry Dorman

« If the missionary is to be sensitive to the attitudes of reverences and humility where ever they are already found، he must be no less sensitive to the various reform movements in Islam and be ready to cooperate with them whenever it is possible and suitable to do so.

Reform movements are earenest attemps to re - interpret religious teachings in the light of present experiences، or to interpret new experience in the light of religious teachings، and they are therefore of primary importance for the missionary. It is possible that one of these reform movements will have more significance for an eventual Muslim understanding of Christ than can now be imagined. K may even be that in the next few years، the chief contribution of the missionary in Muslim lands will not be so much the conversion of individual Muslims as the conversion of Islam itself. Here is a field of opportunity which cannot be neglected. An interesting line of investigation would be to study whether it is necessary for a Christian to love Muslims but hate Islam or it is possible to love Islam too and whether work for its regeneration.

«Almost all the recent works by orientalists have adopted this approach.lt is not surprising to find our own self - appointed reformers using the same methods».

صورة الإسلام
في الغرب في العصور الوسطى

نص من كتاب المستشرق: W. Montgomery Watt بعنوان: The Influence of Islam on medieval Europe [1].

أ - الدين الإسلامي أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة:

كان مفهوم الأوروبيين في العصور الوسطى عن العالم والإنسان والرب شديد الارتباط بمفاهيم الكتاب المقدس، بحيث لم يكن في وسعهم أن يدركوا إمكان توفر صياغات بديلة للتعبير عن هذه المفاهيم. وبالتالي فإنه كلما اختلفت تعاليم الإسلام مع تعاليم المسيحية، قيل: إن الأولى زائفة بالضروة.

ويمكن أن نضرب مثلًا للنبرة العامة في الفكر الأوروبي بصدد هذه النقطة فقرة واردة في كتاب القديس توما الأكويني «Summa Contra Gentiles». والأكويني كان من بين أكثر مفكري القرن الثالث عشر اعتدالًا ونبوغًا- فبعد أن تحدث عن الآيات والأدلة العديدة التي تؤكد صحة العقيدة المسيحية وتدعمها، نجده يصر على أن هذه الأدلة مفتقرة لدى أمثال محمد ممن أسسوا ما أسماه توما بالفرق[2].

بالإضافة إلى «المتع الجسدية» التي يبيحها الإسلام والتي تجذب الناس إليه، وسذاجة الأدلة والحجج التي جاء بها محمد، وخلطه الحق بقصص لا سند لها في التاريخ، وتعاليمه الزائفة، وافتقاره إلى المعجزات التي تؤيد زعمه أنه نبي.

(1) نشرته جامعة أدنبرة سنة 1972 وهو مجموع محاضرات واط في «الكوليج دي فرانس» التي ألقاها سنة 1970م، والترجمة العربية للأستاذ حسين أحمد أمين. طبعة دار الشروق بمصر.

(2) يقصد توما الأكويني أن محمدًا ﷺ، قد انشق عن المسيحية وأسس فرقة جديدة، وأن الإسلام كما يقول بطرس المحترم: «هرطقة مسيحية» يعني فرقة مسيحية مبتدعة وضالة.

ثم وصف أتباعه الأُوَل بأنهم «رجال لا علم لهم بالإلهيات، يعيشون في الصحراء حياة أقرب إلى الحيوانات» (وربما كان هذا الوصف منه بسبب قبولهم لأي زعم دون مناقشة أو تمحيص). ثم يضيف قوله إن هؤلاء الأتباع كانوا مع ذلك من الكثرة بحيث مكنوا محمدًا من إجبار الآخرين بالقوة العسكرية على اعتناق الإسلام. وذكر أنه بالرغم من زعم محمد أن الكتاب المقدس تنبأ بظهوره، فإن النظرة المدققة توضح أنه حرَّف كل شواهد العهدين القديم والجديد».

وفي حين قنع توما الأكويني والكثيرون غيره من الكتاب بالقول بأن محمدًا خلط الحق بالباطل، تمادى آخرون فادعوا أنه «حيثما قال قولًا سليمًا دس فيه السم الكفيل بإفساده» وبالتالي فإنه يمكن مقارنة أقواله الصادقة بالعسل الذي إنما أضيف ليخفي السم تحته. أو على حد قول أحدهم: «لاحظ في الكتاب بأسره دهاءه الرائع المتمثل في أنه كلما أراد أن يقول شيئًا شريرًا، أو يعيد إلى الأذهان شيئًا شريرًا ذكره من قبل، أسرع بإضافة كلام عن الصوم أو عن الصلاة أو عن حمد الله».

وإنما كان قصدهم من هذا الحديث في معرض رسمهم لصورة الإسلام: بيان تناقض هذه الصورة مع الصورة المسيحية. فقد ارتأوا أن الكتاب المقدس هو التعبير النقي الذي لا تشوبه شائبة عن الحقيقة الإلهية، وفي طياته شكل مطلق صالح لكل زمان ومكان. وقالوا إن التعاليم المسيحية تستهوي عقول الناضجين والمتعلمين والمثقفين، وأنها تجد في الشواهد التاريخية سندًا صادقًا يؤازرها.

ب – إن الإسلام دين العنف والسيف:

كنا قد ذكرنا عَرَضًا: أنه حتى العلماء من أمثال توما الأكويني كانوا يحسبون أن محمدًا إنما نشر الإسلام بالقوة العسكرية. كما كانوا يخالون أنه من بين تعاليم دين العرب الدعوة إلى «السرقة من أعداء الله ورسوله وأسرهم وقتلهم، واضطهادهم وهدمهم بأي صورة من الصور» (بدور دو الفونسو). بل لقد بلغ الأمر بأحد كبار المتحمسين المدافعين عن الحروب الصليبية، وهو Humbert of Romans إلى

حد قوله: «إن المسلمين شديدو الحماس لدينهم لدرجة أنهم يقطعون دون رحمة رأس أي مخلوق يهاجم هذا الدين في أي إقليم يسيطرون عليه».

والواقع أن الصورة الأوروبية للإسلام هي أبعد ما تكون عن الحقيقة، وقد بينا في الفصل الأول أن اليهود والنصارى وأتباع الديانات الأخرى التي يعترف الإسلام بها لم يخيروا بين الإسلام والسيف، وأن الذين خيروا بينهما هم عبدة الأوثان وحدهم، ولم نسمع الكثير عن حدوث هذا خارج شبه جزيرة العرب. أما النشاط الحربي للمسلمين، وهو الذي يملأ خبره كتب التاريخ، فإنما أدى إلى توسع سياسي، وجاء اعتناق الإسلام نتيجة للدعوة إليه أو نتيجة الضغط الاجتماعي.

وفي تلك الصورة للإسلام باعتباره دين عنف، ما يراد به الإيحاء بأنه مخالف تمامًا لصورة المسيحية باعتبارها دين سلام، انتشر عن طريق الإقناع، ومن أن يصدق الرجال المشتركون في الحروب الصليبية أن دينهم دين سلام، وأن دين خصومهم دين عنف.

وقد أدرك بعض الكتاب أن مفهوم دين السلام مثالي لا علاقة كبيرة بينه وبين الواقع وذهبوا إلى أن عدم مراعاة المسيحيين السيئين لهذا المثل الأعلى لا يشكل اعتراضًا مقبولًا على المسيحية. ويبدو أنهم فسروا هذا التناقض بذكرهم أن الغرض من الحروب الصليبية لم يكن إجبار العدو على اعتناق المسيحية بالقوة، وإنما كان – على حد تعبير توما الأكويني فيما بعد، منع الكفار من الوقوف حجر عثرة في سبيل العقيدة المسيحية. وربما كانوا يعنون أيضًا استرداد أراض يرون أنها حق المسيحيين.

ج – أن الإسلام دين يطلق لشهوات المرء العنان:

نظر الأوروبيون في القرون الوسطى إلى الإسلام على أنه دين يتيح الفرصة لإشباع الشهوات؛ خاصة الشهوة الجنسية. وكثيرًا ما كانوا يحسبون أنه لا حدود لعدد الزوجات التي يمكن للرجل الزواج بهن اللهم إلا قدرته على الإنفاق. بل إن هناك من الكتاب من كان يعلم أن الإسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربع نساء، وكتب مع ذلك

يقول إن الحد الأقصى هو سبع أو عشر!! وكثيرًا ما ترجموا آيات قرآنية توحي بمعنًى جنسيٍّ مُنفرٍ، والآيات بريئة من ذلك. بل لقد وجد واحد على الأقل من الكتاب آية قرآنية زعم أنها تبيح الزنى. ووجد آخرون متعة في مضاعفة التفاصيل الخاصة بالحياة الجنسية لدى المسلمين، وقيل إن أشكالًا حيوانية وغير طبيعية للاتصال الجنسي بين الزوجين يمارسها المسلمون بكثرة ويحثون عليها. بل ذهبوا إلى أن القرآن يبيح الشذوذ الجنسي. ورأى البعض ذروة الشذوذ الجنسية الإسلامية في التصوير القرآني للجنة، وتحدثوا طويلًا عن الحور العين اللواتي سيكن من نصيب المؤمنين فيها، ووجدوا في ذلك فضيحة أيما فضيحة. كذلك انتقدوا بشدة حياة محمد الزوجية، وإن كانوا كثيرًا ما بنوا انتقاداتهم على مبالغات أو مزاعم كاذبة.

ولبعض تفاصيل هذه الصورة التي رسمها أوروبيو العصور الوسطى أساس من الواقع. فللمسلم أن يتزوج من أربع نساء، بالإضافة إلى التسري بمن ملكت يمينه، وله أن يطلق امرأته دون أن يذكر السبب. ومع ذلك فالزواج والطلاق تحكمهما إجراءات شرعية دقيقة، ولا يَتِمَّان بطريقة عفوية. أما عن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية فثمة مجتمعات إسلامية شديدة التعفف، وقد تقتل الفتاة التي تلد مولودًا غير شرعي على يد أحد أفراد العائلة التي فضحتها بسلوكها. ويعاقب على الزنى بين متزوجين بالرجم (كما كان في الكتاب المقدس)، وإن كان توقيع العقوبة مشروطًا بشروط شرعية كثيرة تجعل من النادر حدوثه. فإن كان في الجنة كما وصفها القرآن حور عين أو أزواج مطهرة، فكثيرًا ما يذكر أن المتعة الكبرى هي رؤية وجه الله. وبالتالي فإن الصورة التي رسمت في العصور الوسطى للحياة الجنسية الإسلامية هي صورة زائفة في كثير من الوجوه.

كذلك رأى الأوروبيون المسلم مطلقًا العنان لشهوات أخرى. فالحياة الرغدة في أسبانيا وصقلية الإسلاميتين بدت في أعين العاجزين عن الاستمتاع بمثل هذه الكماليات حياة قائمة على إشباع الشهوات. وزعموا أن القرآن يعلم الناس أن ينقضوا

عهودهم متى كان في نقضها مصلحة لهم وأنه يذكر أن بوسع المرء أن يدخل الجنة دون أن يأتي بأعمال صالحة؛ ما دام قد نطق بالشهادة. وظنوا أيضًا أن إيمان المسلمين بالقضاء والقدر ليس إلا مبررًا لكسلهم وخوضهم الحياة على غير هدًى. وهنا أيضا تحوي صورة الإسلام مزيجًا من الحق والباطل، فالإسلام يهاجم الرهبنة، ولا يرى في العزوبة فضلًا كبيرًا. غير أنه في نفس الوقت يقر معظم الأشكال الأخرى للزهد. أما صوم رمضان ففيه مشقة عظيمة، ومع ذلك فلا تزال قطاعات كبيرة من سكان الدول التي يشكل المسلمون الغالبية فيها تلتزم به إلى يومنا هذا. ويوحي هذا المظهر من مظاهر الصورة الأوروبية عن الإسلام بأن العالم المسيحي يكبح جماح شهواته. فالمؤكد أن المثل المسيحي الأعلى هو الزواج من واحدة لمدى الحياة، بل وكان من الشائع الاعتقاد بأنه حتى في إطار الزوجية لا يمكن اعتبار الاتصال الجنسي خيرًا محضًا، إذ أن الهدف من القوة التناسلية هو إنجاب الأطفال لا اللذة. وسنذكر حالًا بعض الإيحاءات لهذه النقاط المثارة حول الشهوة الجنسية.

د - أن محمدًا هو المسيح الدجال:

لم يكتف بعض الدارسين الأوروبيين للإسلام بالزعم أن القرآن يحوي الكثير من الكذب، وأن محمدًا ليس بنبي، فقد تناول «بطرس المحترم» فكرة لبعض العلماء اللاهوت اليونانيين وهي: أن الإسلام هرطقة مسيحية[1]، وذهب إلى أن الإسلام أسوأ من هذا، وأنه من الواجب اعتبار المسلمين كفرة. وكان جوهر التفكير المسيحي في هذا الصدد، هو أنه حيث إن محمدًا ليس بنبي، وحيث إنه أسس مع ذلك دينًا جديدًا، فلا بد أنه ساهم إيجابيًّا في مساندة قوى الشر، ولا بد أنه كان إما أداة للشيطان أو عميلًا له. وبهذا جعلوا الإسلام والمسيحية على طرفي نقيض.

(1) أول من ذكر هذه الفرية: (الإسلام هرطقة مسيحية) هو يوحنا الدمشقي في القرن الثاني للهجرة.

الاستشراق والاستعمار

بعد أن قدمنا لمحة موجزة عن نشأة الاستشراق وصلته بمؤسسات التبشير ورجال الدين والحروب الصليبية، لا يسعنا إلا أن نلقي بعض الضوء على العلاقة الحميمة بين الاستشراق والاستعمار في العصر الحديث.

لم تنس أوروبا هزيمتها المنكرة في الحروب الصليبية، ورغم مرور القرون العديدة على أحداثها ووقائعها، حتى لاحت للغرب فرصته الذهبية في العصر الحديث، فانقض على الشرق الإسلامي المترنح - بفعل عوامل التخلف والانحطاط الثقافي والسياسي والعسكري والاقتصادي التي حاقت به وأحاطت - فوضع رقبة الشرق تحت قيده الغليظ، ومارس معه أبشع أنواع البطش، وأقسى صنوف الجبروت والطغيان والتشفي المرذول.

لم ييأس الغربيون بعد هزيمتهم في الحروب الصليبية، فراحوا يدرسون هذه البلاد في كل شئونها: من عقيدة ولغة وحضارة، وعادات وتقاليد وأخلاق؛ ليتعرفوا على مواطن القوة فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموها...، أي أن الاستشراق[1] قد أدى دورًا كبيرًا في التهيئة والتمهيد لاستعمار العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي.

ولما تم للغرب ما أراد، وسيطر على الشرق الإسلامي عسكريًّا، وسياسيًّا، هب الاستشراق للعمل على إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا؛ وذلك عن طريق التشكيك في فائدة ما بأيدينا

(1) أسهم كثير من المستشرقين - في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين - في تحقيق الأهداف الاستعمارية، ولا يزال بعضهم إلى اليوم يعمل في نفس الاتجاه؛ وذلك بإقرار المستشرقين بأنفسهم كما سنرى.

من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية؛ حتى نفقد الثقة بأنفسنا[1]، ونرتمي في أحضان الغرب... نستجدي منه المقاييس الخلقية والمبادئ الأيديولوجية، وبذلك يتم لهم ما يريدون في خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعًا لا تقوم لنا من بعده قائمة[2].

انظر إليهم كيف يشجعون – في بلادنا – القوميات التاريخية البائدة التي عفى عليها الزمن واندثرت منذ حمل العرب رسالة الإسلام، فتوحدت لغتهم وعقيدتهم، وثقافتهم، ومشاعرهم، وطموحاتهم وتطلعاتهم وبلادهم، وحملوا هذه الرسالة إلى العالم فأقاموا بينهم وبين شعوبه روابط إنسانية وتاريخية وثقافية، ازدادوا بها قوة، وازدادت تلك الشعوب بها رفعة هداية.

إنهم ما برحوا منذ نصف قرن أو يزيد يحاولون إحياء الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا ولبنان وفلسطين، والآشورية والمندائية والحرنائية في العراق، والبربرية في الشمال الإفريقي، وهكذا ليتسنى لهم تشتيت شملنا كأمة واحدة، وليوقفوا قوة الاندفاع التحررية عن عملها في قوتنا وتحررنا وسيادتنا على أرضنا وثرواتنا، وعودتنا من جديد إلى قيادة ركب الحضارة، والتقائنا مع إخواننا في العقيدة والمثل العليا والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة[3].

وقد كان للسيطرة الغربية على الشرق الإسلامي دورها في تعزيز موقف الاستشراق، بل قد تواكبت مرحلة التقدم الضخم– في مؤسسات الاستشراق وفي

(1) لقد صرح كثير من المستشرقين بهذه الحقائق..... انظر:

Dr. E. Said Orientalism

(2) يتفق الباحثون على ذلك... راجع ما كتبه د. إدوارد سعيد (الاستشراق) ص52، 73 ومواضع أخرى كثيرة؛ والدكتور زقزوق ص43، 48؛ والدكتور حسن حنفي في مقدمته لعلم الاستغراب والدكتور عرفان عبد الحميد 14 – 15، والدكتور قاسم السامرائي ص31 وما بعدها، والدكتور البهي ص30 والدكتور عبد الحليم محمود، ود. مصطفى السباعي.

(3) الدكتور مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص18.

مضمونه- مع مرحلة التوسع الأوروبي في الشرق[1]. ولأن الاستعمار التوسعي قد أفاد من الاستشراق فوائد جمة، عمل على تغذيته ورفع مكانته؛ ذلك أن الهدف الاستعماري لا ينفك عن الهدف الاستشراقي - غالبًا - في العصر الحديث.

نجح المستعمرون في توظيف المؤسسة الاستشراقية الغربية في خدمة أغراضهم وتحقيق أهدافهم، وتمكين سلطانهم في بلاد المسلمين... وقد نشأ رباط رسمي وثيق بين هاتين المؤسستين: مؤسسة الاستعمار، ومؤسسة الاستشراق. وقد خاض في هذا كثير من المستشرقين الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون عملهم «وسيلة لإذلال المسلمين، وإضعاف شأن الإسلام وقيمه» وهذا عمل يشعر إزاءه المستشرقون المنصفون بالخجل والعار؛ وفي ذلك يقول المستشرق الألماني المعاصر (استفان فيلد Stephan Wild) «... والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم، لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة[2]. ولا ننسى - في هذا الصدد - مواقف كبار المستشرقين وارتباط عملهم، وتسخير علومهم الاستشراقية في خدمة للاستعمار، ومنهم على سبيل المثال: المستشرق (كارل هينريش بيكر Karl Heinrich Becker) توفى 1933 مؤسس (مجلة الإسلام) الألمانية الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في إفريقيا. فقد حصل الرايخ الألماني في عام 1855 - 1886م على مستعمرات في إفريقيا تضم مناطق بعض سكانها من المسلمين، وظلت تلك المناطق تحت السيادة الألمانية حتى عام 1918م. وقد أدى ذلك إلى تأسيس معهد اللغات الشرقية في برلين عام 1887 وهو معهد كانت مهمته

(1) نقلًا عن الدكتور زقزوق في كتابه: (الإسلام في الفكر الغربي) ص60، وانظر كذلك: الفصل الأول Dr.A. Hourani. Islam in European Thought،

(2) رودنسون: (مقال في تراث الإسلام) لشاخت وبوزوورث، ترجمة د. زهير السمهوري، ح1، ص83، الكويت 1978، إدوارد سعيد ص225، د. زقزوق ص43.

تتلخص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية الحالية وعن شعوب هذه البلدان وثقافتها[1].

هذا عن نشأة معهد اللغات الشرقية في برلين لخدمة الاستعمار، وقد ذكرنا من قبل إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية وآدابها في جامعات أكسفورد وباريس وسالمنكة وروما لخدمة الأغراض التبشيرية[2].

وننقل عن المستشرق الإنجليزي (آرثر جفري آربري A. J. Arbarry) ما جاء في المذكرة التي رفعها جمع من العلماء سنة 1639 إلى المسئولين في جامعة كمبردج، والتي طلبوا فيها إنشاء كرسي للدراسات العربية بالجامعة: «يضع المركز نصب عينيه خدمة مصالح الملك والدولة، وذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وتوسيع حدود الكنيسة – إذا شاء الله – في الوقت المناسب، ونشر هدى الدين المسيحي بين أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة[3].

وهكذا تمتزج أهداف الاستشراق مع التبشير من جهة، ومع الاستعمار من جهة أخرى.

يقول المستشرق الألماني (أولريش هارمان Ulrich Harman): «كانت الدراسات (الاستشراقية) الألمانية حول العالم الإسلامي قبل عام 1919م أقل براءة وصفاء نية؛ فقد كان كارل هينريش بيكر – وهو من كبار مستشرقينا – منغمسًا في النشاطات السياسية، حتى أنه أصبح في عام 1914م شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في إفريقيا والهند كدرع سياسية في وجه البريطانيين»[4].

أما عن اعتماد (نابليون بونابرت) قائد الغزوة الفرنسية لمصر (1798 – 1801)

(1) انظر كتاب المستشرق رودي بارت ص31 – 32.

(2) Southern, R.W. P. 4

(3) A. J. Arbarry, The Cambridge School for Arabic, 1948 P 8.

(4) مقال عن الاستشراق، مجلة (الباحث) ص145، فبراير، 1983.

على جهود المستشرقين واصطحابه لهم، وأخذه بمشورتهم وتوجيههم، واستخدام معرفتهم وخبرتهم بالإسلام والمسلمين في الأغراض الاستعمارية لغرض السيطرة والتوسع فأمر معروف، يؤكد هذه العلاقة الآثمة بين المستشرق والمستعمر.

وإن المنشورات التي أذاعها نابليون على المصريين، وقد ملأها بالدجل والخداع والتغرير بالمصريين - قد صيغت من واقع خبرة المستشرقين ومعارفهم، وقد اعترف نابليون بذلك - في فخر وزهو - اعترافات لا تنقصها الصراحة، ولا تفتقر إلى الوضوح[1].

اعتمد نابليون على كثير من المستشرقين؛ من بينهم مونج ورجاله وفنتورا ومارسيل وسولكو فسكي والبارون دتوت وغيرهم.. ومما هو معروف عن نابليون أنه حاول استغلال (عقيدة القضاء والقدر) للتغرير بالمصريين وإيهامهم أنه إنما جاء تنفيذًا لقدر إلهي مسلط على المماليك - حكام مصر آنئذ - وأن الله قدر إنهاء دولة المماليك على يديه...، أكد هذه الفكرة الخبيثة في بيان العفو الذي أصدره عقب ثورة القاهرة الأولى سنة 1798م، حيث جاء فيه: «أيها العلماء والأشراف، أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره.. ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى. والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه...، وأن الله قدر في الأزل أني أجيئ من الغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أمرت به. ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه..»[2].

ويؤكد هذا المعنى محذرًا ومبينًا أنه سيأتي يوم يظهر فيه للناس «أن كل ما فعلته وحكمت بعه فهو حكم إلهي لا يرد، وأن اجتهاد الإنسان غاية جهده، ما يمنعه عن

(1) Albert Hourani : Islam In European Thought . Cambridge Univ. Press 1991 P. 15.

(2) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار طبعة القاهرة 1322هـ، وانظر: (بونابرت في مصر) تأليف كرستوفر هيرولد، الترجمة العربية لفؤاد أندراوس، والدكتور ألبرت حوراني: الإسلام في الفكر الأوروبي ص15، وقارن الدكتور عبد الحميد مذكور ص155 - 158

قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي». وقال نابليون في أحد منشوراته: «وأؤكد لكم، معاشر المصريين، أن الفرنسيين يعبدون الله أكثر من المماليك، كما أنهم يجلون الرسول، والقرآن الكريم،.. وأن الفرنسيين مسلمون خُلّص»[1].

هكذا فقد أراد نابليون بعقيدة القضاء والقدر - وهي عقيدة حق وأصل من أصول الإيمان- باطلًا وزورًا، وإنما زين له ذلك بعض المستشرقين الذين سخروا علومهم في خدمته.

كما عمل المستشرق النمساوي Alfrid Von Kramer المتوفى 1889م مستشارًا للامبراطورية النمساوية وخدمها مدة ثلاثين سنة في مصر ولبنان ومناطق أخرى[2].

وكذلك فقد كلفت الحكومة الروسية المستشرق (بارتولد Bartold) مؤسس مجلة (عالم الإسلام) - المتوفى سنة 1930 - الروسية بالقيام ببحوث عن الإسلام والمسلمين تخدم مصالح السياسة الروسية في آسيا الوسطى.

أما المستشرق العتيد عالم الإسلاميات الهولندي (كرستيان سنوك هورجرونيه) المتوفى سنة 1936م فقد وضع نفسه وعلومه الاستشراقية في خدمة الاستعمار الغربي... وفي سبيل الوصول إلى الأهداف الاستعمارية تسلل إلى (مكة المكرمة) متجسسًا وقضى بها وقتًا غير قليل. والثابت تاريخيًّا أنه قد أظهر الإسلام احتيالًا، واستمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة، ثم في إندونيسيا (التي تحتلها هولندا) طيلة حياته..، ومما لا شك فيه أنه كان بارعًا في تمثيل الدور على كثير من المسلمين الذين منحوه الحب فخانهم. مكث هذا المستشرق قرابة ستة أشهر في مكة، متخذًا اسم (عبد الغفار)، وصار يختلف إلى مجالس العلماء وشيوخ التعليم في مكة المكرمة، فوطَّد علاقاته معهم، ومع علماء جاوه وسومطره وأجى؛ ممن كانوا يختلفون إلى مكة... ويتوقع صديقنا الدكتور قاسم السامرائي أن يكون الشيخ المفتي

---

(1) ألبرت حوراني: ص36.

(2) المرجع السابق.

أحمد بن زيني دحلان قد أجازه وزوده برسالة توصية لعلماء (أجى) لتتم بها خطة سنوك في إندونيسيا وخاصة في إقليم (أجى) الذي كان ثائرًا على الحكم الهولندي[1].

يرى المستشرق (فاندر مولن) أنه حتى لو اعترفنا أن «سنوك هورجرونيه» كان يكن الاحترام للإسلام فإن سياسته الاستشراقية كانت تعني رفض محتوى الإسلام السياسي، وإبداله بقوانين (العادات) كما جاء في التقرير المشهور السيئ السمعة الذي قدمه سنوك للحكومة الهولندية (لتبرير) الحرب الدموية التي شنتها ضد إقليم أجى الأندونيسية، والتي قادها الجنرال هوتش بإرشادات سنوك (وعلمه العظيم وأحكامه الفائقة التي استغلت للأغراض العملية) كما يقول فوخل... ولذا لقب الجنرال بأنه (سيف سنوك الضارب) لأنه أباد قرى بكاملها: برجالها ونسائها وأطفالها...، معتمدًا على خبرة سنوك.

ويؤكد (فوخل) أن هدف سنوك الحقيقي مكة نفسها: المركز الديني للعالم المحمدي. أما (فرانك شرودر) فيقول: «لقد زار المدينة المقدسة (مكة المكرمة) كثير من المغامرين المتنكرين، وبعض ذوي المعرفة، بيد أن سنوك كان بلا شك أحسنهم تجهيزًا، فقد عاش حياة مسلم تحت اسم عبد الغفار.

ولم تكن دراسة الشريعة الإسلامية عند سنوك إلا لأغراض عملية، وتعني هذه الأغراض العملية؛ توظيف العلم بالشريعة لخدمة أغراض الاستعمار والتمكين له. وقد بين سنوك ذلك عندما كتب تعريفًا لكتاب المستشرق (سخاو) سنة 1899م، فقال: «الشريعة في وضعها العملي، كان عليها أن تقدم تنازلات هائلة

---

(1) يقول الدكتور قاسم السامرائي (وهو خبير بمستشرقي هولاندا لأنه يعيش منذ أمد بعيد بين أظهرهم حيث يعمل في جامعة لايدن): كل من كتب عن كرستيان سنوك من مستشرقي هولاندا، كال له المديح وغرف له الثناء... يقول (دريفس): إن دراسة سنوك الرائدة للشريعة الإسلامية وما يعنيه الإسلام في حياة أتباعه جعلته واحدًا من مؤسسي علم الإسلاميات الحديث. «وقال فرانك شروردر: «لقد صار سنوك خبيرًا بالشريعة الإسلامية... وقد أخذ على عاتقه مهمة تصحيح الآراء الخاطئة» وقال فادر مولن: «إنه البطل المكافح، وأنه قدم نفسه فداءً للمسيح».

لعرف وتقاليد الناس واستبداد حكامهم. ومع هذا فقد احتفظت بتأثير واسع المدى على حياة المسلمين؛ لذلك كانت ولم تزل لنا موضوعًا مهمًّا للدراسة؛ لا لمجرد الأسباب المتعلقة بتاريخ الشريعة والحضارة والدين، ولكن لأغراض عملية؟!. وكلما ازدادت صلات أوروبا الودية مع الشرق الإسلامي، ازداد معها وقوع الأفكار الإسلامية تحت سيطرة أوروبا..، كلما أصبح الأمر مهمًّا لنا نحن الأوروبيين، كي نكون على معرفة بالحياة الفكرية ومفاهيم الإسلام وشريعته الدينية»[1].

فمعرفة الشرق الإسلامي عند سنوك – حسب تعبير إدوارد سعيد – إما أن تزيد أو تعمق الخلاف الذي بواسطته تستطيع السياسة الأوروبية أن تمتد على آسيا الإسلامية[2].

وفي تقرير (أجى) غير المنشور الذي كتبه سنوك – حث الحكومة الهولندية الاستعمارية على استبعاد إقليم أجى، لأن احتلاله سوف (يزيل من الوسط الإسلامي كراهية كل شيء، غير إسلامي، ومن ثم فإن سكانه سوف يقبلون ما يملي عليهم من المفاهيم الأوروبية التي ترفع من شأنهم؛ لأن العقيدة الإسلامية تحث على كراهية الكافر لتعصبها». وفي مكان آخر يقول: إن الشريعة الإسلامية مثالية توجد في المدارس فقط، وليس لها تأثير في الحياة العامة.

وقد تقمص (سنوك) شخصية كاتب من (جاوة) وأخذ يرى المسلمين في إندونيسيا كيف ينبغي أن يكونوا.. وهذا في سلسلة مقالات أبدى فيها سنوك الوجه الاستعماري سافرًا... ومما جاء فيها: «لم ألق إلا في النادر أناسًا من أهل بلدنا أندونيسيا من كان يرى أننا جديرون بأن نتخلص من وصاية الأوروبيين التي فرضها الله علينا. وكان من خطته «ربط المستعمرات الهولاندية في إندونيسيا بروابط ثقافية بأوروبا، ومن ثم فإن هذه الروابط تسلب «كل خلاف ديني من أهميته السياسية والاجتماعية» وقصد سنوك – كما هو واضح – أن إحلال ثقافة أوروبا محل الإسلام[3]، يسهل التبعية السياسية والدينية.

(1) د. قاسم السامراني: مرجع سابق ص111، 113.

(2) A. Hourani. P. 42، E. SaJd. PP. 255 - 56

(3) د. قاسم السامراني ص109 وانظر د. زقزوق ص45، 46 إدوارد سعيد ص256.

وهذا الإنكار لدور الشريعة السياسي والثقافي والاجتماعي نراه واضح المعالم في كتابات معظم المستشرقين وفي كتابات تلاميذهم الشرقيين. ومن المعروف أن سنوك هذا كان زميلًا وصديقًا حميمًا للمستشرق اليهودي (إجناس جولدزيهر) 1850 – 1921. هذا ويؤكد المستشرق (رودي باريت) ما ذكرناه بشأن وضع المستشرقين خبرتهم وعلومهم تحت تصرف السلطات الاستعمارية الغربية، فيذكر أن سنوك هورجرونيه قد شغل عدة مناصب قيادية في السلطنة الاستعمارية الهولندية، وأوتي بذلك– فيما أوتي – فرصة معرفة العرف السائر بين المسلمين هنالك معرفة وثيقة[1].

وفي فرنسا كان زعماء المستشرقين مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمال إفريقيا؛ فقد شغل المستشرق المعروف (دي ساس) منصب المستشار المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية. وعندما غزا الفرنسيون الجزائر سنة 1830 كان دي ساس هو الذي ترجم البيان الموجه إلى الشعب الجزائري وكان يستشار بانتظام في جميع المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزيري الخارجية والحربية منذ 1805م.

وإلى عهد قريب كان المستشرق الذائع الصيت (لويس ماسنيون) مستشارًا للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الشئون الإسلامية..[2]. وزيادة في التضليل والخداع والتمثيل زعم أنه قد أسلم، وتسمى بـ (عبده محمد ماسنيون)، وقد كتب – فيما كتب – خطابًا إلى الشيخ محمود شكري الآلوسي عام 1932م، ومهره بهذا التوقيع[3] ويشير الدكتور حوراني إلى أهمية موقع ماسنيون بين المستشرقين قائلًا: «لقد مارس ماسنيون بأصالة أفكاره، وقوة ذهنه تأثيرًا عميقًا

(1) رودي بارت ص31 وانظر الدكتور غراب «رؤية إسلامية للاستشراق».

(2) إدوارد سعيد ص146، 221

A. Hourani, PP. 43 - 48.

(3) مجلة المورد الصادرة عن المجمع العلمي بدمشق عدد 21، 1975 ص176، عن الدكتور صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ط دار الآفاق.

على الدراسات الإسلامية في فرنسا، بل وفي تشكيل نظرة الغربيين إلى الإسلام، ولقد كان المستشرق الوحيد الذي يمثل رمزًا للاستشراق كله في وقته. ويذكر حوراني كذلك: أن هذا المستشرق الكبير كانت له في شبابه اتصالات سيئة السمعة بسلطات الاستعمار؛ مثل معظم المستشرقين في جيله:

«In his earlier years, he had bad connections,like most of his generation, with the Imperial mission of France».

ويحكي ماسنيون عن نفسه أنه قد اعتقل سنة 1908م في بغداد بتهمة التجسس ضد الدولة العثمانية، وهدد بالحكم عليه بالإعدام؛ وأنه حاول الانتحار. لكنه في أخريات حياته انتقد الاستعمار الفرنسي وسياسته الرامية إلى الجموح الدنيوي المادي... إلى الفهم.. وإلى الغزو.. وإلى الاستيلاء والتملك «Our secular rage to Understand، to Conquer، to Posses»[1].

وفي مقال للمستشرق الفرنسي وزير الخارجية (هانوتو) ت 1944م بعنوان: «قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية) يكشف فيه بوضوح عن مقترحاته لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها الإفريقية الإسلامية، وما تهدف إليه هذه المقترحات من إضعاف المسلمين في عقيدتهم حتى يسهل قيادهم[2]. هذا ومن المستشرقين الذين شغلوا مناصب في وزارات المستعمرات والخارجية الغربية إلى جانب دي ساس وماسنيون، جب، ونيكلسون، ومرجليوث، وجويدي، ونيللينو، وبرنارد لويس، وماكس ميلر، وروث بنيدكت وغيرهم[3].

---

(1) Dr. Albert H., Islam in European Thought, PP. 43 - 48.

وانظر المقالة المفصلة التي كتبها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (شخصيات قلقة في الإسلام) بعنوان (لويس ماسينون حياته وابحاثه) وهو من أهم ما كتب عن ماسينون بالعربية، وانظر بحث R. casper بعنوان: اتجاهات معاصرة في دراسة التصوف الإسلامي، في كتابنا عن التصوف.

(2) د. مدكور ص159 د. البهي ص30.

(3) د. زقزوق ص16.

وفي أوائل هذا القرن العشرين كان اللورد كيرزن Curzon من أشد المتحمسين في إنجلترا لفكرة إنشاء مدرسة للدراسات الشرقية باعتبارها تعد جزءًا ضروريًّا من أسس الأمبراطورية، كما أنها تعمل على الاحتفاظ بالموقع الذي نالته بريطانيا في الشرق.. وقد تحولت إلى مدرسة جامعة لندن للدراسات الشرقية والإفريقية فيما بعد.

ومعروف أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات الاستشراقية، وإلى آرائهم يرجعون قبل أن يتخذوا القرارات الهامة في الشئون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية. ويذكر الدكتور إبراهيم اللبان أنه سمع أحد المستشرقين يتحدث أمامه فيذكر أن (مستر أيدن) كان قبل أن يضع قرارًا سياسيًّا في شئون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرر ما يقرر في ضوء ما يسمعه منهم، هذا إلى جانب أن بعضهم كان يؤسس صلات صادقة بالبارزين من رجال الأمة العربية، ويتخذ من هذه الصلات ستارًا يقوم من ورائه بأعمال التجسس في أثناء الحرب[1].

كانت العلاقات إذًا عميقة بين المؤسسة الاستعمارية والمؤسسة الاستشراقية...، فقد كان الاستشراق بمثابة الدليل للاستعمار في ربوع العالم الإسلامي؛ بغرض فرض السيطرة الغربية عليه وإخضاعه وإذلال أهله.. وقد عمل الاستشراق- قبل فرض هذه السيطرة بالفعل- على إضفاء طابع التبرير العقلي والخلقي للسيادة الاستعمارية، ثم اتجه بعد أن تمت هذه السيطرة إلى خنق روح المقاومة في نفوس المسلمين والعمل على تشكيكهم في عقيدتهم وتراثهم، وإشعارهم بالتدني والانحطاط والافتقار؛ حتى يتمكن الاستعمار من طمس الهوية الذاتية الإسلامية، وإخضاع المسلمين نهائيًّا وكليًّا للثقافة والحضارة الغربية.

وغاية ما يقال هو أن أفكار بعض المستشرقين والمستعمرين كانت تسير في طريق واحد.. هو طريق العمل على إضعاف القيم الإسلامية، عن طريق شرح

(1) د. إبراهيم اللبان «المستشرقون والإسلام» ص18 عن الدكتور زقزوق ص47.

تعاليم الإسلام ومبادئه شرحًا يضعف في المسلم تمسكه بالإسلام، ويقوي في نفسه الشك فيه كدين، أو على الأقل كمنهج سلوكي يتفق وطبيعة الإنسان العصرية.. وهذا يكشف الروح الصليبية في دراسة الإسلام سافرة رغم محاولة التخفي تحت عباءة البحث العلمي ودعاوي خدمة التراث الإنساني المشترك، وخدمة الأهداف والغايات الإنسانية المشتركة.

إن الأفكار الاستشراقية والأهداف الاستعمارية تتلاقى وتتمازج وتنصهر معًا؛ وعلى سبيل المثال فإن فكرة إبعاد الإسلام عن التأثير في مجال العلاقات بين الأفراد فكرة استشراقية استعمارية.

– وإن فكرة توقيت الجهاد بعهد الرسول ﷺ وعهد صحابته فحسب، أو فكرة إلغائه اليوم فكرة استشراقية استعمارية.

– وفكرة أن الظروف الدولية تدعو المسلم إلى الولاء لغير المسلم، وفكرة أن الإسلام – كدين – يتعدد بتعدد شعوبه وأجناسه، وبتعدد مصادره، وفكرة أن الإسلام دين فردي شخصي لا يصح أن يتدخل في علاقات الناس والدول، كلها أفكار استشراقية استعمارية. وتأسيس مبدأ الإسلام في عدن زواج المسلمة بغير المسلم على فكرة العنصرية، ومبدأ الجهاد في سبيل الله على نزعة الميل إلى الاعتداء والغزو...– وأمثال ذلك هو كثير جدًّا– من صنع الاستعمار والاستشراق معًا[1].

وقد عمل الغرب على إرسال رسله من المستشرقين ليبثوا هذه الأفكار ويقنعوا بها المسلمين عن طريق التدريس المباشر في المدارس والمعاهد والجامعات التي أسست في البلاد الإسلامية، وعن طريق البحوث والدراسات والمقالات والكتب التي تنشر، والمؤتمرات التي تعقد، وفي وسائل الإعلام المختلفة.. ولقد درَّس في جماعة القاهرة في بداية نشأتها عدد من كبار المستشرقين، كان من بينهم على

(1) قارن الدكتور البهي ص52، 534، د. زقزوق ص18، إدوارد سعيد ص68، 70 والدكتور عبد الحميد مذكور ص160 – 162 والدكتور غراب: الاستشراق (رؤية إسلامية)، نشر أكسفورد.

سبيل المثال لا الحصر كل من (ماسنيون) و (بريهيه) و (نيكلسون) و (الكونت دي جلارزا) و (جون آرثر أربري) و (ليفي برفنسال) و (سانتلانا) و (اسرائيل ولفنسون) و (كارلونللينو) وغيرهم. وقد نجح بعض المستشرقين – مع وسائل أخرى – في صياغة عقول ووجدانات بعض الباحثين الذين حملوا أفكارهم وتحمسوا لها، وأشاعوها، وربوا المريدين والتلاميذ على نشرها والاستماتة في الدفاع عنها.

أعتقد أن أمر العلاقة الوثيقة بين الاستشراق والتبشير منذ النشأة الأولى، ثم بين الاستشراق والاستعمار– إبَّان الانطلاقة الكبرى في الأنشطة الاستشراقية – أضحت بينة جلية موثقة بتواتر شهادات المستشرقين أنفسهم، وباستقراء واقع الحال كما يقال. وقد شكلت هذه الدوافع الأساسية مناهجهم التي سلكوها، وأثرت في القضايا التي طرحوها، والمقدمات التي رتبوها، وأخيرًا على النتائج التي أرادوها واستخلصوها. ويسترعي إدوارد سعيد النظر إلى أن هذه العلاقة لم تنته بعد، بل كل ما هنالك أن المجال لم يعد حكرًا على المستشرقين، بل ينافسهم فيه اليوم نظم وشركات ومصالح ومؤسسات تعليمية وتبشيرية ومراكز ومعاهد ومنظمات إلخ وهي جميعًا مكرسة لتأكيد شرعية عدد من الأفكار الأساسية غير المتغيرة حول الإسلام والشرق وعلاقته بالغرب. وتسهم هذه جميعًا في تشويه صورة الشرق– والعرب خاصة– في أوروبا وأمريكا، وتظهرهم في صورة بشعة يتصفون فيها بالخيانة والسادية والمتاجرة في الرقيق، وأن العربي وغد لئيم، شهواني خبيث، عدواني إرهابي... إلخ[1].

(1) Edward Said. Orientalism. PP. 286 – 288.

المستشرقون...
والقرآن الكريم

معروف أن أول ترجمة غربية للقرآن الكريم كانت إلى اللغة اللاتينية، وقد تمت بإشراف رئيس دير كلوني Cluny الراهب بطرس المحترم سنة 1143م، ومعروف أن الكنيسة قد حاربت هذه الترجمة اللاتينية- رغم ما فيها من نقص وتشويه متعمد- لأنها خشيت أن تعرِّف الأوروبيين بعض الحقائق عن الإسلام؛ وهذا يضعف مقاومتها للإسلام.. وقد أخفيت هذه الترجمة في دير كلوني بجنوب فرنسا إلى سنة 1543م حيث أظهرت، وطبعها لأول مرة تيودور بيلياندر، ثم اعتمدت على أنها الأساس الذي يترجم عنه إلى اللغات الأوروبية.

ثم عاودت الكنيسة تضييقها على هذه الترجمة، وأمر البابا (بولس الثالث) بإتلاف الترجمة التي نقل عنها (باجانيني).. ولم تصرح الكنيسة بطبع ترجمة للقرآن إلا في عهد البابا (ألكسندر السابع) 1555 - 1567م[1]. ومما يذكر هنا أنه رغم ركاكة هذه الترجمات، وبعد أصحابها عن الأمانة العلمية، وتصرفهم في النصوص، وتحريف الكلم عن مواضعه، والقصور الفاضح في فقه اللغة العربية

(1) د. صالح البنداق، مرجع سابق ص95 وما بعدها. ومعروف أن السريان قد ترجموا بعض آيات القرآن في بعض مؤلفاتهم، منها: ما كتبه (بار الصليبي) الذي كان معاصرًا للحجاج، ومنها بعض المؤلفات التي تعود إلى خلافة هشام بن عبد الملك، كما أن (ابن الصليبي مطران ديار بكر) قد نقل آيات كثيرة من القرآن الكريم في كتاب جدلي من ثلاثين فصلًا (كتاب الجدل) وهو مخطوط في بطريركية السريان في بيروت. ويذكر فيليب دي طرزي في دراسة له عن القرآن نشرت في مجلة المجمع العلمي بدمشق ص416 - 488 سنة 1363 - 1943م أنه قد أطلع على ترجمة كاملة للقرآن الكريم إلى السريانية قام بها تخمينًا - باسيل مطران الرها قبل سنة 642هـ. كل هذا قد أسهم في تشكيل معابر لنقل صورة ما عن القرآن الكريم إلى الغربيين.

والجهل بأسرارها، نجد هؤلاء المستشرقين المبشرين يجيزون لأنفسهم إصدار أحكام على لغة القرآن وأسلوبه وبيانه ومعانيه.

لم يقف المستشرقون عند هذا الحد، لكنهم شككوا في مصدر القرآن الكريم، وقدحوا في صحته، ورموه بالتناقض والاضطراب والتحريف، ثم تكلموا في تفسيره، وزادوا ونقصوا ورجحوا وافتعلوا، ومن الغريب أنهم – مع ذلك – حذروا الغرب من خطورة هذا القرآن على مصالحهم وديانتهم، لأنه قادر على بعث النهضة الإسلامية الشاملة والوحدة الرائعة، والعزة والمنعة بين المسلمين.

❋ ❋ ❋

مصدر القرآن

بذل المستشرقون جهودًا مضنية في محاولة إثبات أن مصدر القرآن لم يكن الوحي، وأنه من تأليف محمد ﷺ، وأنه- ﷺ- قد لفق مادة القرآن من عناصر الثقافة السائدة في البيئة العربية وقتئذ. كما أفاد من كتب اليهود والنصارى، واستعان برهبان النصارى وأحبار اليهود في تأليفه أو تلفيقه.

يحدد المستشرق الألماني J. Fueck في بحث متميز، على حد تعبير المستشرق الفرنسي M. Rodinson [1] طبيعة المشكلة قائلاً: «على كل حال لقد أصبح النظر في عدم أصالة الإسلام واعتماده على الأديان السابقة موضة (Vougue) بين عموم المستشرقين..[2].

ويقول يوهان فوك: «لقد فقدت دراسات المستشرقين الكبار صلتها بأفكار القرآن المتميزة والرصينة، وارتضت باجترار البحث في تبعية كل جزئية قرآنية- بصرف النظر عن كونها فكرة دينية، أو تعبيرًا، أو مصطلحًا، أو حقيقة تشريعية، أو قصة، أو موضوعًا، أو كلمة مفردة، أو أنماطًا متنوعة من التراكيب- وإرجاعها إلى مصادرها في الأديان السابقة، كلما كان ذلك ممكنًا؛ بهدف شطر الصورة الحية المتكاملة للرسول والقرآن إلى ألف نتفة وجذاذة».

ولقد اعترض المستشرق السويدي Tor Andrae على هذا الاتجاه الاستشراقي المتشكك في أصالة القرآن، وقال في سخرية لاذعة: «كأن المهمة الكبرى للمستشرقين الدارسين لشخص الرسول؛ هي محاولة فهم كيف أن الرسول- بتأثير روح البيئة المحيطة- قد لفق أو زور (Forged) أشتاتًا عديدة شديدة التنافر في كل واحد، هو القرآن[3].

(1) M. Rodinson: A Critical Survey of Modern Studies on Muhammad (هامش) P.62
(2) J. Fueck, The originality of the Arabian Prophet, PP. 86 - 89 Oxford Univ. Press, 1981
(3) TorAndrae, Muhammad the Man and his Faith, New York, 1936.

ويؤكد J. Fueck على الأثر السلبي للمستشرقين فيما يتعلق بهذا الموضوع على تصور الغرب للإسلام وكتابه ورسوله قائلًا: «لقد صبغ الجدل المضاد للإسلام- في الغرب- صورة محمد بلون حالك السواد، ولقد طغت أحكامهم على المجال كله، ولقد أضاف مستشرقو القرن التاسع عشر لحنًا جديدًا إلى عزف هذه الجوقة، وذلك بتأكيدهم على تبعية الرسول محمد واعتماده على الأديان السابقة الموحى بها».

ثم يشرح J. Fueck جهود مستشرقين في هذا الصدد هما (W. Ahrrens) و (C.C. Torry) قائلًا: «... بالرغم من ذلك فإنهما قد رجعا إلى الطريق الاستشراقي القديم لانتقاص أصالة الرسول بكل سبيل ممكن من أساليب المجادلة والاستنباط، عازمين على إرجاع المباديء الإسلامية بشكل كلي إلى الأديان التوحيدية السابقة، سواءً أكانت يهودية أم نصرانية. ولقد رأى Torrey أن محمدًا لم يكن أكثر من تلميذ أو حواري في المجمع اليهودي Synagogue.

أما Ahrrens فقد كان مقتنعًا تمامًا بأن التأثير النصراني كان طاغيًا على محمد، وأن محمدًا كان نتاجًا للتأثيرات التي تجمعت عليه، وقد خضع محمد للتأثير النصراني عليه منذ البداية، وطوال الفترة المكية من الرسالة وما بعدها. ثم وافق على ترتيب «نولدكه» للقرآن طبقًا لنزوله، وليس طبقًا لما هو موجود في المصحف اليوم.

يقول (فوك) عن (أهرينز) «إن موقفه كمجادل مسيحي - ينساق وراء رد الفعل الغاضب مرة والآسف مرة أخرى - ظاهر بوضوح».

ولقد أثار كلاهما (Torrey) و (Ahrrens) مسألة غريبة؛ هي أن الرسول ﷺ قد غير بعد هجرته إلى المدينة ما كان قد بشر به في مكة، وأنه بهذا غير مبادئه، ويفسر (Torrey) ذلك بأنه أنانية، لا يفهم حقيقة أسبابها[1]، أما (Ahrrens) فيرى أن ذلك

(1) C.C. Torrey, The Jewish Foundation of Islam, New York, 1933.

كان انتهازية سياسية تسمح بالحل الوسط من أجل المطامح الدنيوية»[1].

ويؤكد (فوك) رأيه قائلًا: «هذه المحاولات تريد أن تمزق القرآن – فيما يتعلق بأصوله ومصادره – إلى عدد لا حصر له من أحجار الموزايكو الصغيرة والتي لا توجد رابطة داخلية تجمعها أبدًا...» ثم يناقش هذه المحاولات واحدة تلو الأخرى في بحث متميز كما وصفه مكسيم رودنسون.

ويلقي M. Rodinson بعض الضوء على هذه القضية قائلًا: «قد اهتم المستشرقون في هذه الفترة ببحث مسألة التأثيرات (الواقعة على الإسلام من الديانات السابقة).. وتلك الدراسات التي أكدت على التأثير المسيحي على الإسلام، كانت منساقة وراء الدراسات التي أكدت على التأثير اليهودي على الإسلام، التي بدأها الحاخام اليهودي المستشرق Rabbi Abraham Geiger وقد استمر هذا الاتجاه على يد C.C. Torrey وآخرين.. كما خصصت دراسات مهمة لدراسة الأثر اليهودي المسيحي على القرآن في القصص والمفاهيم. والدراسات من هذا القبيل في غاية الأهمية والضرورة، لأن الإسلام لم يولد في أنبوب مغلق.. في بيئة معقمة ضد جراثيم الأيديولوجيات المعاصرة له، كما يتخيل ذلك المؤلفون المسلمون، وآخرون معينون.

ولقد أخذت هذه البحوث تترى، متجاهلة تمامًا التعريف بأصالة الإسلام[2]. والأمر الذي لا جدال فيه أن دراسة التأثيرات الأجنبية على الإسلام لا تفسر بشكل تام نشأة هذا الدين ولا ديناميته الخاصة به... وبعد كل ذلك: فإن محمدًا لم يصبح يهوديًّا ولا نصرانيًّا »[3]. ويشير رودنسون إلى تواطيء المستشرقين اليهود والنصارى

(1) K. Ahrrens، "Christishes in Quran" ZDMG 84.1930.

(2) ما عدا بحثين للمستشرقين Von Grunebaum تناول فيهما أصالة القرآن وانتقد التيار الاستشراقي العام الرامي إلى سلب القرآن أصالته.

(3) Maxime Rodinson، P. 25. مرجع سابق.

على جعل مصادر الإسلام في اليهودية والنصرانية[1].

While recognizing the extensive nature of Jewish Influence،" come to the conclusion that it was Christianity that was the decisive factor in the Rise of Islam" P.61

والغريب أن هؤلاء المستشرقين قد رددوا افتراءات مشركي مكة التي تخرصوا بها من قبل؛ وقد زعموا أن القرآن: ﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾[2]. وأنه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[3]، وأنه: (قول ساحر أو كاهن)[4]، أي أن القرآن ليس وحيًا أنزله الله على محمد، وأن محمدًا لم يكن رسولًا من عند الله.

وتأمل ما تخرص به (جورج سيل George Sale) في مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم التي صدرت عام 1736م: «أما أن محمدًا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح- مع ذلك- أن المعاونة التي حصل عليها من غيره، في خطته هذه، لم تكن معاونة يسيرة... وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك»[5].

وقد صادفت هذه المقدمة التمهيدية للترجمة التي جزم فيها (جورج سيل) بتأليف محمد للقرآن نجاحًا عظيمًا في أوروبا؛ الأمر الذي أدى بمستشرق آخر هو (كاسمير سكى) أن يتخذ من مقدمة (سيل) نفس مقدمة ترجمته الفرنسية لمعاني القرآن الكريم التي صدرت عام 1841. وقد بقيت هذه المقدمة مصدرًا موثوقًا للمستشرقين يتوارثون مزاعمها، ويلوكون افتراءاتها دونما نقد أو تمحيص.

(1) P.61

(2) سورة الفرقان 4.

(3) سورة الفرقان 5.

(4) الحاقة 41 - 42.

(5) د. زقزوق، د. قاسم السامراني، د. صالح البنداق، د. التهامي النقرة و د. حوراني.

في الواقع، إن المستشرقين أجهدوا أنفسهم في البحث عن مصدر مزعوم للقرآن الكريم، فقال إبراهام جيجر (Abraham Geiger): إن محمدًا قد اطّلع على كتب اليهود بالعربية والآرامية[1].

وقال ريتشارد بل R. Bell مترجم معاني القرآن: إن النبي ﷺ قد اعتمد في كتابه على الكتاب المقدس (أسفار العهد القديمOld Testament) في قسم القصص؛ فبعض قصص العقاب مثل قصص عاد وثمود، مستمد من مصادر عربية، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها، قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية... وقد كانت فرصته في المدينة للتعرف على ما في العهد القديم أفضل من وضعه السابق في مكة؛ حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية في المدينة، وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل[2].

ولو راجعنا قائمة الكتب والبحوث التي أصدرها المستشرقون عن القرآن، لرأينا على سبيل المثال – العناوين التالية، وهي كافية لإبراز هذا الاتجاه الاستشراقي العداوني تجاه القرآن الكريم:

- راهب بحيرا والقرآن: كراديفو 1898م.
- السامريون في القرآن: جوزيف هاليفي 1908م.
- ترجمة القرآن وفقًا لترتيب نزول الآيات تاريخيًّا؛ روديل 1876م.
- أسماء الله الحسنى ومصادرها الشرقية في القرآن؛ السير أدوين أرنولد 1884م.
- التوراة في القرآن: فايل 1835م.

---

(1) Translated into English under the title "Judaism and Islam" Madrass, 1898.

وله كتاب

The Jewish Foundation of Islam " :

(2) R. Bell, The Quran, Translated with a Critical Rearrangement of the 1937 - surahs, Edinburgh.

- بحوث جديدة في ترتيب القرآن الكريم وتفسيره، هير شفيلد 1902م.
- عيسى في القرآن: جروهمان 1914م.
- النصرانية واليهودية في القرآن: بو مشتارك 1953م.
- الألفاظ الأجنبية في القرآن: جيفري 1938م.
- عناصر نصرانية في القرآن: أرنيز 1935م.
- القصص الكتابي في القرآن: شباير، 1939م.
- محمد والقرآن: واختندونك، 1969.
- القرآن: الإنجيل المحمدي: سترستين 1918م.
- من أبرز من اشتهر بدراسة القرآن وعلومه من المستشرقين: (نولدكه) و (بلاشير) و (جيفري) و (جولدزيهر) و (أربري).

ولقد تعمد أكثرهم إنكار المصدر الإلهي للوحي، وقالوا إنه من تأليف محمد أو من تلفيقه. ولقد أظهروا جهلًا فاضحًا بحقيقة الوحي خارج الطرق الكسبية للعلم، وفوق الإلهامات النفسية الذاتية، وخلاف ما هو مقرر في علم النفس وسير الأبطال والعظماء، وبعيدًا عن الأعراض الباثولوجية التي يصاب بها أفذاذ الرجال كما يزعم (جولدزيهر)، وعن الهوس أو الجنون الذي يضرب بنوباته قادة الأمم العظام كما يذكر (جوستاف لوبون)[1] أو اللاوعي الجمعي كما يرى وليام منتجمري واط.

أما (إجناس جولدزيهر) فينسب المعرفة اللدنية التي تلقاها محمد إلى عنصرين: داخلي وخارجي، يقول: «... تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثرًا عميقًا، والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة، وهذه

(1) انظر بحث التهامي النقرة في كتاب (مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية) ج1 ص31، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج.

التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في وجدانه- ضرورية لإقرار لون من الحياة في اتجاه يريده الله..، لقد تأثر بهذه الأفكار- تأثرًا وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيًا إلهيًّا»[1].

ويصف الدكتور ألبرت حوراني أجناس جولدزيهر بقوله: «ولربما كان المستشرق اليهودي المجرى إجناس جولدزيهر أعظم وأهم مستشرق أسهم في تكوين التصور الاستشراقي الغربي عن الإسلام وتطوره وطبيعته كنظام ديني وثقافي»[2].

ويتحدث بلاشير عن مصدر القصص القرآني مشيرًا إلى أن الأمر اللافت للنظر هو التشابه الحاصل بينه وبين هذا القصص اليهودي والمسيحي. ويرى أن التأثير المسيحي كان واضحًا في السور المكية الأول، إذ أن كثيرًا ما تكشف مقارنته بالنصوص غير الرسمية (كإنجيل الطفولة)[3] الذي كان سائدًا في ذلك العهد عن شبه قوي، ويعرض في هذا الصدد آراء بعض الباحثين، مؤكدًا رأيه فيما كان من علاقات وروابط بين مؤسس الإسلام والفقراء المسيحيين بمكة. وهذا يعني – في التحليل الأخير – أن مصدر القرآن والسنة هو الرسول، ﷺ[4].

وإنا لنعجب مع الدكتور التهامي النقرة ونقول: لعل أول ما يبعث على التساؤل حول

(1) العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة ج. محمد يوسف موسى وزميله، ص12، 1948م.

(2) Albert Hourani, Islam In European Thought, P 36.

(3) النصوص الرسمية هي التي اعتمدها مشايخهم بعد جدلٍ وأخذٍ وردٍّ في مجمع نيقية وما تلاه من مجامع، ويطلق عليها (العهد الجديد – New Testament) وهنالك عشرات الأناجيل والرسائل التي كانت متداولة ومنتشرة قبل سنة 325م لكن الكنيسة حرمتها وحظرت تداولها، وأمرت بإحراقها وتشددت في تعقب من يقرأ في أي منها.. وقد اكتشف العلماء مؤخرًا مجموعات من مخطوطات ولفائف تضم تلك الأناجيل والرسائل،منها مجموعة لفائف نجع حمادي في صعيد مصر، والبهنسا، ومجموعة Revealed Secret Says of Jesuse،Lost Bool-sof Bible، (Eden) انظر لنا كتاب (في مقارنة الأديان) نشرة 1986م، وما بعدها.

(4) Blachere: the Problem ofMuhammed, P. 60 ,1952.

هذه الأفكار الرائجة في أوساط المستشرقين، والغربيين عمومًا أن القرآن والحديث لو كان مصدرهما هو محمد، فبم يفسرون ذلك الفرق الكبير والبون الشاسع بين القرآن الكريم والحديث في الصياغة وأسلوب العرض وطريقة الأداء ومنهج التعبير؟!![1].

ومن الخيال المريض الذي يؤدي إليه سوء الطويَّة وفساد الفطرة، ما زعمه المستشرق (كليمان هوار Hauar) من أنه وجد مصدرًا جديدًا للقرآن – غير ما ذكره أقرانه – هو شعر أمية بن أبي الصلت (شاعر مخضرم كان يبشر بقرب ظهور نبي جديد، ولما بعث محمد ﷺ كفر به حسدًا من عند نفسه، وقال عنه الرسول ﷺ: آمن لسانه وكفر قلبه)[2]. قارن المستشرق (هوار) بين شعر أمية وآيات من القرآن الكريم، محاولًا أن يثبت فريته.. ومما يجدر ذكره أن الدكتور طه حسين قد رد على المستشرقين ثقتهم المطلقة في شعر أمية وتشككهم في القرآن الكريم؛ فقال: «والغريب في أمر المستشرقين – في هذا الموضوع وأمثاله – أنهم يشكون في صحة السيرة النبوية نفسها، ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود؛ فلا يرونها مصدرًا تاريخيًّا صحيحًا، وإنما هي عندهم – كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعًا – طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق، ليمتاز صحيحها من منحولها.. هم يقفون هذا الموقف العلمي من السيرة، ويغلون في هذا الموقف، ولكنهم يقفون من أمية وشعره موقف المتيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق، ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة. فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون الآخر؟ أيكون المستشرقون أنفسهم لم يبرؤوا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات؟!»[3].

وعن التأثير النصراني المزعوم في القرآن الكريم يذكر المستشرق (رودي بارت): «لقد

---

(1) التهامي النقرة، ص32.

(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص429 مصر 1364هـ.

(3) طه حسين: في الأدب الجاهلي ص143 القاهرة 1958م.. وقد رأى بعضهم في أبيات منحوله لامرئ القيس مصدرًا آخر من مصادر القرآن بزعمهم. وقد ناقش الأستاذ العقاد هذا التخرص ودحضه في (إسلاميات) العقاد ص51 – 53 ط الشعب.

كانت معلومات الناس في مكة - في عصر محمد - عن النصرانية محدودة وناقصة، ولم يكن النصارى العرب سائرين في معتقداتهم في الاتجاه الصحيح، ولهذا كان هناك مجال لظهور الآراء البدعية المنحرفة ولولا ذلك لما كان محمد على علم بأمثال تلك الآراء التي تنكر صلب المسيح، وتذهب إلى أن نظرية التثليث النصرانية لا تعني: الأب والابن وروح القدس، وإنما تعني: الله وعيسى ومريم. وعلى أية حال فإن المعارف التي استطاع محمد أن يجمعها عن حياة المسيح وأثره كانت قليلة ومحدودة، بيد أنه كان محمد يعرف الشيء الكثير عن ميلاد عيسى وعن أمه مريم. وما يقصده (بارت)- فيما يرى الدكتور زقزوق- واضح، هو أن المعلومات التي وردت في القرآن عن النصرانية وعن المسيح وأمه، كانت المعلومات الشائعة آنذاك، وهي إما خاطئة أو محدودة، فمحمد إذًا، هو مؤلف القرآن[1].

ومما يجدر ذكره أن الفكرة الغربية عن الإسلام والقرآن معًا، وأنهما تلفيق وتزوير للتوراة والإنجيل وأن عملية التلفيق هذه قد تمت بمعاونة راهب آريوسي كان يعلم محمدًا- ﷺ- سرًّا... إن هذه الفكرة قد بثها القديس يوحنا الدمشقي، وسرعان ما انتشرت في الغرب، وقد ربط بعض المستشرقين بين هذا الراهب وبين بحيرا، بعد أن ترجمت سيرة ابن إسحاق، فنسجوا حوله الأساطير، وحول علاقته السرية المزعومة بالرسول الكريم[2].

(1) الإسلام في الفكر الغربي ص67 - 68، الاستشراق ص85 للدكتور زقزوق.

(2) شكل نصارى اليونان والعرب الذين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية، في سوريا ومصر والعراق وغيرها- رافدًا مهمًّا في صياغة الرؤية الغربية المبكرة للإسلام والقرآن... وقد تسنم بعض هؤلاء مناصب عالية في الدولة الإسلامية، مثل يوحنا الدمشقي وتلميذه تيودور أبو قرة ويحيى بن عدي وغيرهم.

وقد كان (يوحنا الدمشقي) خصوصًا و (عبد المسيح بن إسحاق الكنديالمجهول النسبة) من أهم الذين ساعدوا على تشكيل وخلق بعض مفاهيم الغرب الأولى عن الإسلام. كتب (يوحنا الدمشقي) كتابه (Dialexis) وأراد أن يكون نوعًا من وسائل الجدل بين النصارى والمسلمين.. وكان (يوحنا) أول من استخدم علم الكلام في أجوبته عن الأسئلة التي أثارها، فأحدث ما يسمى عند المبشرين «Dialogue» وقد صب هجومًا عنيفًا على الرسول الكريم، واتهمه باختلاق الوحي لإشباع رغباته الدنيوية، فأصبح هذا الاتهام المحور التقليدي لجميع كتابات القرون الوسطى ومن كتابات (يوحنا)

يقول بيدو باسكال: «لقد جاء في كتب المسلمين أن راهبًا مسيحيًّا اسمه كما يقولون هم: بحيرا، وهذا هو الذي حذر عم محمد من اليهود، وأن هذا الراهب المرتد هو الذي يتعلم منه محمد تعاليمه، وقد ذكروا في كتبهم أيضًا أن محمدًا كان يعتزل الناس في تلال مكة، وهذه تدل على أنه كان يعد عدته مع هذا الراهب النصراني المرتد- في السر- لتهيئة تفاصيل هذا التزوير[1].

وقد اختلط (بحيرا) هذا، عند كثير من الكتاب بجريج الراهب أو جرجيوس، ومع هذا الاختلاط فإنه نال حظًّا وافرًا من الإهانة والتجريح الشائن عند بعضهم، والمديح والثناء من الآخرين، وكلا الفريقين برر موقفه.. فإن شاءوا جعلو منه قديسًا وحبرًا كاثوليكيًّا مخلصًا علم محمدًا الدين الصحيح، إلا أن محمدًا حرف تعاليم الراهب. وإن شاءوا جعلوا منه مرتدًا يبطن اليهودية والزندقة، ولذلك استعمل محمدًا للحط من دين روما؛ حقدًا وكرهًا للبابا... وإن شاءوا جعلوه نسطوريًّا جاهلًا وزنديقًا معًا[2].

جاءت قصة زينب وزيد، فأفاض الخيال والحقد عليها ما شاءا من تفسيرات واستنباطات، فتضافر البغض والشنآن على نسج قصة دونها مغامرات الشعراء والروائيين... ومن (يوحنا) جاءت فكرة الغرب عن الإسلام والقرآن، وأنهما تزوير وتلفيق للتوراة والانجيل كما ذكرنا في المتن، ولمزيد من التفاصيل حول يوحنا الدمشقي واثره راجع المصادر التالية:

- الاستشراق للدكتور قاسم السامرائي ص54، - الاستشراق للدكتور زقزوق، جارديه والأب جورج قنواتي: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية ج2 ص32 - 48 - د. عرفان عبد الحميد ص11، - د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، نجيب العقيقي: المستشرقون ج1 ص72، - دي بور - تاريخ الفلسفة في الإسلام ص8 هامش، توماس أرنولد. الدعوة إلى الإسلام ص103، الإمام محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ص157 وله تاريخ الجدل كذلك، - المؤرخ خريسو بابا دوبولوس: تاريخ كنيسة أنطاكية ص556 ترجمه الأسقف استفان حداد، وانظر الكتاب الذي صدر في الذكرى المئوية الثانية عشر لوفاة يوحنا الدمشقي (المطبعة اليسوعية 1950)، وانظر الدكتور كمال اليازجي: يوحنا الدمشقي وآراؤه اللاهوتية ومسائل علم الكلام. منشورات النور، 1984. ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين، - وانظر بحثنا عن (يوحنا الدمشقي) في كتابنا (مقارنة الأديان) ج2.

(1) Islam and the West, P. 235.

(2) عن الدكتور قاسم 55 ورغم تضخيم المستشرقين لأثر مقابلة بحيرا للرسول ﷺ في الشام، فإنه لا

وقد تغلغل هذا الاتجاه العجيب في العقلية الغربية إلى أبعد حد، واقرأ إن شئت ما كتبه المؤرخ اليوناني المعاصر (الدكتور خريسو بابا دوبولوس) أستاذ التاريخ في جامعة أثينا[1]. فإنه يسأل:

ما هي العلاقة الشخصية الدينية لمحمد بالمسيحية والمسيحيين؟

ثم يجيب:

إن الرأي الذاهب إلى أن محمدًا بعد أن صار مسيحيًّا انقاد إلى تأسيس مذهب خاص من أجل وحدة عربية لا يقوم عليه دليل. ولكنه بدون شك عندما ظهر كرسول لله ونبي، وكان متدخلًا في علائق مع المسيحيين وعارفًا بالتعليم اليهودي والمسيحي، ألف الديانة الجديدة من الأفكار الدينية القديمة عند العرب، وخلطها مع عناصر التعليم اليهودي المسيحي، قال القديس يوحنا الدمشقي حين سمع بالإسلام الجديد: الإسلام بدعة مسيحية، وإذا كان محمد مرتبطًا خصوصًا مع مسيحي حِمْير: وعلى الأخص مع أهل مدينة نجران التي كانت فيها المسيحية مزدهرة.. وكان مسيحيو نجران وباقي المسيحيين العرب في أكثريتهم (مونو فيزيت)، ولكن دخلت إليه أفكار (بزليانس اليكارنسوس)... وهذه قبلها محمد- فيما يتعلق بشخص يسوع المسيح، وصيغت هذه الأفكار في الكتاب المقدس للديانة الجديدة... وعرف محمد مؤسس الإسلام كثيرًا من المسيحيين، ففي سن حداثته حين كان يأتي مع القوافل من مكة إلى سوريا مرارًا... وبعد ذلك وفي مكة نفسها، عندما تزوج بالأرملة الغنية خديجة، وكان قد ورث مسيحيًّا قبطيًّا عند ابن عمه علي، وعهد بصنع سقف الكعبة المقدسة إلى نجار مسيحي اسمه بخوميس (بقوم) حيث كان يوجد الحجر الأسود،.... ويذكر وجود تجار يونانيين في مكة...

يوجد سند صحيح لتلك الرواية... ويذكر المستشرق (هوارت) بأنه لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها، ونشرت، وبحثت منذ ذلك الوقت بأن ترى في الدور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسج الخيال... (انظر للدكتور محمد عبد الله دراز: مدخل ص134 هامش (1).

(1) تاريخ كنيسة أنطاكية، ترجمة الأسقف أسطفانوس حداد، نشر مكتبة النور، بيروت ص526 - 529.

وكان أحد ممولي محمد الأولين مسيحيًّا اسمه سعيط بن سنان... وكان بعض أفراد قريش مسيحيين... وكان أحدهم ورقة بن نوفل... حتى قيل إنه كان كاهنًا... وكان عم خديجة امرأة محمد... وكان ورقة يعرف اللغة اليونانية واللغة العبرية، وقد ترجم عدة أسفار من العهد القديم وقسمًا من الإنجيل... وكان له تأثير كبير على محمد... وجماع القول أنه كان يوجد عدد كبير من المسيحيين في مكة ومدن أخرى من الجزيرة العربية، وكذلك كان يوجد يهود في مكة، وعرف محمد قس بن ساعدة الشاعر والخطيب المعروف الذي كان أسقف مدينة نجران...»

لا ريب أن التعصب المقيت قد أعمى هؤلاء وأصمهم؛ إذ لو كان صحيحًا أن محمدًا ﷺ قد لفق القرآن والإسلام من أشتات الثقافة والعقائد العربية، ومزج بينه وبين ما تعلمه عن اليهودية والنصرانية، لوجد اتفاق وتطابق، أو على الأقل توافق وانسجام في العقائد والتشريعات والمعاملات والعبادات والأخلاق التي قررها وبين عقائد اليهود والنصارى ومشركي العرب والوثنية اليونانية والرومانية والهندية والبابلية والمصرية القديمة... وبما أن الإسلام قد جاء بعقيدة التوحيد الخالص التي تصادم تمامًا العقيدة النصرانية، والتجسيم اليهودي، وكذلك الحال بالنسبة للعبادات والأخلاق والتشريعات في المعاملات فقد جاءت مخالفة لها على الإجمال والتفصيل... فلا مجال إذًا لمثل هذه الدعوى المتهافتة الساقطة[1].

---

(1) أما ما رأيناه من استمداد اليهودية والنصرانية من الوثنية القديمة ومن الفلسفات الإغريقية والرومانية، ومن العقائد والطقوس الوثنية المنتشرة في مصر والإمبراطورية الرومانية وسوريا وبابل وغيرها، فهو صحيح للاتفاق التام والانسجام الدقيق بين ما جاء في هاتين الديانتين، وتلك الفلسفات والعقائد الوثنية، وأجلاء علمائهم قد أقروا بهذه الحقيقة الناصعة انظر في ذلك على سبيل المثال:

- شارل جنبير أستاذ تاريخ الأديان في جامعة باريس: (نشأة المسيحية وتطورها) ترجمة الإمام عيد الحليم محمود، نشرة دار المعارف.
- العلامة جيمس فريزر: (الفلكلور في العهد القديم) ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار المعارف
- المؤرخ ول ديورانت: (قيصر والمسيح) في قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران Judaism

كما أن مشركي العرب لم يوجهوا لمحمد ﷺ تهمة استمداد القرآن من اليهود والنصارى، ولو رأوا شيئًا من ذلك ما قصروا في التشنيع والتشغيب؛ لأنهم زعموا أن الذي يعلمه عبد رومي كان يصنع السيوف بمكة ولم يكن نصرانيًّا أو يهوديًّا، ودحض القرآن زعمهم، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

هذا ولم يكن محمد ولا قوم محمد يعلمون شيئًا من هذه المعلومات التي قد يكون لها ذكر في أسفار اليهود والنصارى، يقول عز من قائل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾[2]، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[3].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[4].

وحتى لا نطيل في هذا الأمر نقول: إن كثيرًا من المستشرقين – متأثرين بدوافعهم الدينية والاستعمارية... ومتجردين عن الموضوعية والحيدة والنزاهة العلمية، قالوا: إن مصدر القرآن لم يكن الوحي الإلهي..، ومن ثم فهو وضع بشري ألفه وزوَّره محمد ﷺ من روافد يهودية ونصرانية، أو من أخلاط الثقافة السائدة، أو من شعر أمية وامرئ القيس... إلخ.

---

and Hellenism، By Hengel، Scmpress، London، 1974 The Myth of God Incarnate. edited by Johu Hick، Scm، 1988 – العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، الطاهر التنير البيروتي، بتحقيقنا وتعليقنا، نشر دار الصحوة. وانظر بحثنا عن هذه المسألة في الجزء الثاني من كتابنا (في مقارنة الأديان) وبحث تلميذنا وهيب البكري عن بولس في كلية الدعوة والإعلام بالرياض.

(1) سورة النحل 103.

(2) سورة هود 49.

(3) سورة يوسف 102.

(4) سورة آل عمران 44.

ومما يثير الأسف حقًّا، أن أمثال هؤلاء المستشرقين قد أسهموا بمثل هذه المفتريات إسهامًا فاعلًا في تشكيل العقل الغربي، وصياغة الشعور الغربي وإثارته وتعبئته ضد الإسلام والقرآن؛ مما تسبب في حرمان معظم الغربيين من نعمة النظر الحر، والتدبر الصادق...، ورؤية الحق فيما يتعلق بالإسلام دونما تأثر بهذه الموروثات الثقيلة.

وننقل في هذا السياق اقتباسات من كتب بعض المستشرقين المعاصرين البارزين بألفاظها وحروفها؛ يسأل المستشرق اليهودي Goitein عن المصادر التي تعلم منها الرسول ﷺ القرآن الكريم، ويذكر أن القرآن قد أشار في أماكن عديدة إلى رجال كانوا يعلمون الرسول ﷺ؛ فمن هؤلاء المعلمون، ولماذا يبقي من الصعب جدًّا أن نجد حلًّا لهذه المشكلة؟، ويذكر أسبابًا لذلك منها:

أن القرآن يحتوي على نصوص وأفكار كثيرة يمكن أن يكون قد قلد فيها اليهود أو المسيحية...، كما أن موسى وقصته قد ذكرا في القرآن أكثر من مائة مرة بينما ذكر عيسى أربع مرات فقط في الفترة المكية من الرسالة (انظر كلامه في الحاشية)[1].

(1) S.D. Goitein. Jews and Arabs: Their Contacts Through the Ages : New York 1955. PP. 52 - 58.

يقول جويتين:

'All this leads us to the great question: which religion or wich sect served Muhammad as his immediate model or, since the Koran alludes in various places to persons who instructed the Prophet, who were these teachers? Why is it so difficult to find a solution to this problem?

The main reasons are :

The Koran contains a huge mass of material which can traced to both Jewish and Christian sources. This is true only of biblical and apocryphal literature with which Muhammad might have been acquainted through Jewish and Christian channels but it also holds good for elements from the Jewish liturgy and lore which had found their way into Christian circles very early.

Moses is the predominant figure in the Koran. I would not like to too much empha-

ويلخص المستشرق Goitein مسألة أصل الإسلام قائلًا: «إنه من صميم لحم وعظم اليهودية[1]: «Islam، however، is from the very flesh and bone of Judaism»

---

sis on the quantitative aspect although lay it is impressive enough; compared to Jesus who is mentioned only four times in the Koran during the Maccan, that is, the formative period of Muhammad's career, Moses', name occurs there more than a hundred times. Much more important is the fact that the stories about Moses are not confined to certain chapters, but prevade the whole Koran and the idea of Moses, the Prophet with a Book, possessed Muhammad to such and extend that he immediately proceeded to produce a divine book of his own.

Although the general trend of Muhammad's ascetic, piestic religiousity with its dominant note of dread of the iminent Day of Judgment seems to be more akin to Christian monastic piety than to rabbinic Judaism, the way out of the difficulty created by this apparently contradictory evidence, seems, to be the simple assumption that the group of Jews who, we may suppose influenced Muhammad's beginnings, although they were basically ordinary Orthodox Jews, had themselves come under the influence of monastic piety and adopted some of its practices and also, some of its literature. To be sure, most, if not all of the ingredients of monastic piety which found their way into the Koran were already present in some form in early Judaism. Vigils are mentioned several times in the Book of Psalms and played a very important role in the life of the community of the Dead Sea Scrolls. In Talmudic times, however, study at night took the place of the nighly prayer. Prostrations were a characteristic feature of Jewish worship up to the second century. Later this practice was discouraged by the rabbis precisely because it was so conspicuously preached by the monks.

The solution I venture to propose for the question concerning the identity of Muhammad's mentors seems also to be the most plausible explanation of the undiluted and uncompromising attitude on monotheism maintained. This cannot be explained by his natural disposition or influence by monotheists of such desctiption - namely, Jews.

In conclusion, I wish to say this: Whether the solution I have proposed here for the problem of the origin of Islam accepted or not, one thing is beyond doubt: the battle which Muhammad so gloriously and so easily won over his Arab compatriots had been decided many centuries before on the hills of Judea."

(1) المرجع السابق ص129.

ولإثبات ذلك يعقد مقارنة طويلة مفتعلة بين الإسلام واليهودية[1]. أما

(1) المرجع السابق 59 – 60 ويقول جويتيين:

If, as we have seen, there is a very close connection between Muhammad's creation, the Koran and the religion of Israel, there is an even more amazing affinity between the fully developed systems of the two religions. A comparison between the rabbinical Judaism of the Talmud and the classical Islam of the orthodox jurists is extremely the main characteristic features of their systems are identical or almost identical. Arabic, Shariah:

1. Islam, like Judaism is a religion of Halakha, in that is God - given law which regulates minutely all aspects of life: law, worship, ethics and social etiquette. Halakha - Sharia is the very essence and core of both religions.

2. This religious law is based on the Oral Tradition called in Arabic, Hadith and in Hebrew by words of identical meaning which interprets and supplement in the written law, in Arabic, Kitab and in Hebrew, Torah the - Bikhtav which comes from the same root - word.

3. The oral tradition foils into two parts, one legal in the widest sense of the word and the other moral. In both Muslim and Jewish literature, they assume the same form of loosely connected mazims and short anecdotes.

4. Although the Muslims had a State when they created their religious Law, and although they had contact with the organized Christian churches, their Sharia like the Jewish Halakha, was developed by a completely free and unorganized republic of scholars. Rulers in classical Islam might make decisions in regard to the special cases but they never created or officially promulgated laws on their own. Nor did Islam ever have a hierarchy of religious dignitaries who decided questions while sitting in official synods or councils as was the practice of the Christian churches.

5. In both Judaism and Islam, the religious law took its final shape in the form of different schools or rites which originally represented the most widely accepted decisions or usages of one country like the Jewish rites of Palestine and Babylonia or Medina or Iraq with the conception common to both religions was that these schools and rites were all equally orthodox.

6. The logical reasoning applied to the development of the religious law is largely identical in Islam and Judaism which could not but have been the

المستشرق المعروف Montgomry Watt فلا يزال مغرمًا بترديد تلك القصة المدسوسة؛ أعني قصة الغرانيق، وتأسيس نتائج عليها، كما لو كانت أمرًا مسلمًا لدى الثقات من علماء المسلمين[1].

result of direct connetion.
7. The study of even purely legal matters is regarded in both religions as worship. The holy men of Islam as in Judaism are not priests or monks but students of the divinely - revealed law. Thus the Ulema in Muslim community occupy the same functions as the rabbis among Jews.
8. Muslim religious law developed mainly In Iraq, the chief centre of Jewish studies at that time. (PP. 59 - 60)

(1) يقول Watt:
" There was some difficulty to begin with over the pagan shrines other than the Ka'abah. The story of the "satanic" evidence for this. Muhammad, It is reported, inspiration is the once received what he thought to be a genuine revelation which ran as follows :
Have you considered al - Lat and ul - Uzza,
And Manat, the third, the other?
These are the fods to be exalted,
Whose intercession is hoped for.
This delighted the pagan meccans for they took it as an aknowledgement of the worship of their pagan shrines.......Later, however, (though it is not certain how much later), Muhammad realized that the third and fourth verses were not a genuine revelation but had been suggested to him by Satan and that the true continuation of the first two was:
Have you the male issue and He the female
In that case, H. isa divisioin unfair,
They are nothing but names which you and your
fathers have given.......
This naturally annoyed the pagans who had been delighted by the previous version. The point to note is that Muhammad did not at first see any incompatibility.
Presumably he thought that these three dieties, each of which had an im-

ثم يقدم «واط» نصيحة بأن على الإسلام إن يقبل ويقر بالحقائق حول أصوله، ويوضح قصده بقوله أن على الإسلام أن يعترف بالتأثير الواقعي للموروثات الدينية اليهودية والمسيحية، والموروثات الثقافية السورية والعراقية والمصرية القديمة على بنائه؛ وفي هذه الحالة يقبله الغرب ولا يرفضه[1].

---

portant shrine in the Meccan region. were something like angels.

The whole incident is interesting and impotatnt. however. and shows that the Muslims decided and only gradually which animistic practices were compatible with montheism and which were not. One aspect of the Arab outlook made it easy for Islam to incorporate practices which had originally been aministic. a practice could be regarded as commanded by God and human beings did not seek reasons for God's commands.

Thus the sanctuary at Mecca was sacred beause God had so decreed; the circumambulation of the Ka'abah was obligatory for Muslims because God had so decrewed and so on with many other rituals which came to form part of the Pilgrimage.

When one looks at the details of what later became established Muslim usage one finds vestiges of animism omnipresent.

M.Watt. Islam and the Integration of Society. London. 1961.PP 188 - 189

(1) المرجع السابق ص283، يقول واط:

"The obstacles seem almost insuperable. All the distorted ideological conception which have been noted would require to be corrected.

ISLAM WOULD HAVE TO ADMIT THE FACTS OF ITS ORIGIN _ the historical influence of the Judaeo - Christian religious traditions and the cultural traditions of Syria. Iraq and Egypt.This would lead to a revised conception of the relative importance of religious and cultural factors in the growth of Islamic civilization. It would have to be prepared to learn. even in the religious sphere.from Christian and hard. It would have to look again at the Jews and that would be very centuries in which it thought of itself as the community in whose life the history of mankind was consummated and realize that whatever the future may bring. its rule during some of those centuries was much humbler. would have to distinguish more radically. than has hitherto

ويتحدث **Philip K. Hitti** في كتابه:

(Islam and the West، An Historical، Cultural Survey (Princeton، New Jersey، 1962، PP. 14 - 16)

فيلخص مسألة أصل الإسلام والقرآن بأنها يهودية مسيحية عربية حيثية، ويحاول– ما وسعته المحاولة– أن يستدل على ذلك بحجج مفتعلة وأمور مختلفة[1].

---

been done، between the essential principles of its divinety - given code of conduct and the temporary applications and work out fresh applications to novel circumstances، (p. 283).

(1) يقول فيليب حتى:

The sources of the Koran are unmistakable - Christian، Jewish and Arab heathen، Hijaz itself had Jewish but no Christian colonies، but had Christian slaves and merchants، It was surrounded by centres whence Christian ideas could have radiated into it.The Prophet had two Abyssinan slaves، his muezzin Bilal and his future adopted son، Zaid. He also had a Christian wife،Marya the Copt as well as a Jewish one.Safiyah bor n to one of the Medinese tribes he desroyed. Drawn second - hand from heresay، the Koranic material does not distinguish between what is canonical and what is not. In the story of Joseph، for Potephar's wife invites to a party those women whose instance. tongues were wagging about her affair with Joseph' and when their eyes fall on him، the knives in their hands fall on their wrists rather than the fruit they were eating. Jesus speaks unto mankind in the cradle and fashions out of clay، a living bird which has a parallel in the apocryphal Gospels of Infancy، Jesus' crucifixion is disclaimed but not his ascension. Not only is his virgin birth accepted but his mother's seems to have some superhuman feature where، however ، she is confused with Mary، the sister of Aaron. Another confused biblical character is Haman. the favourite of the biblical Ahaseuerus who is made the Minister of Pharoah. More serious than such slips are verses reflecting the weak spots of Muhammad's career and character. Surah 33 verse 37 was revealed to justify Muhammad's marriage to the wife of his adopted son. Zaid، Surah S3، verses 19 to 23 were revealed to withdraw an earlier recognition of three Meccan goddesses as Intercessors with God.

Only part of his revelations were recored in his lifetime; the Text was not finally "canonized" until A.D. 651. The miraculous character of the Koran relates not only

ويثير المستشرق Gibb مسألة غريبة تتعلق بنقد القرآن وامتحانه في ضوء المقاييس النقدية المتطورة، وفي رأيه أن المسلمين فعلوا ذلك بشأن الحديث النبوي؛ بيد أنهم لم يطبقوا هذه المقاييس النقدية على القرآن الكريم ليستوثقوا هل حقًّا هذا القرآن هو كلام الله الموحى به، يقول Gibb:

In contrast to the Hadith, the Quran itself has remamed almost intouched by any breath of evolutionary Criticism. Only a few Indian liberals and still fewer Arab socialists have yet ventured to question that the Quran Is the literally inspired Word of God, and that its every statement is eternally true, right and valid[1]

وبعد: فقد يُظن أن المستشرقين قد انفصلوا عن «عصر الجهالة» كما يسميه (ساوذرن)، وأقلعوا عن (موضتهم) في دراسة مصادر القرآن لإثبات عدم أصالته كما ذكر ذلك (يوهان فوك)، ومما يؤسف له أن بعضهم لا يزال يكرر في استسلام غريب تلك الدراسات غير العلمية، وفي دراسة حديثة جدًّا يعقد المستشرق M. Cook فصلًا في كتاب له بعنوان (محمد) للبحث في مصادر القرآن يستهله بقوله: «لكي نفهم ماذا فعل محمد لخلق ديانة جديدة، فإن من الضروري أن نعرف المصادر الدينية التي كانت متاحة له، وفي أي صورة كانت... ويرى أن التأثير اليهودي في القرآن بدا واضحًا في القصص القرآني وفي المصطلحات الدينية... ويذكر أن عناصر قرآنية أخرى مسيحية الأصل دون ريب؛ والمثال الواضح على ذلك ما جاء في القرآن عن حياة

---

to origin and contents but to form. How could an unschooled man produce such a work that is not only insuperable but inimitable. Even if men and jinn were to collaborate, they could not produce the Like of it, Muhammad was authorized by God to challenge his critics to produce even one comparable Sura. (X:39) the challenge - as expected - was never successfully defied. Especially when chanted does this holy book seem to exercise by virtue of Us rhyhm and rhetoric, a quasi - hypnotic effect upon its hearers even though they but dimly understand its meaning. The impact is more on the emotion and imagination than on the intellect, (pp.14 - 16).

(1) H. A. R. Gibb, Modem Trends in Islam, New York, 1972. P. 50.

عيسى، وأسطورة أهل الكهف، وغير ذلك من الأمثلة التي يمكن ذكرها. وهناك التأثير المسيحي اليهودي (أي المسيحيين الذين من أصل يهودي Judeo – Christians.. ويرى «ميشيل كوك» أن هذه الجماعة المسيحية اليهودية كانت موجودة في فلسطين في القرن السابع الميلادي، وأنها أثرت على الإسلام بلا شك.

ويذكر أن القرآن قد استمد كذلك من الوثنية العربية بعض الشعائر مثل شعائر الحج، وأن القرآن قد استمد مسألة الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها من الوثنيات السابقة، وبالذات الإغريقية[1].

ولقد درس «هنري لامانس» مصادر القرآن بطريقة متجافية عن الحق ومستدبرة أصول البحث العلمي، حتى إن المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون لم يملك إلا أن ينتقده بشدة قائلًا:

«لقد شعر كثيرون من بينهم أنا شخصيًّا بنفس الشعور الذي عبر عنه جولدزيهر نفسه (ورواه لي الراحل ماسنيون في خطابه المؤرخ في 1961/ 18/ 7) قائلًا فيه: ماذا سيبقى من الأناجيل لو أن هنرى لامانس طبق عليها ذات الطرق النقدية التي طبقها على القرآن الكريم؟

"What would remain of the Gospels if he applied to them the same methods he applies to the Quran?[2]"

وبعد ذكر هذه المقتطفات من دراسات المستشرقين عن مصادر القرآن المزعومة، أذكر مرة أخرى بأن هذه المسألة قد خاض فيها كثير من المبشرين

---

(1) Michael Cook, Muhammad, 1987, Oxford University Press. PP. 77 - 80.

وهو كتاب واسع الانتشار مؤلفه محاضر في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن في سلسلة Past Masters ويقول كول:

(2) Maxime Rodinson, A Critical Survey of Modem Studies on Muhammad. P. 61

وقد نشر هذا البحث ضمن كتاب «دراسات عن الإسلام» ترجمها إلى الإنجليزية «مارلين سوارتز» ونشره مطبعة جامعة أكسفورد 1981م.

كذلك، وإن نظرة واحدة إلى فصول كتاب الدكتور (تسدل) المسمى «تنوير الأفهام بمصادر الإسلام» ترينا أن المستشرقين والمبشرين قد أجمعوا على البحث عن مصدر أو مصادر للقرآن الكريم بعيدًا عن الوحي الإلهي..، وهذه النصوص هي:

1 - في البحث والنظر فيما ذهب إليه القائلون من أن بعض عقائد المسلمين ورسومهم وفرائضهم مأخوذة من مذاهب العرب في أيام الجاهلية، وأن هذا هو أول مصادر الديانة الإسلامية.

2 - في البحث فيما ذهب إليه بعض المعترضين من أن بعض التعاليم والقصص الواردة في القرآن أو الأحاديث مأخوذة من تفاسير اليهود الوهمية، وأن بعض فرائض المسلمين الدينية مأخوذة من طريقة الصابئة.

3 - في النظر والبحث فيما ذهب إليه بعض المعترضين من أن كثيرًا مما ورد في القرآن مأخوذ من حكايات وروايات بعض فرق النصارى المبتدعة العاطلة وآرائهم الباطلة.

4 - في النظر والبحث فيما ذهب إليه المعترضون من أن بعض أركان القرآن والأحاديث أخذت من كتب أصحاب زرادشت والهنود القديمة.

5 - بخصوص الحنفاء وتأثيرهم على أفكار محمد وعلى تعاليمه وبالطبع فإن هذه المباحث قد عقدها الدكتور (تسدل) ليصل منها إلى «إقامة الدليل الساطع.. على أن أكثر القرآن وأغلب عقائده إنما أخذت بلا شك ولا شبهة من الأديان الأخرى ومن الكتب التي كانت موجودة في أيام محمد ولا تزال موجودة الآن - فحينئذ يندك أساس الديانة الإسلامية دكًّا، وتنهار دعائمها، وتدرس معالمها» (ص11 - 12).

أي فرق إذًا بين كتاب الدكتور تسدل وكتابات جويتين، وجولدزيهر، ونولدكه، وواط، وكوك ولامانس وغيرهم؟!

التشكيك في لغة القرآن وفصاحته

بعد أن أسرف المستشرقون في التشكيك في مصدر القرآن،... وكأن الأمر قد استقام لهم، راحوا يشككون في سلامته اللغوية والأسلوبية، ويحاولون النيل من بيانه وفصاحته وبلاغته ونظمه وترتيبه ومعطياته، وكل ما يتعلق بعظمته وسموه وإعجازه... يقول توماس كارلايل – مؤلف كتاب الأبطال– بعد أن اطلع على ترجمة جورج سيل– المشوهة الناقصة– عن القرآن الكريم:

«إنني يجب أن أقول إني لم أعان قراءة متعبة كقراءته أبدًا... إنه مجموعة مشوشة مضطربة... فج... تكرار بلا نهاية... التواء طويل... تشابك، فج جدًّا، مشوش، غباوة لا تحتمل»[1].

وقال مثل ذلك، أو قريبًا منه المستشرق (دوزي ت 1883م)، فقد أطلق عبارات مريضة عن القرآن فحواها: أنه كتاب ذو ذوق رديء للغاية، ولا جديد فيه إلا القليل، وفيه إطناب بالغ وممل إلى حد بعيد[2].

وعلى هذه الوتيرة من مجافاة مقتضيات الحيدة العلمية، سار معظم المستشرقين في بحوثهم عن القرآن الكريم، واقرأ إن شئت لـ (جولدزيهر) أو (بلاشير) أو (كازانوفا) أو (دوزي) أو حتى (نيكلسون) [3] أو غيرهم...، فقد لاك هؤلاء وقبيلهم شبهات ومزاعم عن حفظ القرآن، وجمعه، والنسخ المحفوظة له، وعن اختلاف القراء والقراءات، وكونهم قد تدخلوا في النص المقدس الكريم

(1) Carlyle T. On Heroes. Hero - worship and the heroic in History. London. 1935. P.83.

(2) الإسلام في الفكر الغربي ص118، الاستشراق ص64 للدكتور زقزوق.

(3) Nichilson.The Idea of Personallty in Sufism.. Lahore. P.9.

بالزيادة والنقصان،... وإنك لتجد أن أول ما افتتح به (جولدزيهر) كتابه: (مذاهب التفسير الإسلامي) قوله: «.. فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافًا عقديًّا على أنه نص منزل، أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله، مثل هذه الصورة من الاضطراب، وعدم الثبات، كما نجده في النص القرآني[1].

أما (بلاشير) فإنه لم يتوانَ في بذر الشكوك وإثارة الشبهات، ولي الحقائق، وتزييف الوقائع، لينال من القرآن الكريم..، فقد شكك في حرص الرسول على كتابة الآيات حال نزولها، وأن خوفه كان شديدًا لما نزل عليه الوحي لأول مرة، فلا يمكن له أن يكتب ما نزل عليه، ولأن المسلمين كانوا في صراع مع يهود المدينة الذين كانوا يسيطرون على وسائل الكتابة. واستخلص من ذلك أن النص القرآني لم يكتب بأكمله في عهد الرسول.. والحفظ ليس مثل الكتابة، ومن ثم فإنه ينبغي احتمال اختلاط النص الأصلي ببعض الزيادات الطفيفة التي أدخلت عليه في العهود المتأخرة...، وافترض بلاشير بعض الأسباب التي جعلت الرسول – في زعمه – لا يحرص على كتابة القرآن في عهده، وذكر عدة احتمالات غير صحيحة؛ لأنها أسست على مقدمات باطلة، إذ من المعروف المقطوع به – من خلال الوثائق الثابتة والتواتر الملزم – أن عناية النبي ﷺ وأصحابه بكتابة القرآن لا تقل عن عنايته بحفظه لزيادة التحري والضبط، برغم أن أدوات القيد والكتابة لم تكن آنئذ ميسورة.

وهل اتخذ رسول الله ﷺ كُتابًا للوحي من أبرز الصحابة كالخلفاء الراشدين وغيرهم إلا لهذا الغرض؟ وهل كان نهيه عن كتابة الحديث – أول مرة – إلا لتوجيه العناية إلى القرآن وحده فلا يختلط بالسنة؟.. هذه مسألة مفروغ منها عند كافة المسلمين، عامتهم وخاصتهم، في جميع أزمانهم وأمصارهم.

وانظر إلى غرابة افتراض بلاشير، لتعليل عدم كتابة القرآن في عهد الرسول – كما يزعم –، فيقول «إن ميل الرسول وأصحابه إلى ترك الأمور على ما هي

(1) مذاهب التفسير الإسلامي ص4.

عليه، يؤيد ما اشتهر به العرب من أنهم لا يفكرون إلا في الحاضر، ولا يهمهم أمر المستقبل، وهذا الميل يقف وراء عزوف المسلمين عن جمع القرآن في عهده، إذ لم تكن الحاجة ماسة إليه، كما يؤيد ذلك عدم تعيين خليفة له»[1].

أما المستشرق (كازانوفا) فإنه يشك في نسبة بعض الآيات إلى الوحي، ويرجح – دون اعتماد على منطق أو وثائق أو وقائع ثابتة – أن أبا بكر الصديق هو الذي أضاف بعض الآيات للقرآن الكريم[2].

ويتحدث أونولد نيكلسون.. «.. والقارئون للقرآن من الأوروبيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وهو محمد، وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات... وهو نفسه لم يكن على علم بهذه المتعارضات... كما لم تكن حجر عثرة في سبيل صحابته الذين نقل إيمانهم الساذج القرآنَ على أنه كلام الله... لكن الصدع من هنا وجد، وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار[3].

ويزعم (بلاشير) أنه ليس هناك نص موحد للقرآن الكريم مؤسسًا زعمه هذا على فهم مغرض للقراءات القرآنية..، ومن ثم فإنه يجوز قراءة القرآن بالمعنى.. كما ذهب جولزيهر... [4] والعجيب أن هؤلاء في – بحوثهم لا يفرقون بين القراءة المتواترة والأخرى الشاذة.

---

(1) Blachere, Introduction to Coran, P. 16 - 26 Paris

(2) انظر بحث التهامي النقرة في مناهج المستشرقين.

(3) الصوفية في الإسلام، ترجمة نور الدين شريبه ص7 – 8، نشرة القاهرة.

(4) مذاهب التفسير الإسلامي ص6، 11، 12، 29، 3، 11، 31، 51 كما أن Blachere قد ترجم القرآن الكريم في مجلدين، وقدم لترجمة كل سورة بمقدمة، ورتبه حسب نزوله مؤسسا هذا العمل على دراسات T. Noldeke النقدية للقرآن الكريم، كما اقتبس كثيرًا من عبارات وطريقة R. Bell المعروفة حسبما يذكر رودنسون ص40.

ويروج (بلاشير) لفكرة باطلة أخرى، هي أن أمر النبي ﷺ بتدوين الوحي لم ينشأ إلا بعد أن هاجر إلى المدينة، وأقام بها، وأن التدوين كان جزئيًّا وناتجًا عن جهود فردية، ومثارًا للاختلاف[1].

وقد ذهب المستشرق (لوت) إلى أن النبي ﷺ مدين بفكرة فواتح السور مثل: حم، وطسم، وكهيعص إلخ لتأثير أجنبي، ويرجح أنه تأثير يهودي، ظنًّا منه أن السور التي بدأت بهذه الفواتح مدنية، خضع فيها النبي ﷺ لتأثير اليهود، ولو دقق هذا الأفاك لعلم أن سبعًا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية، وأن اثنتين فقط من هذه السور مدنية، هما: البقرة وآل عمران[2].

وبالنسبة لموقف المستشرقين من القرآن فقد كانوا في غاية الانسجام والتوافق مع مزاعمهم السابقة واللاحقة، ويكفي للتدليل على ذلك كتاب (الحداد) بعنوان (دراسات قرآنية) وهو كتاب لأحد غلاة المستشرقين بث فيه ناقع سمه ولاهب حقده[3].

وفي الواقع إنه كان للرسول الكريم، وللحق، خصوم وأعداء ألداء مثل كازانوفا، ولوت وبلاشير، ودوزي، وجولدزيهر، ودي ساس، ونيكلسون، وسيل، وبطرس المحترم، ولل، وغيرهم... وكان أعداؤه من مشركي العرب أكثر من هؤلاء ذكاءً وحماسة، ولم يكونوا أقل منهم دهاءً، ومع ذلك لم يوجهوا هذه المزاعم له، لوهائها وتناقضها وسقوطها.

(1) بلاشير: مدخل للقرآن ص28 - 29.

(2) د. محمد غلاب: نظرات استشراقية في الإسلام ص41 - 42.

(3) مقال التهامي النقرة.

المستشرقون... والسنة المطهرة

ترتبط السنة المطهرة بالقرآن ارتباطًا وثيقًا لا يمكن أن يتصور – مجرد تصور – أن تنفك عراه البتة، وهذا يفهم من صريح القرآن الكريم: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[1].

ومن بدائه الأمور أن يقال إن السنة تمثل بالنسبة للقرآن: المفصلة لمجمله، والمبينة لمشكله، والباسطة لمختصره[2]. ومن بدائة الأمور أن يقال – كذلك – إن السنة هي الأصل الثاني للإسلام، وإنها وحي الله إلى الناس بلغه رسول الله ﷺ، وأمرنا أن نتمسك به، ونحافظ عليه: قال ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي».

لكن بعض رجال المؤسسة الاستشراقية المتجافين عن أبسط قواعد البحث العلمي المرعية وأصوله المقررة، حاولوا – في هجمة منكرة فاضحة – التشكيك في السنة..، ولم يألوا جهدًا، ولم يدخروا وسعًا في ذلك؛ بغية هدمها ونقضها وطمسها[3]، وهي محاولات مأجورة ومشكورة من قبل رجال التبشير والاستعمار معًا.

---

(1) سورة النحل 44.

(2) الشاطبي: الموافقات ج1 ص12.

وانظر لنا بالاشتراك مع الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي (علاقة السنة بالقرآن) نشر ضمن كتاب اليونسكو عن (أسس الإسلام) وقد ترجم إلى لغات الأمم المتحدة الخمس

(3) للتعرف على مزيد من التفاصيل عن دراسات المستشرقين للسنة المطهرة انظر:

- A. Guillaume The traditions of Islam: an Introduction to the Study of The Hadrth literature، Oxford، 1924.

- Juynboll، The Authenticity of The Tradition Literature Discussions In Modern Egypt Leiden، 1968,

- J, Schacht, Revelation of Islamic Traditions، Jras, 1949,

- Ignaz Goldziher، Moslim Studies، London 1967_1971 2vols.

يرى مكسيم رودنسون «أن علماء المسلمين الثقات قد ردوا عددًا كبيرًا من الأحاديث، ومع ذلك فإن المنهج الذي استخدموه في ذلك لا يرضى عنه المستشرقون اليوم. وتبدو الأحاديث التي قبلها العلماء المسلمون ليست أكثر وثاقة- في نظر المستشرقين- من تلك الأحاديث التي ضعفوها»[1].

ولنقف أمام محاولتين ثنتين- رغم الكثرة الكاثرة- وهما محاولتا المستشرقين اليهوديين (جولدزيهر) و (جوزيف شاخت)...، والحق يقال: إن أول وأكبر مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتشكيك في الحديث النبوي، كان المستشرق اليهودي جولدزيهر- الذي يعده تلاميذه من المستشرقين والمستغربين على السواء- أعمق العارفين بالحديث النبوي.. يقول عنه كاتب مادة الحديث النبوي في دائرة المعارف الإسلامية (يوهان فك Fueck)[2]... «إن العالم مدين دينًا كبيرًا لما كتبه (جولدزيهر) في موضوع الحديث، وقد كان تأثيره على مسار الدراسات الإسلامية الاستشراقية أعظم مما كان لأيّ من معاصريه من المستشرقين، فقد حدد تحديدًا حاسمًا اتجاه البحث في هذه الدراسات وتطوره»[3].

(1) مكسيم رودنسون مرجع سابق ص42.

(2) يوهان فك في كتابه (عن الدراسات الاستشراقية في أوروبا) الصادر في ليبزج سنة 1955م ص231، عن الاستشراق للدكتور زقزوق ص101.

(3) ويرى ألبرت حوراني أن جولدزيهر المستشرق اليهودي أعظم رمز في تكوين وصياغة التصور الأوروبي عن الإسلام في تطوره وطبيعته كنظام ثقافي وديني ويضيف الدكتور ألبرت أن الطبيعة اليهودية ومستقبل اليهود كانتا الشغل الشاغل للمستشرق جولدزيهر، وهو نفسه يخبر بذلك قائلًا: « إن اليهودية نبض حياتي» «judaism was the pulse - beat of my life»
يذكر ألبرت حوراني أن جولدزيهر قد عمل سكرتيرًا عامًّا للطائفة اليهودية في بودابست، وأنه قد كانت لديه معرفة عميقة بالتلمود والآداب العبرية..
انظر: (الإسلام في الفكر الأوروبي) ص36 – 41.
وكان جولدزيهر يرى أن الإسلام قد انتشر بالقوة الخارجية فحسب، وذلك قبل أن تتشكل مبادئه الأساسية وتأخذ شكلًا محددًا. (فكرته عن التطور الإسلامي) انظر مكسيم رودنسون: بحث نقدي في الدراسات الحديثة عن محمد، ص123 – 124.

ويلخص المستشرق (فانمولر Pfanmueller) عمل جولدزيهر الخارق!! قائلًا: «لقد كان جولدزيهر أعمق العارفين بعلم الحديث النبوي...، وقد تناول في القسم الثاني من كتابه (دراسات محمدية) موضوع تطور الحديث تناولًا عميقًا، وراح- بما له من علم عميق، واطلاع يفوق كل وصف- يبحث التطور الداخلي والخارجي للحديث من كل النواحي، وقد قادته المعايشة العميقة لمادة الحديث الهائلة إلى الشك في الحديث النبوي، ولم يعد يثق فيه، مثلما كان (دوزي) ولا يزال يفعل ذلك في كتابه: (مقال في تاريخ الإسلام).. وبالأحرى: كان جولدزيهر يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرنين الأول والثاني. فالحديث- في رأيه- لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول: عهد طفولته، وإنما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام... ويقدم جولدزيهر مادة هائلة من الشواهد لمسار التطور الذي قطعه الإسلام في تلك العصور التي تم فيها تشكيله من بين القوى المتناقضة، والتباينات الهائلة، حتى أصبح في صورته النسقية...، ويصور جولدزيهر التطور التدريجي للحديث، ويبرهن بأمثلة قاطعة كيف كان الحديث انعكاسًا لروح العصر، وكيف عملت على ذلك الأجيال المختلفة وكيف راحت كل الأحزاب والاتجاهات في الإسلام تبحث لنفسها - من خلال ذلك - عن إثبات لشرعيتها بالإشارة إلى مؤسس الإسلام، وأجرت على لسانه الأقوال التي تعبر عن شعاراتها»[1].

وبهذه الطريقة- فيما يرى- أمكن اختراع أو وضع الأحاديث الكثيرة..، وعلى سبيل المثال عندما اشتدت الخصومة بين البيت الأموي والعلماء الصالحين، راح العلماء يخترعون الأحاديث لمحاربة الطغيان والظلم. وراح علماء السلطة يضعون الأحاديث التي تخدم وجهتهم. والأمر لم يقف عند وضع الأحاديث في

(1) عن الدكتور زقزوق: الاستشراق ص102.

الأغراض السياسية، بل تعداه إلى الوضع في النواحي الدينية... في أمور العبادات التي لا تتفق مع ما يراه أهل المدينة، وقد استمر هذا الحال في وضع الأحاديث في القرن الثاني أيضًا[1].

ويلخص (مكسيم رودنسون) عمل (جولدزيهر) قائلًا: «قد كان إجناس جولدزيهر واحدًا من أوائل المستشرقين الغربيين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة البحث في هذه المشكلة، ولقد بين بشكل منهجي كيف أن هذه الأحاديث قد زورت وزيفت في العصور الوسطى لمصلحة العشيرة، أو المذهب، أو الحزب السياسي لمناصرة المعتقد الأيديولوجي أو لحساب المصالح العملية[2].

أما الدكتور ألبرت حوراني فيرى «جولدزيهر» «قد طبق المناهج النقدية التي تعلمها في ألمانيا (التي نقد العلماء الغربيون بها أسفار الكتاب المقدس وتوصلوا بها إلى أن هذه الأسفار قد لحقها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان) على النصوص الأساسية للإسلام؛ على الحديث النبوي خصوصًا، وأنه نظر إلى هذا الحديث ليس على أنه النص الذي وصلنا عن الرسول وصحابته دونما تغيير، ولكن على أن الأحاديث مجموعة من الكتابات قد وضعت بشكل تدريجي عبر أجيال عديدة.

لذلك فهي لا تقبل على أنها تسجيل لما قاله أو نقله محمد. ومن الأمور ذات القيمة الأساسية في هذا الصدد إلقاؤه الضوء على النزاعات السياسية والدينية في القرن الأول الهجري. إذ أن لهذا التبصر في أحداث القرن الأول الهجري أثر عميق على كل الدراسات المتأخرة لعلم الكلام أو التشريع الإسلامي[3].

---

(1) الدكتور مصطفى السباعي: «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ص19 – 191، نشرة 1978، وانظر الدراسة الموسعة عن (الوضع في الحديث النبوي) التي أعدها الدكتور عمر حسن فلاته، بجامعة الأزهر، ونشرت في ثلاثة مجلدات، مكتبة الغزالي، بيروت، 1981م.

(2) M. Rodinson, A Critical Survey... P. 42.

(3) 1. Goldziher, Muslim studies, London. 1961 Vol 2 PP. 17 – 251.
A. Hourani, Islam in European Thought.

ولقد عبر جولدزيهر عن وجهة نظره المفصلة عن الكيفية التي تطور بها الإسلام كنظام ديني في سلسلة من المحاضرات كتبها سنة 1907م وكان ينوي إلقاءها في للولايات المتحدة الأمريكية، لكن لم يلقها، ثم طبعت في كتاب بعنوان: Introduction to Islamic Theology and Law، Princeton. 1981.

هذا عن جولدزيهر، أما (جوزيف شاخت) فقد سار على خط مواز له تمامًا، كما أن المنزلة التي وصل إليها شاخت بين المستشرقين لم يصل إليها أي مستشرق، وقد نشر كتابًا بعنوان (المدخل إلى الفقه الإسلامي) Introduction to Islamic Law كما نشر كتابه المشهور: «The Origins of Muhammadan Jurisprudence» أصول الشريعة المحمدية» وقد حاز هذا الكتاب على تقدير عامة المستشرقين، وتتلمذ عليه نفر غير قليل منهم، وقد أثر تأثيرًا عميقًا في كل من (أندرسون) و (روبسون) و (فيزجيرالد) و (كولسون) و (بوزورث) كما كان لأوهام شاخت تأثير بالغ على من تثقفوا بالثقافات الغربية من المسلمين.

وعن تقدير شاخت، استمع إلى (كولسون) أستاذ الفقه الإسلامي في جامعة لندن، وهو يقول: «إن شاخت صانع نظرية عن أصول الشريعة الإسلامية غير قابلة للدحض في إطارها الواسع». أما (جب) فيرى أن هذا الكتاب، سيصبح أساسًا في المستقبل لكل دراسة عن حضارة الإسلام وشريعته على الأقل في العالم الغربي. أما خلاصة آراء (شاخت) ومحصلتها النهائية، فقد ذكرها في (المدخل) قائلًا: «من الصعوبة اعتبار حديث من الأحاديث الفقهية صحيح النسبة إلى النبي، ذلك أنه في الجزء الأكبر من القرن الأول لم يكن للفقه الإسلامي – في معناه الاصطلاحي – وجود كما كان في عهد النبي. والقانون – أي الشريعة – من حيث هي هكذا، كانت تقع خارجة عن نطاق الدين، وما لم يكن هناك اعتراض ديني أو معنوي أو روحي على تعامل خاص في السلوك؛ فقد كانت مسألة القانون (الشريعة) تمثل عملية لا مبالاة بالنسبة للمسلمين»[1].

(1) Gibb: Journal of Comparative Legislation of an International Law 33 PP. 144.
عن بحث الدكتور مصطفى الأعظمي في (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية) ص68، 108.

هذه النظرية تمثل أساسًا لكل كتابات شاخت، ومن أخذ عنه، فإذا كانت الشريعة أو القانون تقع خارجة عن نطاق الدين، وكان النبي غير مكترث لها، وكذلك، المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين، فإن ما سجلته المصادر مما يشير إلى جهد متواصل من النبي ﷺ، ومن جاء بعده من الصحابة، يكون كذبًا مختلقًا في رأي شاخت[1].

وهذا الإفك الرامي إلى عدم صحة حديث واحد من الأحاديث الفقهية المنسوبة إلى الرسول ﷺ يؤدي إلى أهداف كثيرة مبتغاة من المستشرقين تتمثل في:

1 - إن مطالبة الشعوب الإسلامية ورغبة بعض الحكام في العودة إلى الشريعة الإسلامية لا أساس لها لأن الشريعة في حقيقتها خارجة عن نطاق الدين.

2 - ما يسمى بالفقه الإسلامي ليس مبنيًّا على كتاب الله وسنة رسوله؛ لأنه لا يوجد ما يمكن تسميته سنة النبي، بل إن جزءًا غير قليل من الفقه الإسلامي مأخوذ من شرائع اليهود والكنيسة وديانات أخرى، عدا اجتهادات المجتهدين.

كما أن شاخت يزعم أن أكبر قدر من أسانيد الأحاديث اعتباطي... «ومعلوم لدى الجميع أن الأسانيد بدأت بشكل بدائي، ووصلت إلى كمالها في النصف الثاني من القرن الثاني في الهجرة.. وكانت، الأسانيد كثيرًا ما تجد أقل اعتناء.. وأي حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين كان يختار تلك الشخصيات ويضعها في الأسانيد»[2].

هذا الذي يزعمه شاخت قريب- في غرابته- من كلام المستشرق (منجانا) الذي رفض فيه أن يكون القرآن الكريم مكتوبًا في القرن الأول الهجري؛ لأن يوحنا الدمشقي- خصم المسلمين في سوريا في أواخر القرن الهجري الأول- لم يذكر أن لدى المسلمين كتابًا[3].

---

(1) نفس المصدر ص34.

(2) Schacht :Foreign elements in anccient Islamic Law PP. 136 – 64.

(3) الدكتور الأعظمي ص89 المرجع السابق.

ثم يتجنى شاخت على الإمام الشافعي ويتهمه بالتحريف والبعد عن الأمانة العلمية، ويختلق أمثلة كثيرة على ذلك[1].

هذا، ولن نقف عند نقد المستشرق اليسوعي البلجيكي «هنرى لامانس» للحديث النبوي؛ لأنه لم يكن نقدًا علميًّا بشهادة المستشرقين أنفسهم مثل «مكسيم ودنسون» الذي يقول عنه: «ثم وجه «هنرى لامانس» نقدًا متطرفًا Radical Criti-cism للسنة؛ خصوصًا ذلك الجزء الذي يتعلق بسيرة الرسول،.. ثم يقول:

«ولقد تبنى هنرى لامانس البحث الذي بدأه جولدزيهر والأفكار التي طرحها، وتطرف في التحليل النقدي للحديث النبوي عند المسلمين غاية التطرف. وكشف القناع بلا هوادة عن تلك الاتجاهات السياسية المتأخرة الكامنة خلف الروايات، التي أعادت تقدير أعمال وأقوال الرسول وأصحابه.

وقد سخر لامانس بلا تحفظ تلك الأساليب النقدية التي استخدمها علماء القرن التاسع عشر (في الغرب) ضد عقيدته الخاصة، في دراساته القاسية اليائسة للحديث النبوي الزائف (في رأيه) [2] كما أن منتجمري واط يجزم بأن كثيرًا من حكمة الشرق الأوسط، والحكمة العربية القديمة ونصوصًا من العهدين القديم والجديد قد وجدت طريقها إلى الإسلام؛ وإلى السنة... ومن المحتمل أن يكون العلماء المسلمون المعتدلون هم الذين سلكوا طريق وضع الأحاديث أولًا، ثم أكمل المتشددون الشوط... [3].

(1) Schacht. Origins PP 321 – 22.

(2) M. Rodinson: A critiaci survey.. P. 26.

(3) M, Watt، Islam and Integration of society، London 1961,
" It is hardly too much to say that all the wisdom of the Middle East. became Incorporated Into the traditions - ancient Arab wlsdoms ,sentences from Old and New Testaments. Neoplatonic and Gnostic doctrines and maxims from Persia and India... Much of this material was clearty inconsistent'wlth Islam and must have worried the leaders of the main body of moderate Muslims but those who believed in one or the other part of it saw that by passing if

وعن موقف المستشرقين من شخص الرسول ﷺ ومناقشة مفترياتهم، يمكن مراجعة ما كتبه الدكتور السباعي في (السنة ومكانتها في التشريع) وما كتبه الدكتوران عماد الدين خليل، وجعفر شيخ إدريس في كتاب (مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية)، كما يمكن مراجعة طرف من بحوث المستشرقين عن السنة في كتاب العقيقي[1]. وما كتبه الدكتور مصطفى الأعظمي في دراساته عن السنة المطهرة.

وأختم هذا المبحث بحديث للمستشرق المعروف (رينولد نيكلسون) عن الرسول محمد ﷺ جاء فيه: «.... سأسلم مبدئيًّا بصدق محمد في دعواه (النبوة) وبحقيقة نبوته؛ وهي مسألة طالما شك فيها الناس أو أنكروها. وحجتي في ذلك أولًا أنها من المسائل التي أجمع عليها المسلمون، وثانيًا لأنني أعتقد أن أي فرد يخالف هذا الرأي يعجز عن أن يفسر نشأة الإسلام وتاريخه الأول. نعم من السهل أن نتبين الموقف المتناقض الذي وقع فيه الرسول بدعواه أن ما أنزل عليه كان وحيًا من السماء مقررًا لا تغير فيه، وأنه لم يكن إلا واسطة في نقل هذا الوحي إلى الناس، بينما اقتضت الأحداث والظروف التي أحاطت به أن يكون ذلك الوحي من المرونة بحيث يفي بمطالبه وحاجاته. فلو كان محمد دعيًّا، لحق لنا أن نتعجب من قصر نظره، ولو كان صادقًا لحق لنا أن نعترف بقصر باعه في النبوة[2].

off as coming from Muhammad, they Justified their own practices of forging Hadith was begun by the moderates belief In it... it Is likely that the and continued by the eccentrics. Then the moderates borrowed it from the eccentrics. it Is difficult for modem westerners to realize how hard It was for the ancient Islamic culture working with different categories based on oral materials dealt with a situation like that In an oral culture, once a story has been passed around, it is remembered If it Is a good one whether It is true or not and attempts to deny It are regarded as due to ulterior motives, (p. 226)

(1) المستشرقون ح3 ص541 – 546.

(2) R, A, Nicholson، The Idea of Personality in Islam، Lahore، 1970, P,6,

أما المستشرق (هاملتون جب فيري أن محمدًا ﷺ هو الذي ألف أو لفق الإسلام من عند نفسه، وتصرف في ذلك بحرية تامة[1].

وهذا نص عبارة نيكلسون:

« I am going to take for granted what has often been doubted or denied - the sincerity of Mohammad and the reality of his prophetic Inspiration – partly because it is a point on which all Muslims are agreed and slso because It seems to me that on no other hypothesis can the origin and early history of Islam be accounted for. It is easy to emphasise the contradictions into which he was drawn by his postulate of a fixed and immutable revelation، written in a heavenly book and communicated to him by a process in which he was merely the passive medium، while the courae of evente constantly required that the revelation ahould be plastic and responsive to his needs. If he was an Impostor، we can only wonder at his lack of foresight; but If he waa aincer، it must be admitted that his prophetic endowment was not of the highest order «

(1) Hamilton A.R. Qibb. Studies on the Civilization of Islam. Edited by S.J Shaw and W.R. Polk، London. 1962، Lahore 1987. P. 212.

وقد جمع الناشران خمس عشرة دراسة لهاملتون، بعضها في غاية الأهمية والخطورة مثل:

- The Reaction In the Middle East Against Western Culture Paris، 1951.
- The Structure of Religious Thought In lalam، (The Muslim world، 38، Hartford، Conn،1948)
- Some Considerations on the Sunni Theory of the Caliphate، Paria، 1939.
- The lslamic Background of Ibn Khaldun›a Political Theory، London. 1933.
- An Interpretation of Islamic History، 1950.
- The Evolution of Government in Early Islam، Paris، 1950.
- The Armies of Saladin، 1951
- The Achievement of Saladin، Manchester، 1952.

المستشرقون... وسيرة الرسول ﷺ

هذا باب واسع خاض فيه كثير من المستشرقين، وكتبوا فيه بحوثًا ودراسات عديدة يصعب حصرها، ولقد حاول بعض المستشرقين المعاصرين تتبع هذه الدراسات وتصنيفها وفهرستها وتقويمها، ونذكر من بين هذه المحاولات تلك التي قام بها كل من:

W.M. Watt، The Biography of the Prophet in recent Research، 1.1954، Islamic Quarterly.
Rudi Parrel، European Research on life and work of Prophet Muhammad. JPHS. Pakistan، 1958
Maxime rodinson. A Critical suvey of Modem studies on Muhammad (Studies on Islam، translated by Merlin L. Swartz، New York - Oxford University Press، 1981.

قلت خاض في هذا الباب كثير من المستشرقين، ولم ينصف معظمهم الرسول (ﷺ)، فرموه بالكذب والدجل والجنون إلى غير ذلك من تهم ومفتريات، كما أن أكثرهم نظر إلى السيرة المطهرة والسنة المشرفة بعين الارتياب والتشكك، ونسوق – فيما يلي – بعض الأمثلة التي تعطي صورة مجملة عن الموقف العام لكثير من أبرز رجالات المؤسسة الاستشراقية من الرسول (ﷺ):

1 – يزعم المستشرق جوستاف فيل في كتابه عن محمد النبي (1843م) أن ما كان ينتاب الرسول (ﷺ) مما يشبه الحمّى، وما كان يسمعه من صوت كصلصلة الجرس، ليس وحيًا وإنما هو نوبات صرع واضطرابات عصبية.

2 – المستشرق أليوس سبرنجر في كتابه عن حياة محمد وتعاليمه (1861م) يزعم أن الرسول (ﷺ) كان غاضبًا مصابًا بالصرع والهستيريا معًا.

3 - المستشرق تيودور نولدكه في كتابه عن تاريخ القرآن (1909م) يزعم أن محمدًا (ﷺ) كانت تنتابه نوبات عنيفة من الانفعال جعلته يظن أنه تحت تأثير إلهي ويظن أنه يتلقى وحيًا.

4 - المستشرق صمويل مرجليوث في كتابه عن «محمد وظهور الإسلام» (1905م) يزعم أن الرسول (ﷺ) قد ضلل الناس عمدًا بادّعائه الوحي.

5 - المستشرق وليام موير في كتابه عن حياة محمد (أربعة أجزاء) يصف الرسول (ﷺ) بأنه نبي كاذب، ويزعم أنه تحول من واعظ تقي في مكة إلى سياسي طموح في المدينة، ربط نفسه بالشيطان من أجل النجاح الدنيوي.

ويكشف هذا المستشرق عن موقفه من الإسلام والرسول فيقول: «إن سيف محمد والقرآن هما ألد الأشياء عداوة للحضارة والحياة والحق مما لم يعرفه العالم حتى الآن».

6 - المستشرق ماكدونالد - أستاذ المستشرق جب - كتب في مجلة «العالم الإسلامي» 1933م يصف الإسلام بأنه ليس أكثر من هرطقة آريوسية من الدرجة الثانية[1] ويكون الرسول بذلك ليس أكثر من شخص خارج على الديانة المسيحية.

---

(1) Edward Said، Orientalism، p. 151

ولمزيد من التفاصيل عن دراسات المستشرقين حول الرسولﷺ سيرته وسنته انظر:

D.B. Macdonald، whither Islam? The Muslim world، Jan. 1933

Tor Andrae; Mohammad: the man and his Faith، New York، 1963

Maxtme rodinson، Muhammad، English Trans. Penguin Book، 1971

M. Watt، Mohammad At Mecca، Oxford، 1953

M. Watt، Muhammad، Prophet and State man، Oxford، 1964

Guillaume، New light on the life of Muhammad، Manchester، 1960

Guillaume، The life of Muhammad، Oxford، Karachi، 1987

Henri de Boulainvilliers، The life of Muhammad، London، 1983

Dr, Henry Stubbe، An Account of the Rise and Progress of Muhametanism، with the life of Mahomet، Orientala، Lahore، 1911,

7 – يصف Karl Barth إله محمد (ﷺ) أنه وثن لا يختلف عن الأوثان الأخرى.

«The God of Muhamed is an Idol like other Idols»(1).

وبنفس الطريقة يرى المبشر اللاهوتي المستشرق الهولندي H.Kramer الإسلام بأنه صناعه بشرية، ودين وضعي، وليس وحيًا أوحاه الله(2).

8 – يؤلف المستشرق (Gibb) كتابًا كاملًا يسميه Muhammadanism ينحو فيه هذا النحو الغريب(3).

9 – «تاريخ الإسلام لجامعه كامبردج»: كتاب ضخم اشترك في تأليفه عدد كبير من المستشرقين المعاصرين، صدر سنة 1970م؛ يردد ما يراه معظم المستشرقين منذ نشأة الاستشراق حتى اليوم، وهو أن الإسلام مزيج أو تلفيق ثقافي: Cultural synthesis مستعار من عدة ثقافات أخرى: يهودية ونصرانية ويونانية وفارسية؛ بالإضافة إلى ثقافة بيئته الأصلية؛ أي الجاهلية العربية(4). ودور محمد، (ﷺ)، فيه هو التجميع والتلفيق.

10 – المستشرق مونتجمري واط في كتابه: (محمد النبي ورجل الدولة) 1964م – يزعم أن القرآن، ليس وحيًا، وإنما هو من إنتاج الخيال المبدع «Creative Imagination» وأن القرآن يعتمد كثيرًا على الأخذ من اليهودية والنصرانية(5).

وفي رأي M. Wait أن الصفات الشخصية التي أعانت الرسول ﷺ على نشر الإسلام هي ثلاث صفات رئيسية:

---

(1) Quoted In G. Parrinder. Comparative Religion. London. 1962.P.48.

(2) H.Kramer. Religion and the Christian Faith. London. 19S6.P334.

(3) H.A.R. Gibb. Muhammaddanism; An Historical survey. London - Oxford. 1847

(4) (The Cambridge History of Islam. Cambridge 1970. Edited by. Holt. Ann Lambton. and Bernard Lewis. See. E. Said. Orientalism. pp 302 - 50.

(5) ML Watt. Muhammed: Prophet and State man. Oxford. 1964. pp. 229 - 240.

1 - **موهبته كعراف أو كاهن seer:**

أن مقدرته على استبصار الأسباب الرئيسية للتخلف الاجتماعي في عصره، وعبقريته عن هذا الاستبصار في استحضار نص يهز السامع من أعماق كيانه، وهو يشير بهذا إلى القرآن الكريم، ويرى أن القارئ الأوروبي ينفر من القرآن، ومع ذلك فهو كتاب يناسب حاجات بيئته وظروف عصره فقط!!

2 - **حكمته كسياسي:**

يقرر أن محمدًا ﷺ كان ذا نظر بعيد كمخطط سياسي وكمصلح اجتماعي، وهذا يتضح من التوسع السريع لدولته في المدينة، حتى أصبحت - بعد زمن قصير - «إمبراطورية» عالمية، ويتضح كذلك من «تكييف» مؤسساته الاجتماعية (أي مؤسسات الإسلام) للتطبيق في بيئات كثيرة متنوعة، واستمرار هذا التطبيق حتى الآن.

3 - **مهارته في الإدارة:**

وتتجلى هذه المهارة في اختياره للرجال الذين عهد إليهم تولى الأعمال الإدارية اليومية، وذلك لأن المؤسسات السليمة والسياسة الحكيمة لا تؤثر تأثيرًا فعالًا إذا كان التنفيذ خاطئًا أو ضعيفًا. وقد خلف محمد (ﷺ) دولة ذات إدارة قوية.

ثم يتساءل المستشرق watt هل كان محمد نبيًّا؟ في إجابته على هذا السؤال يزعم المستشرق أن الرسول (ﷺ) كان يتمتع بما يسميه الخيال المبدع: Creative Imagination، وهو في هذه الخاصة يشارك غيره من الفنانين والشعراء والكتاب ذوي الخيال المبدع؛ فكل هؤلاء يعبرون بالصيغ الحسية (أي بالصور والقصائد والتمثيليات والروايات) عما يشعر به كثير من الناس، ولكنهم لا يستطيعون التعبير عنه بأنفسهم؛ ومن ثم يتميز الإنتاج العظيم للخيال المبدع بنوع من العالمية «لأنه لا يعبر عن مشاعر ومواقف الفرد الذي أنتجه، بل عن مشاعر ومواقف جيل كامل من الناس.

ويرى المستشرق أن الأنبياء والزعماء الدينيين ذوي النبوءات (أي القادرين على التنبؤ) يشتركون مع الفنانين والشعراء والكتاب في خاصية الخيال المبدع، ومن ثم يعلنون أفكارًا تتصل بأعمق التجارب الإنسانية، مع الاهتمام الخاص بحاجات العصر والجيل.

وعلامة النبي العظيم - في رأيه - هي ما تحدثه «أفكاره» من جاذبية عميقة «أي تأثير عميق» عند أولئك الذين وجهت إليهم هذه الأفكار.

ويتساءل المستشرق: من أين تأتي هذه الأفكار؟

ويشير إلى رأي من يقولون بأنها تأتي من اللاوعي، وإلى رأي من يقولون إنها تأتي من الله (وهؤلاء هم المؤمنون بأديان الوحي). ويرى هو أنها تأتي من تلك الحياة داخل الإنسان التي هي أكبر منه، وهي غالبًا تحت مستوى الوعي ولها صله بالله[1].

ويقول المستشرق إنه ليس هناك ما يحتم أن تكون كل أفكار الخيال المبدع صادقة وصحيحة. ويتساءل: ما القول في تلك الأفكار التي ينتجها الخيال المبدع وهي غير كافية أو غير صحيحة؟

وهنا يعرض للمقارنة: فيذكر أن الخيال المبدع عند هتلر كان على درجة كبيرة من التطور، كما كان لأفكاره تأثير واسع (على الجماهير)، ولكن يعتقد أنه كان مصابًا بالعصاب (الاضطراب العصبي)، وأن الألمان الذين اتبعوه إلى درجة التعبد قد أصابتهم عدوى ذلك العصاب.

(1) أشار مونتجمري واط في كتاب آخر إلى أن الوحي صادر عن جهة من نفس محمد، وأن تلك الجهة هي اللاوعي الجماعي The collective Unconsciousness ويعني بذلك أن موضوعات الوحي كانت موجودة في اللاوعي عند محمد (ﷺ) ومستقاة من المحيط الجماعي الذي عاش فيه قبل البعثة، وبخاصة من خلال صلاته بورقة بن نوفل، وما كان الملك (جبريل) إلا خيالا أدى إلى حضور تلك الموضوعات إلى وعيه، في الحالة التي يسميها الوحي: راجع:
M.Watt: The Islamic Revelation in Modern World, Edinburgh, 1959.
(Cf، also: Muhammad at Mecca، (oup, 1951 pp, 55، 93, 103
وللتوسع انظر: الأستاذ الدكتور أحمد عبد الحميد غراب: (رؤية إسلامية للاستشراق) نشرة أكسفورد

ومن المواضح كذلك أن المستشرق يردد هنا ما ردده المستشرقون من قبله من افتراءات، كان منها - كما سبق - وصفه (ﷺ) بالصرع والاضطراب العصبي والهستيريا.

ويذكر المستشرق أن «أفكار» محمد (ﷺ) التي أنتجها خياله المبدع كانت - إلى حد كبير - حقيقية وصحيحة. ولكن هذا لا يعني - في زعمه - أن كل ما في القرآن صحيح. فبعض «الأفكار» القرآنية حقيقية وصحيحة، وبعضها الآخر ليست كذلك.

وهنا نقطة تبدو فيها «الأفكار» القرآنية - في زعم المستشرق - غير حقيقية وغير صحيحة، وهي الفكرة القائلة بأن الوحي (أي ما يسميه هو إنتاج «الخيال المبدع» هو أسمى وأوثق من الطرق الإنسانية العادية كمصدر للحقيقة التاريخية. وهنا يشير إلى عدة آيات قرآنية تؤكد أن الله يوحي إلى رسوله بأنباء الغيب كقوله تعالى:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ... ﴾

[هود: **49**].

ويقرر أنه يقبل أن الخيال المبدع «يمكن أن يقدم تفسيرًا جديدًا وأكثر صدقًا للأحداث التاريخية، ولكنه لا يقبل أن يكون «الخيال المبدع» مصدرًا للحقيقة التاريخية المجردة (أي مصدرًا للإخبار بالغيب عن حقائق التاريخ) ويزعم أن هذا مبالغة وكذب!!.

وهذه النقطة - كما يؤكد المستشرق - ذات أهمية خاصة بالنسبة للمسيحيين؛ وذلك لأن القرآن ينكر قتل عيسى عليه السلام أو صلبه، ويعتقد المسلمون أن هذا الإنكار أهم من الشواهد التاريخية التي تقول بصلب المسيح؛ وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى على اليهود:

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ... ﴾ [النساء: 157].

ويرى M.Watt كذلك أن محمدًا ﷺ قد صاغ الدين الجديد ليجعله أكثر عروبة؛ بعد أن خيب اليهود آماله وخذلوه بعد الهجرة، ولم يستجيبوا له، ويرى أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة قد جاء في هذا السياق؛ سياق تعريب الإسلام والقرآن، يقول M.Watt:

«من الواضح أن محمدًا قد تعمد صياغة الدين من جديد ليصبح أكثر ملاءمة للعروبة. ولقد أمل – لفترة من الوقت بعد هجرته إلى المدينة – أن يقبله اليهود رسولًا، ولقد عمل – في هذا الصدد على التأكيد على الملامح المشتركة لتعاليمه وتعاليمهم. لكن بعد مرور عدة أشهر تحقق أنه لا توجد فرصة لكسب اعتراف اليهود به (وفعل مثلما فعل بولس من قبل أي أنه اتّجه إلى الوثنيين بعد أن رفضه اليهود)، فأخذ في تقديم عناصر عربية مميزة لديانته، استجابة – فيما يظهر – لرغبة مسلمي المدينة على الأقل.

ولقد وجه أتباعه من قبل أن يتوجهوا إلى بيت المقدس في عبادتهم، ثم أوحي إليه – طبقا للقصة التقليدية بينما كان يصلي في مسجد أحد العشائر في المدينة – أن يتوجه إلى مكة، وقد أطاع هو وأصحابه الأمر وتوجهوا نحو مكة، وقد أطاع هو وأصحابه الأمر وتوجهوا نحو مكة وأكملوا صلاتهم، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكعبة قبله للمسلمين. وبهذه الطريقة صورت القطيعة مع اليهود. لقد ظهرت بالفعل عناصر عربية في الإسلام.. وأصبح الوحي قرآنًا عربيًّا، وخطابًا دينيًّا للناطقين بالعربية، وأطلق على الكعبة بيت الله. وارتبطت مكة والكعبة بإبراهيم، وللوهلة الأولى حاول محمد نفسه أن يؤدي الحج إلى مكة والطواف حول الكعبة؛ وبهذا تم أسلمة عديد من العبادات العربية القديمة»[1].

(1) M. Watt, Islam and the Integration of Society ,London 1961,P. 93.
" is clear that Muhammad deliberately moulded the new relgion to make it more Arabian. For a time after he went to Medina, he hoped that the Jews there would accept him as a prophet and emphasized the common features of his teachings and

ويحاول Dr. Hitti أن يعطي قراءه انطباعًا محددًا بأن محمدًا ﷺ كان رجلًا محتالًا Imposter، فهو قد وضع في رأسه خطة كاملة ونفذها بعد الهجرة من مكة إلى المدينة؛ يقول مثلًا:

«في المدينة تراجعت تدريجيًّا طبيعة العراف أو الكاهن فيه، ثم برزت شخصية السياسي ورجل الشئون العملية. وقد لوحظ تغير في خصائص الوحي كذلك؛ ذلك الذي أكد على وحدانية الله وصفاته وواجب الإنسان تجاهه في لغة إيقاعية ذات طابع موسيقي، وقد تحولت إلى نثر ممل يعالج مسائل مثل شعائر الصلاة والصيام، والزواج والطلاق، وأرقاء وأسرى الحرب»[1].

---

theirs. At the end of some months, however, he realized that there was no chance of gaining Jewish recognition and (not unlike Paul turning to the Gentiles) began to introduce distinctively Arab elements, apparently in accordance with the desires of at least some of the Medinian Muslims. Previously he had told his followers to face Jerusalem when they performed the worship.

Now according to the traditional story, white he was conducting the worship in the prayer place of one of the Medinian clans, he received a revelation to face Mecca instead and head all the congregation turned round and completed the worship facing Mecca. Ever since then, Mecca has been for Muslims all over the world, the Kiblah or direction to be faced in worship. In this way, was dramatized the break with the Jews. There had already been Arab elements in Islam the revelation had been an Arabic Quran, that is, a religious lecture for the revelation had been an Arabic - speakers and the Ka'abah had been acknowledged as a house of God. Now Mecca and the Ka'abah were linked up with Abraham and at the first opportunity, Muhammad himself attempted to perform the pilgrimage to Mecca and the circumambulation of the Ka'abha, thereby Islamizing several old Arabian rites.

(1) Dr. Philip HittI, Islam and the West, an Historical, Cultural survey, 1962, pp. 9 - 11 - 22 - 23 - 26 - 27.

In Medina gradually the seer in him recedes to the background, the politician, the practical man of affairs, emerges. A change in the character of the revela-

ويرى فيليب حتى: أن سيرة الرسول محمد ﷺ قد كتبت من الذاكرة بعد وفاة النبي – ﷺ – بزمن طويل، وأن كتاب السيرة كتبوها كما وقعت بالفعل، وأنهم قد اختلقوا وخلعوا على مؤسس ديانتهم وباني مجدهم كثيرًا من التبجيل والتعظيم ووضعوا لذلك أحاديث ونحلوه أفعالًا ليست له، يقول حتى في نفس المرجع: «مع أن محمدًا قد ولد في فترة مضاءة تاريخيًّا، فإن الوجود التاريخي لمحمد يحيرنا. إن أول كتاب سيرته قد كتب بعد 140 سنة من وفاته؛ وحتى هذه السيرة فإنها قد بقيت في صورة تنقيح ابن هشام الأخير لها فقط، وابن هشام هذا قد توفيَ في القاهرة سنة 833م.

وفي ذلك الوقت كان مؤلفو السيرة شرعوا يكتبون بالفعل عن بطلهم كما تصوروه في وهمهم وليس كما هو عليه في واقع الأمر، وقد مر توقيرهم وتبجيلهم لمؤسس عقيدتهم، وباني مجدهم خلال مرحلة تمزج المثالية بالوثنية، وفي آخر الأمر تصل إلى الافتتان والعبادة في دين عامة الشعب... ولقد وضعت الكلمات في فم الرسول ونسبت إليه أفعال تصوروا أنه فعلها بينما يرفضها السياق....»[1].

tions is noted, those fiery passionate incisive ones emphasizing the oneness of God, His attributes, and the duty of man towards him and expressed in rnymned and musical style.

now yeild to the verbose, prosaic ones dealing with such matters as ritualistic fasting and prayer, marriage and divorce, slaves and prisoners of war.

(1) Though bor n within the full light of history, the historical eludes us. His first biographer died in Bagdad about 140 Muhammad years after his death and even that biography has survived only in a later recension by Ibn Hisham who died in Cairo in 833. By that time biographers were already writing about their hero as they thought he should have been, not as he was. Veneration for the founder of their faith and the creator of their glory had passed through the stage or idealization into idolization and at least in folk religion, in adoration.

Two devices worked out by the early Muslim community served to loosen the rigidity of Islam's beliefs and practices. Words were put into the mouth of the Prophet of acts to him which it was thought he would have done and

ويشرح رودنسون موقف المستشرق هنري لامانس من محمد (ﷺ) وأهل بيته عامة قائلًا: «البحوث المقبولة لديه هي فقط تلك التي تظهر عدم الرضا بمحمد وأهل بيته. وإن تحيزه العميق، وانتهاكه لحرمة النصوص لم تكن بالأمر الهين، كما أن

---

said had he been confronted with a particular situation.

The authority of the Hadith, be it recalled, is second only to that of the Koran. Because it is a congregation with no centralized religious authority, consensus of the community fills that deficiency, to bolster futher the authority of public opinion, a hadith was ascribed to the Prophet; My community shall not agree on error". Through this device, the miracles of Muhammad were accepted, the cult of saints with its concomitants of shrines, pilgrimages and vows was universally adopted; "circumcision to which there is no Koranic reference, became a couterpart of baptism in the Christian church and coffee - first considered a form of wine - developed into a national drink, Espendiency supplied what authority lacked or decried Arab historians, mostly theologians, had a simple explanation for that spectacular expansion from a hithere to internationally insignificant Arabia resulting in the utter destruction of the greatest power in the East and striping the greatest power in the west of its fairest pronvices.

It was all providential, in line with the clerical explanation of Christianity's spread and with the Hebrew Interpretation of the conquest of Canaan, the motivation, we are assured, was religious - to propagate the faith. The fact is that the motivation was primarily economic. The surplus population of a desert peninsula had to seek elbow - room in adjacent lands. The lure of booty did not entirely escape the early historians of conquest. The Islam that first Conquered was not the religion but the state - not Mohammedanism but Arabianism. The Arabians burst in upon an unsuspecting world as a nationalist theocracy, seeking a fuller material life. Two or three centuries had to pass before Syria, Iraq and Persia presented the aspects of Muslim lands. When their peoples flocked to the fold of Islam, they were in general motivated by self - interest • economic social and political

أخطاءه قد أدته إلى الإدلاء بأحكام فاسدة»[1].

ويثير كينن كراج مسألة أخرى عالجها كثير من المستشرقين، تتلخص في الطعن في كُتاب سيرة الرسول (ﷺ) خاصة، والقدح في المؤرخين المسلمين بعامة، يرى Dr. k. cragg [2] أن سيرة الرسول في التحليل الأخير ما هي إلا قصة أسست على الاختيار الخالص «يعني أن كتاب السيرة قد اختاروا ما كتبوه ولم يكتبوا ما وقع بالفعل من أحداث وأقوال».

كتب المستشرق المعاصر مكسيم رودنسون بحثًا استعرض فيه أهم الدراسات التي خصصت لسيرة محمد (ﷺ) في الغرب والشرق وعلق عليها.. وكان مما علق به على كتاب هنري لامانس ما يلي:

(1) The only accounts acceptable to him were those that reflected unfavorably on Muhammad and his family.
His excessive prejudice، his violation of the texts alittle too often، and his errors have justly called forth severe Judgments."

(2) K. Cragg، The Call of Minaret. P. 93 Oxford، 1956
The prophet's biography is finally the story of a crucial choice، no less crucial than that implicit in the contrasted Gospel saying. "The cup that my Father hath given me، shall I not drink it" ? it the question، how should Prophethood succeed ? What is the final relation of the messenger of God to the people to whom he Is sent when they forbear to hear ? The Muhammedan decision here is formative of all else in Islam، it was a decision for community، for resistance، for external victory، for pacification and rule. the decision for the Cross - no less conscious، no less formative، no less inclusive was the contrary decision، it is impossible to say precisely when the choice became final in Muhammad's career. Some have argued a marked deterioration In the character of Muhammad in the Medinian years. That is probably too simple، mistaking a symptom for its source.
The deeper truth is that at some point، Muhammad elected for a religious authority، armed with sinows of war and means of government and that the decision worked itself out in character، conduct and destiny

«... بينما لم يخصص مستشرق عملًا بأكمله لسيرة محمد في تلك الفترة، ظهر رجل هيمن على الدراسات الأوروبية المتعلقة بمحمد خلال الثلث الأول من هذا القرن العشرين؛ ذلكم الرجل هو Henri lammence، البلجيكي اليسوعي فرنسي المشاعر، المستشرق المعروف الذي رشحت خبرته أو حرفته الكهنوتية على اتجاهه الاستشراقي....

«وقد كان هنري لامانس – إضافة إلى ذلك – ممتلئًا بالاحتقار الرهيب للإسلام، ولمجده «الزائف» ولرسوله «الفاسق» الداعر، و«لنفاقه». ولعرب الصحراء الذين كانوا في تقديره جبناء متبجحين، نهبة، مخربين.

وبنفس الروح شن لامانس هجومًا شرسًا ضد.... بالاشتراك مع جامعة القديس يوسف في بيروت؛ ذلك المركز النشط للدراسات العربية، ثم عرج صوب الخليفة علي بن أبي طالب فوصفه بالبدانة والقباحة والجبن وسوء الخلق، والاستسلام المهين لغطرسة زوجته الغبية، المتذمرة، فاطمة...» [1].

(1) Maxime Rodinson، A critical Survey,,, P,26,

يتحدث مكسيم رودنسون عن الاهتمام المتزايد في الغرب بقراءة سيرة محمد ﷺ فيقول: «عقد نادي الكتاب الفرنسي استطلاعًا للرأي بين قرائه بغرض تحديد أعظم الشخصيات التي يرغبون في ظهور سيرتها الذاتية مع ترتيب الظهور، في البرنامج الخاص بنشر سيرة ذاتية لعظماء الإنسانية الذي اضطلع به نادي الكتاب الفرنسي، وكانت نتيجة الاستطلاع أن جاء محمد علي رأس القائمة والفارق كبير بينه وبين الآخرين: ص 23.

Muhammad was at the head of the list and by a large margin "

وهذا نص كلام رودنسون عن هنري لامانس بحروفه وألفاظه:

«In addition، he was filled with a holy contempt for Islam، for its "delusive glory، for its "dissembling" and "lascivions" Prophet، for the Arabs of the desert who in his judgment were crowds and swaggerers، plunders and destroyers. Associated with the University of Saint Joseph of Beirut of Arabic studis he bitterly attacked (in the same spirit)... Turning towards the past he Lashed out against the Calif Ali whom he characterised as obese، ugly، timid، immoral، given to the tyrannizing of his wife، the "dull" and complaining" Fatima.

Taking up the investigations begun by Ignaz Godziher and the ideas which

وأظن أن مثل هذه الاستنتاجات الخاطئة لقبائل المستشرقين هي التي دفعت الدكتور طه حسين إلى قولته المعروفة: «والغريب في أمر المستشرقين - في هذا الموضوع وأمثاله - أنهم يشكون في صحة السيرة النبوية نفسها، ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود؛ فلا يرونها مصدرًا تاريخيًّا صحيحًا وإنما هي عندهم - كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعًا - طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق، ليمتاز صحيحها من منحولها... - هم يقفون هذا الموقف العلمي من السيرة، ويغلون في هذا الموقف، ولكنهم يقفون من أمية وشعره موقف المتيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق، ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة.

فما سر هذا الاطمئنان الغريب على نحو من الأخبار دون الآخر؟ أيكون المستشرقون أنفسهم لم يبرؤا من التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات؟!!

ولعل غلو بعض المستشرقين في هذا الصدد قد دفع الدكتور عبد الرحمن بدوي ليكتب سفرًا باللغة الفرنسية «دفاع عن النبي ﷺ» صدر مؤخرًا عن دار «ألفابيتا» للنشر بباريس.

* * *

he had set forth. Lammence pushed to the extreme the critical analysis of Muslim tradition. unmasked without mercy the later political tendencies behind the narratives which recounted the deeds and sayings of the Prophet and those of his companions.

In this relentless and deperete pursuit of the apocryphal. he utilized without discretion the critical tools which the nineteenth Century had used against his own faith.

لمحة عن موقف المستشرقين من العقل الإسلامي وإنجازاته في مجال التشريح والفقه، والأصول والكلام والفلسفة والتصوف

أرى أن ما ذكرته آنفًا يكفي لتوضيح جهود المؤسسة الاستشراقية في محاولتها النيل من القرآن والحديث؛ أصلي الإسلام، والطعن في صحتهما، والتشكيك في مصدرهما. ولم يكفهم هذا، بل راحوا يطعنون في الصرح التشريعي والفقهي الشامخ الذي أقيم عليهما (فهم حريصون على تجريد المسلمين والعقلية الإسلامية والفكر الإسلامي بصفة عامة، من كل القيم الإنسانية والابتكارات العلمية[1]، فزعم المستشرق (شيلدون آموسي) أن: الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقية معدلًا وفق الأحوال السياسية في الممالك العربية. ويزعم أيضًا أن: القانون المحمدي ليس سوى قانون جستنيان في لباس عربي[2].

(1) الدكتور زقزوق ص 106.

(2) قارن بحث الدكتور محمد سليم العوا في كتاب (مناهج المستشرقين) وللتوسع في الاطلاع على كتب المستشرقين وبحوثهم يمكن الرجوع إلى الكتب التالية:

- Arberry A. J.The Koran Interpreted، Oxford Univ.Press 1964.
- Gibb. - Coulson، N.J.: A history of Islamic Law. Edenburgh. 1964.
- Mohammadanism. 2nd. ed. Landon، 1964.
- Macdonald: Development of Muslim Theology، 1965.
- Montgomry Watt: Islamic Philosophy and Theology، 1965
- Schacht J. 1 - : An Introduction to Islamic Law، Oxford، 1956 2 - : The Origins of Muhammadan Jurisprudence، 2nd ed. Oxford، 1956
- MIngana A. An important Manuscript of The Traditions of Bukhari. Cambridge، 1936.
- Nicholson. A literary History of the Arabs. Cambridge. 1962

ويدلل هؤلاء على دعواهم بأساطير خرافية، منها: أن النبي ﷺ كان على معرفة واسعة بالقانون الروماني. كما أن فقهاء المسلمين قد تعرفوا على آراء فقهاء مدارس القانون الروماني، وأحكام المحاكم الرومانية في البلاد التي كانت لاتزال فيها هذه المدارس والمحاكم قائمة بعد الفتح الإسلامي[1].

وذهب المستشرقون كل مذهب في محاولة تجريد المسلمين من كل ميزة أو فضل أو أثر في مجال العلوم بعامة؛ والعلوم العقلية بخاصة... يقول المستشرق (سنتلانا المتوفي 1939م) في محاضراته (دروس في التعاليم الفلسفية التي كان يلقيها على طلابه في كلية الآداب بجامعة القاهرة ولا تزال محفوظة بخط يده في مكتبة الجامعة، يقول: «.. والعلوم الإسلامية مؤسسة منذ بدء نشأتها على علوم اليونان وأفكار اليونان، بل وعلى أوهام اليونان،.... حتى لا يكاد يفهم آراء حكماء الإسلام، ولا مذاهب قدماء المتكلمين ولا يدع المبتدعين، من لم يكن له بحكمة اليونان معرفة شافية، لا مجرد إلمام، وهذا لا يحتاج إلى عيان»[2].

أما المستشرق (ألفريد جيوم Alfred Guillaume) فإنه يدافع بحرارة وحماس عن ذلك قائلًا: نرى طائفة من كتاب الغرب تذهب إلى أن الفلسفة المسماة بهذا الاسم «الفلسفة العربية» ليست إلا خليطًا من آراء القدماء لا تجانس بين مواده المتخالفة... فهم منتهون إلى أنه ليس هناك شيء اسمه فلسفة عربية، وإلى أن الشعوب الناطقة بالضاد لم تفعل شيئًا أكثر من أنها استولت على

- Wensinck. The Muslim Creed. Cambridge. 1932
- A Handbook of early Muhammadan Tradition. Leiden. 1927
- Fitzgerald. The Alleged Dept of Islamic to Roman Law. LWR. VoL 67.1951.. PP 11 • 102
- Robson: The Isnad in Muslim Tradttion» and The Material of Tradition».

(1) السابق نفسه.

(2) سانتلانا: (دروس في التعاليم الفلسفية نشرها د. عصام الدين محمد علي في الرياض بعنوان (الوجود الإلهي) ص 34 ط 1981.

الفلسفة اليونانية التي كانت شائعة بين المسيحيين من أهل سوريا، والمثقفين من أهل حران الوثنية، ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من فارس والهند».... ثم يدلي بحكمه قائلًا: «ومهما يكن من شيء فإن من الحق أن نرد الفلسفة العربية في مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التي غزاها العرب، وأن نعتبر الفلسفة اليونانية المعين الذي استقوا منه مذاهبهم.. ومن الحق كذلك أن نذهب إلى القول بأن ما أضافه العرب من الثقافة الإنسانية إلى تراث من سبقهم من المفكرين، لم يكن كبير الشأن ملموس الأثر، وبالرغم من هذا، فإننا على يقين من أن ما خلفته الحضارة الإسلامية لا خطر له، أو ليس أكثر مما ورثته عن غيرها من الحضارات...» [1].

هذا ويتهم المستشرق المعاصر Nadav safran الإسلام نفسه بأنه سبب تأخر المسلمين «لأن القصور الذي جاءت به رسالة محمد أدى إلى القول بأن العناية الإلهية هي صانعة التاريخ، وإلى أن ظهر محمد كانت وجهة النظر الممكنة تقر بأن أحداث التاريخ متطلعة إلى الكشف الكامل للإرادة الإلهية، ولكن بظهور محمد انتهى كل ذلك؛ على اعتبار أن محمدًا خاتم الرسل، ولا تمام يرجى شكلًا أو موضوعًا من الإرادة الإلهية أكثر من ذلك.

وعلى ذلك يمكن للتاريخ أن يتحرك فقط صوب المستوى الذي وضعه محمد.... ومن الواضح أن الكمال من وجهة النظر الإسلامية يبحث عنه في الماضي[2].

---

(1) ألفريد جيوم: (الفلسفة والإلهيات) في الجزء الأول من (تراث الإسلام) ترجمة الدكتور توفيق الطويل، نشرة مصورة عن لجنة الجامعيين للنشر ص 221 – 323.

(2) Nadav Safran، Arab and Jews، P.16.
"The conception of Muhammad's mission has led to a pessimistic view history. Until the appearance of the Prophet، it was possible to of view the historical process as progess toward a perfect revelation of God's will but with the appearance of Muhammad، this process came to an end. Since Muhammad was viewed as the "Seal of the Prophets'، no further perfection

أي بظهور محمد ﷺ توقفت حركة التاريخ المتقدمة الصاعدة الباحثة عن التمام والكمال، لأن محمدًا وضع المقياس الذي لا تتعداه حركة التاريخ، ومن أراد الكمال والتمام – من المسلمين – فلينظر صوب الماضي وحده، لأن المقياس الأعلى في السمو قد صنعه محمد ﷺ، ولا يستطيع أحد أن يتعداه، وهذا في رأي المستشرق (نداف سفران) اليهودي سبب تأخر المسلمين.

ليس ذلك فحسب لكن المستشرق الكبير «واط» يحاول بكل سبيل أن يبرهن على أن الشريعة الإسلامية صناعة بشرية خالصة، ويجردها من كل قيمة دينية علوية فيقول: «إن إنزال عقوبة الرجم على مرتكب جرم الزنا يبين كيف أن العادات غير العربية أصبحت إسلامية. فالعقوبة التي جاءت في القرآن لجريمة الزنا هي الجلد؛ بيد أن بعض الفقهاء قد أقروا بعقوبة الرجم إن كان مرتكب الزنا محصنًا. لقد كانت العقوبة الشائعة في المدينة – أثناء حياة محمد – هي الجلد....، وعندما دخل الإسلام بعض رجالات المسيحية اليهودية عقدوا العزم على العودة إلى العقوبة التي ألفوها. وفي واقع الأمر بدأت القصص تروي لإظهار أن محمدًا وبعض كبار صحابته قد مارسوا تنفيذ عقوبة الرجم»[1].

---

could be expected in the statement and interpretation of the Divine will. Henceforth, history could move only on or below the level to which Muhammad had raised it and, as a matter of fact, the chances that it would remain on that level were poor. It is clear that in the Islamic view, perfection is to be sought in the past to which all present activity must refer for justification.

(1) M. Watt: Ibid, P. 192

"The infliction of the punishment of stoning for adultery (if what is becoming standard Western interpretation of the confused material is accepted), shows how a non - arab custom could be Islamized.

The Quranic punishment for adultery is flogging; but some of the Jurists also recognized stoning as a punishment in the case of married persons. The normal punishment for adultery at AMedina in Muhammad's time life was flogging though to begin with and in certain cases it may have been

ثم يكشف «واط» اللثام عن نقطة أخرى وهي أن دراسات كل من «إجناس جولدزيهر ويوسف شاخت» عن تطور وتطوير الشريعة الإسلامية، قد أدت إلى تنافر وجهتي النظر الغربية المعاصرة والإسلامية، يقول «واط» لقد حدث تقدم عظيم في فهم العلماء الغربيين في القرن الأخير لتطور الشريعة الإسلامية. فالخطوة المتميزة التي خطاها «جولدزيهر» نحو نقد الحديث النبوي قرب نهاية القرن التاسع عشر، والخطوة الأخرى وثيقة الصلة بالشريعة قد أتمها حديثًا يوسف شاخت في كتابه: (أصول الشريعة المحمدية) طبع في أكسفورد 1950 وكنتيجة لهذا العمل وأعمال مستشرقين كثيرين أخرين أصبحت النظرة الغربية المعاصرة إلى تطور الشريعة الإسلامية مختلفة تمامًا عن النظرة الإسلامية العامة المعتمدة»[1].

ويأتي مستشرقنا الكبير لمناقشة فريضة الجهاد الإسلامية، والحكم عليها بأنها أضعف جوانب الإسلام وأنها ليست إلا عادة عربية قبلية قديمة، يقول «واط»: «في الوقت الذي أصبحت فيه الدولة الإسلامية إمبراطورية، وبرغم أنه من الشكوك فيه اعتبار فكرة الجهاد فكرة مناسبة أكثر من اعتبارها فكرة غير موائية، فإنه بينما

house imprisonment When many persons from the Judaeo - Christian tradition became Muslims، They tended to retain the punishment of stoning to which they had been accustomed. Eventually، stories began to be circulated showing that stoning had been sanctioned and practiced by Muhammad and some of the leading Companions

(1) I.b.d.P.199

"There have been great advances in the understanding of the development of the Shariah By Western scholars during the last century. A notable step toward in the critique of Islamic tradition was made by Ignaz Goldziher towards the end of the 19th century and another step more specifically connected with the Sahriah has recently been made by Joseph Schacht in his Origins of Muhammadan Jurisprudence، (Oxford 1950) As a result of the work of these and many other scholars، the modem Western View of the development of the Shariah differs considerably from the orthodox Muslim View.

يمكن للقبيلة في الصحراء أن تعتبر كل جيرانها بمثابة أعداء لها، فإنه لا يتيسر للدولة الكبيرة المعقدة أن تسلك هذا الطريق. وفي صدر الإسلام كان لزامًا على كل مسلم قادر أن ينخرط في معسكرات الجهاد.. وكان أكثر المسلمين يناضلون ليبقوا لائقين للخدمة العسكرية طوال حياتهم لأنهم بذلك يحققون ميزة العيشة الأرستقراطية كجزء من الطبقة الحاكمة الأرستقراطية. وعندما تراخى التوسع، ومع أنه أصبحت الحرب أكثر ضراوة، والغنائم أقل كمية، فإن كثيرًا من المجاهدين لم يرغبوا في مغادرة معسكرات الجهاد ضمن الحملات العسكرية الشاقة المتجهة صوب الثغور البعيدة.... ووجد القادة المسلمون أخيرًا في توظيف المرتزقة الذين قد لا يكونون مسلمين حلًّا لذلك.

وهكذا فإن فكرة الجهاد أو الحرب المقدسة قد توقفت وفقدت أهميتها.. ولربما كانت فكرة الجهاد أوهن الجوانب في تصور الأمة الإسلامية؛ لأنها قد طورته من الفكر القبلي العربي القديم[1].

(1) M.Watt,Ibid,P.160

"By the Islamic state had become an empire, however, it is doubtful whether the Idea of the Holy war was more advantageous than disadvantageous. While it may be possible for a desert tribe to regard all Its neighbours as enemies, it is not easy for a large and complex state to behave this way. In Muhammad's closing years, it had been obligatory for every able - bodied Muslim to take part in the campaigns unless excused. Most Muslims seemed to have been content to remain liable for military service throughout their lives, they had the privilege of living as part of a ruling aristocracy. When the expansion slowed down, however, and the fighting became harder and the booty less plentiful, many were unwilling to leave the camp sites for arduous expeditins to distant frontiers... Eventually muslim leaders are found employing mercenaries who might not even be Muslims. Thus the Idea of the Holy war ceased to have much real importance... Jihad is perhaps the weakest part of the conception of the Islamic community as it has been developed out of the old Arab idea of the tribe."

ويلح «مونتجمري واط» على توضيح فكرته قائلًا: «مع أن الإسلام قد عبر عن الناموس الإبراهيمي بصفة أكثر ملاءمة للمقولات الفردية أو الشخصية لبعض الشعوب الشرقية على الأقل، أكثر من المسيحية التي قدمت هذه التقاليد الإبراهيمية بطريقة ما، أكثر مناسبة للمقولات العقلية لتلك الشعوب التي تكون معظم الشعوب المسيحية – من الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت – من الناطقين باللغة اليونانية واللاتينية وأحفادهم.

ويقول «واط»: «إن نظرة الإسلام إلى الأسفار المقدسة Bible وإلى تاريخ المسيحية خلقت مشاكل لا يمكن تصورها البتة أمام قبول الأوروبيين للإسلام. وتوجد إشارة ضئيلة في الإسلام – لتحرك ما – نحو توحيد التعاليم المتنافسة بما يمكن مقارنته مع ذلك الاتفاق الذي تم بين الإغريق واللاتين بشأن مبدأ التثليث أو الثالوث على أنهم سواسية[1].

لكن مونتجمري واط يجزم بأن الإسلام لن يجد قبولاً عامًا، ولن يصبح نظامًا عالميًّا، حتى ولو افترضنا أنه قد أصبح الدين الوحيد على الساحة العالمية نتيجة ظرف طاريء مثل حرب عالمية أخرى قد اندلعت فأتت على الديانات الأخرى

(1) M. Watt. Ibid. P 275.
"Although Islam has produced a from of the Abrahamic tradition more suited to the individual categories of at least some oriental peoples than Christianity، it Is a long step from that to allowing that Islam has produced a from of the Abrahamic tradition in any way suited to he intellectual categories of the peoples who constitute the Christendom - Catholic، Orthodox، and Protestant، the great body of Greek and Latin speakers and their descendants. The attitude of Islam towards the Bible and towards the history of Christendom has made it almost wholly unaware of the problems Insolved in presenting Islam to Europeans. There is a little sign in Islam of any move towards the integration of rival traditions comparable to the agreement between Greeks and Latins to regard their formulations of the doctrine of the Trinity as equivalent.

وبقي الإسلام وحده، فهل سيقبله المجتمع الإنساني؟ يرى «واط» أن الناس لن يقبلوه لسببين رئيسيين هما:

(1) لأن الإسلام قد اعتمد في أصوله وفي تطوره على التعاليم اليهودية والمسيحية.

(2) تحت هذا الظرف المفترض (أن الإسلام قد أصبح الدين الوحيد نتيجة حرب عامة أخرى) فإن الذين سينتقلون للإسلام من تعاليم أخرى تختلف في تصوراتها العقلية عن تلك التي يتمتع بها الإسلام، والتي من المفترض أن يتقبلوها كما هي بدون تمحيص، وأن ذلك سيكون خسارة فادحة للمجتمع الإنساني فيما يتعلق بعنصر التنوع والثراء[1].

فالإسلام - كما يرى «واط» - ما هو إلا تطوير للناموس الإبراهيمي ليلائم بعض شعوب الشرق الأوسط فحسب نظرًا لطبيعة تصوراتهم وأنظارهم العقلية،

---

(1) Ibid، PP. 275 - 6.

"Suppose that as a result of another world war in which all other religions were seriously weakened، Islam became the dominant religion throughout the world and that its rivals gradually faded away; could this be regarded as a satisfactory Integration of worid society?

The answer would seem to be that this could not be satisfactory for two reasons. One is that such a world - religion would presumably not have fully accepted and acknowledged its dependence on Christian and Jewish traditions in its origins and its formative period and such a failure to accept one's past is as unhealthy for a society as for an individual، the other reason is that under the supposed circumstances، those who came Into Islam from traditions whose intellectual categories were rather different from the intellectual categories of the Islamic tradition would presumably have to accept without question the formulations in terms of the intellectual categories of the existing Islamic tradition. This would be a collossal loss to world society of an element of variety and richness. In the course of time، this movement of loss might in some measure be made good by a I diversification within Islam but that coud not be reckoned on."

وأنه لا يلائم الشعوب الغربية؛ لأنه لا يلبي تطلعاتهم العقلانية التي ملأتها المسيحية بعد أن قبلت الخلفية الإغريقية، وكذلك فإن العالم أجمع لن يتقبل الإسلام كنظام عالمي لأنه مؤسس على أصول مسيحية يهودية، ولأنه سيفرض مقولاته على الذين سيؤمنون به دون تمحيص لها أو تفكر فيها وبهذا يقضي الإسلام على التنوع الفكري والثراء العقلي للإنسانية، ولن تصبر البشرية على ذلك.

ومن الغريب الواقع هذا التفسير الطريف الذي جادت به قريحة «W.M.Watt» لنجاح الإسلام وقبول الشرق له على نطاق واسع؛ لأن الإسلام كان – في رأيه – رد فعل أو كان بمثابة إجابة الشرق ضد تحديات الغرب المتمثلة في احتلال الإسكندر لأقطار الشرق الأوسط، ونشر موجة من التأثير اليوناني في المنطقة؛ يقول «واط»:

«لقد كان من التهور الكبير ادِّعاء أحد مواطني مكة المعزولة أنه قد أسس دينًا مناظرًا للديانتين اليهودية والنصرانية. كيف يتأتى لرجل لم يتجاوز أتباعه ثلاثمائة رجلًا في معركة بدر سنة 624م أن يضع نفسه في نفس مستوى عيسى الذي يبلغ عدد أتباعه ملايين داخل الإمبراطورية الرومانية وملايين خارجها في الشرق والغرب معًا؟....

لقد كانت هناك حاجة يجب أن تلبَى، وجاء الإسلام ملبيًا إياها. لقد كانت تلك الحاجة دينية في الأساس لكن السياسة قد غطت عليها. لقد لوحظ أن العرب كانوا في ريبة من اليهودية والمسيحية معًا بسبب غلبة المطامع السياسية عليها. ويمكن أن يقال إن محمدًا كان إجابة الشرق ضد تحدي الإسكندر الذي اجتاح الشرق الأوسط غازيًا مع ما صحبه من موجة من التأثير الإغريقي [1]. وقد انتقل الصراع بين التأثير الإغريقي والشرقي إلى المجال الديني.

(1) معنى هذا أن واط يرى أن الإسلام ليس أكثر من حلقة في سلسلة الصراع بين الشرق والغرب، ولعله يشير هنا إلى نظرية توينبي في التحدى والاستجابة (challenge and response) وبهذا يسلخ منه ربانيته وأنه وحي يوحي، وبهذا لا يكون محمد ﷺ إلا تعبيرًا عن تحدي الشرق للغرب، وليس رسولًا إلى الناس كافة، ورحمة للعالمين.

قفًا، لقد كانت المسيحية ديانة شرقية غزت أوروبا، لكنها هناك ضمنت (لغمت al-gamated) بخلفية إغريقية[1]. وبتعبير آخر بينما عبرت المسيحية عن تقاليد العهد القديم (Old testament) بصياغة مناسبة للحاجات الروحية والتصورات العقلية لمعظم طبقات مواطني الإمبراطورية الرومانية، لم يحدث شيء مشابه في المسيحية بتقديم تعبير للتقاليد المسيحية اليهودية judaec – Christianity لسكان الشرق الأوسط.

لقد كان الإسلام قادرًا على تلبية الحاجة التي لم تف بها المسيحية؛ تلك الحاجة الملحة لشعوب الشرق الأوسط الناطقة بغير اللغة اليونانية إلى التعبير عن التقاليد الإبراهيمية بنفس تصوراتهم العقلية[2]. ولم يكن محمد في وضع يسمح له بالتنبؤ لكل ما ستتطور إليه تعاليمه في المستقبل، لكنه استطاع أن يرى في زمانه حاجة العرب إلى التعبير عن التقاليد الإبراهيمية بنفس مقولاتهم، وبدون إقحام للسياسة في ذلك[3]».

(1) يقر هنا «واط» بما هو معروف أن الديانة المسيحية التي انتشرت في أوروبا ليست هي التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام، ولكنها الديانة التي لغمها أو ضمنها القديس بولس وآباء الكنيسة بخلفية إغريقية فلسفية وثنية (انظر كتاب: Christianity and Hellenism).

(2) يعود «واط» فيؤكد أن الإسلام لا يناسب إلا شعوب الشرق الأوسط.

(3) W. M. Watt, Islam and the Integration of Society, PP. 268 - 9

" There was great audacity in the claim of a citizen of obscure Mecca that he was founding a religion parallel to Judaism and Christianity.

How could a man who had only 300 followers at the battle of Badr in A.D. 624 put himself on the same level with Jesus whose followers then numbered in the millions of the Roman empire and the millions outside of it in both east and west? This would seem to be an undue exaggeration of his importance.

Nevertheless a case can be made out for holding that this conception of parallelism was not ideological. There was a need to be met and Islam met this need. it was fundamentally a religious need but politics was involved, it had been noted that the Arabs were suspicious of both Judaism and Christianity because of their political implications.

Muhammad, it has been said, was the answer of the east to the challenge

ثم يقدم «واط» مثالًا على عقيدة المسلمين الراسخة في تحريف التوراة بقصة الذبيح التي وردت في القرآن الكريم واجتماع المفسرين المسلمين على أنه كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ثم يؤول انفراد الطبري المفسر في قوله إنه إسحاق بأن الطبري كان من الفرس الذين يعتبرون أنفسهم إلى جانب اليهود أنهم أبناء إسحاق، في مقابل الحزب العربي من المسلمين الذين هم أبناء إسماعيل، يقول «واط»: «والمثال الطريف على قوة عقيدة تحريف أسفار الكتاب المقدس متضمن في تفاسير قصة تضحية إبراهيم بابنه، ذكرت هذه الواقعة في القرآن في السورة رقم 37: 102 – 110 لكن اسم هذا الابن لم يذكر، ومن المفترض أنه لا سبب معقول لكي يفترض كل واحد ابتداءً أن الذبيح لم يكن إسحاق.

وبمرور الوقت أصبحت هذه المسألة مثار تجاذب بين المسلمين المتنافسين من عرب وعجم وفرس، فاعتبر إسحاق جد الفرس واليهود معًا.. وكثير من النصوص التي ساقها الطبري مبكرًا بينت أن الذي أخذ للذبح في التوراة (العهد

---

of Alexander whose conquest flooded the Middle East with a wave of Greek influence. The struggle between Greek and oriental influences had been transferred to the religious plane. Christianity، an oriental religion، had invaded Europe but there it had become amalgamated with the Greek outlook. In other words، while Christianity expressed the Old Testament tradition in a form which suited the intellectual categories of most classes of the spiritual needs and Citizens of the Roman empire، nothing similar was done to provide an expression of the Judaeo - Christian tradition for the inhabitants of the Middle East. Islam was able to meet a need which Christianity had not met، the need of certain of the non - Greek - speaking peoples of th Middle East for an expression of the Abrahamic tradition in their own intellectual categories. Muhammad was not in a position to foresee all this future development of his teaching but it could be seen in his time that the Arabs were in need of an expression of the Abrahamic tradion in their own intellectual categories and without political implications.

القديم) هو إسحاق؛ وأن الطبري الذي كان ينحدر من أصل فارسي كان يفضل هذا الرأي. أما الحزب المناصر للعرب فقد أجاب بأن هذا موضوع من مواضيع تحريف التوراة. وفي النهاية انتصر الحزب المؤيد للعرب وأصبح اليوم اعتقادًا عامًّا بين المسلمين أن ابن إبراهيم الذي كان على وشك أن يضحي به هو إسماعيل. وبهذه الطريقة فإن وجهة النظر التي تبناها العرب وأيدوها، وكانت مؤيدة كذلك بعقيدة تحريف التوراة في هذا الموضوع، قد تغلبت على التفسير الطبيعي للقرآن طبقًا لما جاء في أسفار العهد القديم. وليس من المبالغة في القول أن نذكر أن عقيدة تحريف التوراة قد سيطرت على عقول المسلمين لدرجة أنهم لم يأبهوا كثيرًا إلى ما إذا كانت تفاسيرهم للقرآن مطابقة للتوراة والإنجيل أم لا»[1].

(1) M. Watt. Ibid. PP. 264 - 5

"An interseting example of the strength of the dogma of "corruption" is contained in the interpretations of the story of Abraham's sacrifice of his son. The event is mentioned in the Quran (XXXVII; 102 - 110) but the son's name is not given. There is no reason for supposing that to begin with، anyone would suppose that the son was not Isaac. In the course of time، the question became intertwined with the rivalry between the Arabs and the Persians. Isaac came to be regarded as the ancestor of the Persians as well as the Jews.... Many of the early authorities quoted by al - Tabari knew that in the old Testament، Isaac was taken for the sacrifice and al - Tabari، himself of Persian origin، prefers this view. The Pro - Arab party replied that this wasa place where the scriptures had been corrupted. In the end، the pro - Arab party won and it is now universally held by Muslims that the son Abraham was about to sacrifice was Ismail. In this way، a view which honoured the Arabs and which supported and was supported by the dogma of "corruption" overcame the natural interpretation of the Quran in accordance with the Old Testament. It is not too much to sqy that the belief that the Bible was corrupt had so come to dominate the minds of muslims that they no longer cared whether their interpretions of the Quran were in accordance with the Bible or not. (pp. 264 - 265).

فالمستشرق «واط» يفترض على المفسر أن ينظر في التوراة والإنجيل ليستمد منها تفسيره الطبيعي للقرآن، وإن لم يفعل فإن تفسيره حزبي متعصب للعرب من جهة، وغير طبيعي من جهة أخرى، وهذا ليس مستغربًا من «واط» فانظر ما كتبه في بحثيه:

The Missionary Task of the Church in Syria and Palestine, Int. Rev of Mission, 36 - 62 1947.

The Church in The Muslem World, S. W. Geneva, 1948.

ويأتي واط إلى القول بعدم صلاحية الشريعة الإسلامية لحاجات العصر؛ ثمة محاولة جرت حتى الآن تشير إلى بعض الوظائف الإيجابية للشريعة باعتبارها وسيلة للوحدة الاجتماعية الإسلامية، لكن السؤال الذي يجب أن يُسأل هو عن الوظائف السلبية للشريعة، وعما إذا كانت تؤدي وبأي طريق إلى تمزق المجتمع الإسلامي. لكن الطبيعة المميزة للشريعة على أنها أمر خارق معجز يخلق صعوبات للدول الإسلامية التي تحاول في الوقت الحاضر إقامة مؤسسات دستورية عصرية على أسس من الشريعة. ولأن الشريعة لم تكن قانونًا عمليًّا تطبيقيًّا حتى في دولة العصور الوسطى للإسلام فإن من العسير جدًا مواءمتها أو صلاحيتها لحاجات اليوم»[1].

---

(1) M. Watt, Ibid, PP. 207 – 208.

"So far, an attempt has been made to indicate some positive functions of the Sharia as an instrument for Islamic social integration but now it must also be asked whether It has any negative functions

and whether it contributes in any way to the desintegration of Islamic society. This peculiar nature of the Shariah as the mark of charisma creates difficulties at the present time when Islamic states try to frame modern constititions on the basis of the Shariah. Since the Shariah was hardly a practical code even for a medieval state it is extremely difficult to adapt it to the needs of today.

See also; An Introduction to Mohammadan Law and Bibliography, by Nicolas P. Agnides, SMP 1981 Lahore.

ولأن الشريعة – عند المستشرقين لم تعد ملبية حاجات العصر – فإن Phillp Hitti يبشر بتحديث العالم الإسلامي عن طريق اعتماد العلمانية القاضية بإقصاء الاعتقاد في العناية الإلهية منهجًا وسبيلًا، يقول في كتابه: «Islam and the west، Ant historical cultural survey، Princeton، 1962».

«التحديث على المستوى العقلي الروحي يتطلب العلمانية؛ العلمانية التي تعني أكثر من الفصل بين الدولة والكنيسة، إنها تحل تفسير الأحداث التاريخية والوقائع الجارية للفرد تفسيرًا عقلانيًّا مؤسسًا على القوى والعوامل المادية والنفسية، محل تفسيرها بالعناية الإلهية. ومن النادر أن تصادف إصدارًا لصحيفة عربية سيارة تفتقر إلى تكرار ذكر اسم الله في مصدر تقاريرها عن الولادة والموت، عن الصحة والمرض، عن الحظ والتعاسة، عن النجاح والفشل – إنه بقية من التفكير البالي»[1].

أما المستشرق المعروف Dr. Wilfrid cantwell smity فيتحدث عن ثلاثة أنواع متباينة من الإسلام هي: دين القرآن، دين العلماء، ودين الجماهير. ويمتدح تركيا الكمالية لأنها ألغت النوع الثاني من الدين، وأصبحت بذلك رائدة للعالم الإسلامي كله، يقول (سميث): هناك ثلاثة أنواع من الإسلام؛ ديانة القرآن، وديانة العلماء، وديانة الجماهير. وهذا النوع الأخير – إسلام الجماهير – إسلام خرافي أسطوري ضبابي وتقديس أعمى. والنوع الثاني مستغرق تمامًا في شريعة ما قبل العصر....

---

(1) Philip Hitti. Ibid, P. 93.
"Modernization on the intellectual - spiritual level involves Secularization means more than separation between.
church and state. It replaces providential interpretation of historic events and current happenings to the individual with rational interpretation based on physical and psychological forces. Hardly a current issue of an Arabic newspaper lacks repeated mention of the name of Allah in connection with reports of birth and death, sickness and health fortune and calamity, success and failure - a relic of bygone thinking."

ولقد تخلصت تركيا الكمالية من النوع الثاني للإسلام تمامًا، ولقد كان الوقت مواتيًا لمحوه، ونحن – بهذا – قد قدمنا الطريق أمام العالم الإسلامي، الذي يحتاج إلى إصلاح، وتقف تركيا في مقدمة الصفوف في العالم الإسلامي في مجال الإصلاح الديني»[1].

ثم يؤكد ولفريد سميث على إحلال مؤسسات جديدة أكثر مواءمة للظروف المعاصرة محل تلك المؤسسات الإسلامية. ويؤكد على أن الإسلام كان تقدميًّا لوقته، لكن الزمان والظروف قد تغيرت اليوم على نطاق واسع.. ولكي يكون الإسلام مفهومًا ومقبولًا من الطبقة المثقفة عليه أن يعيد النظر في أطروحاته تمامًا بطريقة حديثة»[2].

(1) Wilfred Cant Well Smith, Islam in Modem History, Princeton University Press 1987. "There are three (slams: the religion of the Quran, the religion of the ulema and the religion of the masses. This last is superstition.
obscurantism, fetishism. The second is bogged down with the whole weight of out - of - date legalism - impossible stuff making it nesessary to get a Fatwa before one can have one's teeth filled by a dentist. Turkey has got rid of the second. It was time to abolish it. We have thus led the way of the Muslim world. Islam needs a reformation. To this extent Turkey is in the forefront of the Islamic world."

(2) W. C. Smith, Ibid, P. 178.
"More controversially, this spirit can be detected in suggestions or assumptions that the institutions of Islam can and should be replaced with new ones more in tune with contemporary conditions.
Already during the 1920's radical changes In the rites and is the decision arising from observances of Islam including its prayer ritual and mosque services were being officially discussed. The kemalists are prepared to consider such proposals seriously. Islam was progressive tor its time but times and conditions have meanwhile changed. The logic through which orthodoxy was earlier expressed has ceased to be an accepted mode of thought and ceased to be an effective Instrument of communication.
Therefore, they feel If Islam or any other religion Is to make itself under-

ثم يدلف إلى نقطة أخرى يرى فيها أن الشعوب المسيحية في أوروبا وتركيا تقرر مصيرها ومصير شعوبها بنفسها خيرًا أم شرًا، وهذا خلق وإبداع قد يكون حسنًا أو سيئًا؛ لكنه على كل حال نوع من الإبداع. والمبدع الخلاق أفضل – من كل وجه – من ذلك الذي لا يبدع ولا يخلق.. وإن أردنا أن نميز بين أولئك الذين يبدعون والذين لا يبدعون، ولا يعرفون الإبداع، بل ولا يقبلونه، فيبدو أنه من غير الملائم أن يقال إن المتدين أو المسلم وحده هو غير المبدع[1].

ويطرق الدكتور Kenneth cragg مسألة تغير الزمان وتغير ظروف المجتمع، وبالتالي يجب إعادة النظر في الأحكام والتعاليم الإسلامية على ضوء ذلك، ويقدم مثالًا على ذلك تحريم الوثنية والصور التماثيل وما إليه في بداية الإسلام؛ لأن العرب كانوا شديدي التعلق بعبادة الأصنام والأوثان، ثم انتشر التوحيد وسيطر وتمكن من القلوب والعقول، فلم يصبح لتحريم الصور والتماثيل والأصنام مغزي، خصوصًا إنه كان يحرم الفنانين من الإبداع والخلق في مجال الفنون، ومن ثم على المسلمين أن يعيدوا النظر في هذا الشأن[2].

---

stood. let alone acceptable to educated men. Its propositions will have to be formulated In quite a new way.

(1) W. C. Smith. Ibid. P. 181.

"People in Western Christendom and In Turkey and incipiently now throughout. the world are determining their own and their nations future for good or ill. They may be bungling; that Is. creating badness. But that Is vitally different from not being creative at all. While one may wish to distinguish between men who do not know It and do not accept it. it would seem inept to call religious or Muslim only the uncreative.

See : also Modern Islam In India. By W.C. Smith. Lahore. 1969.

(2) Dr. Kenneth Cragg. The Dome and the Rock; Jeruselem Studies in Islam. London. 1961. P. 138.211.

وانظر للمؤلف كذلك كتابيه:

- «The Call of Minaret. Oxford. 1956. P. 325

ويعود المستشرق ويلفريد كانتويل فيقترح علينا ما يجب أن نفعله كي نصلح ديننا ونجدده[1]. ثم يقول إن أي مجموعة تريد أن تصلح الإسلام علينا أن نسألها على أي سلطة تقيم مقترحاتها؟ فالإصلاحات الكمالية في تركيا قد استندت إلى ثورة أتاتورك؛ هذا الحدث العظيم الذي كان بمثابة ميلاد جديد لتركيا، الذي انتشلها من الانحطاط والضعة إلى القوة والعزة [2]... فالأتراك يشبهون الغربيين المعاصرين..، أنهم شعروا أنهم صانعوا مصائرهم والمسئولون عنها[3].

ثم ينادي المستشرق اليهودي (Goitein) بضرورة إحلال العاميات المحلية محل لغة القرآن الفصحى؛ لأن اللغة العربية الفصحى غير قادرة على مواجهة حاجات المجتمع الحديث[4].

- Islamic Survey، Edinburgh 1965، P107.

«Even supposing، as the argument runs، the prohibitions in the Quran and Hadith as they have been interpreted are valid، times obviously change : they change، indeed because of the very success of Islam. A society like that of the Hijaz in the Prophets day، was so prone to idolatry that only the most ruthless prohibitions would suffice. With Quraish، nothing would abvail but a total and such mushrikin as the absolute veto on pictures of living beings. it would، however، be folly to treat a Muslim society today after centuries of Islamic tauhid with the same stupid severity.

Such a policy would be equivalent to saying that Islam had failed and that no Muslim could be trusted not to take a picture for an idol.* A ban، once necessary، can be safely lifted : to dispute it would seem to disqualify Islam itself، (p. 131)... The Muslim fear of idolatry is always sound. But the security against it is not in the banning of artists any more than God›s unity is safeguarded by vetoing the Incarnation of Christ into man. It is a true recognition of Him in undivided love. That love may include unashamedly the help and benediction of the senses and the arts”.

(1) D. W. C. Smith. Ibid. P.. 307 – 8.

(2) Ibid. P. 190

(3) Ibid ، P. 180

(4) S. D. Goitein. Jews and Arabs. New York، 1955. PP. 43 - 46.133 - 134.

" In Western Europe، the surrender of Latin to Local languages and" the rise

ضل بعض هؤلاء المستشرقين ضلالًا بعيدًا، وأضلوا جيلًا كثيرًا فقالوا إن القرآن معوق للفكر مقيد لحريته[1]. وأن المسلمين تلقوا فيه أحكامًا ولم يتلقوا فيه عقائد[2] وأن النظر العقلي العربي كان محاولة لإصلاح القرآن وتكميله في الجانب الذي قصر فيه[3]... ويرى (جيوم) أن من العسير أن نقول إن القرآن قد قدم إلى المؤمنين المادة اللازمة لتكوين مذهب في فهم الله»[4].

وفند كل من الشيخ مصطفى عبد الرازق في «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية»، والدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة في تعليقاته على كتاب (دي بور) والدكتور محمد البهي في «الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي» والدكتور محمد مصطفى الأعظمي في (دراسات في الحديث النبوي) والشيخ عبد الجليل عيسى في كتابه (صور استشراقية) وعباس العقاد في (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه)

---

of national vernaculars marked the transition from medieval to modem times. The Arab countries are in a similar situation. The difference between the classical literary language and the colloquial - even that spoken by the most educated persons - is immencse with all the negative effects of such a dualism on literature, spiritual development in general and even on morals. Twenty years ago it seemed that Egypt would actually do something about this grave problem and I venture to surmise that if at that time Egypt had been a really independent state whith some outstanding creations - not only some pleasant collections of short stories - available in the local vernacular, we would have had today a national Egyptian language which would have done away with that linguistic dualism that is so detrimental to the Arab mind. (PP. 133 - 134)

(1) هذا رأي تنمان.

(2) هذا رأي دي بور في «تاريخ الفلسفة في الإسلام» ص 66، ترجمة د. أبو ريدة، طبعة القاهرة 1970م.

(3) هذا رأي Munk.

(4) مرجع سابق ص 278 ويمكن للقارئ الكريم أن يراجع بحث المستشرق أيرنست باركر Barker أستاذ السياسة بجامعة كمبردج في (تراث الإسلام) الجزء الأول – ليرى ما فيه من تعصب وغلو.

و(ما يقال عن الإسلام) والدكتور مصطفى السباعي في (السنة ومكانتها) وإدوارد سعيد في (الاستشراق) والدكتور زقزوق في (الاستشراق) و(الإسلام في الفكر الغربي) - فند هؤلاء وغيرهم - بعض مزاعم المستشرقين تفنيدًا علميًّا منهجيًّا.

وخلاصة القضية أن كثيرًا من هؤلاء المستشرقين قد تواطؤوا على دراسة الإسلام بمنهج معوج أشد ما يكون الاعوجاج، وقدموا الإسلام في صورة كريهة مشوهة لمواطنيهم، فسمموا عقولهم وأفسدوا مشاعرهم تجاه الإسلام.. هذا من ناحية... ومن ناحية أخرى واتت ظروف كثيرة وتضافرت في أن تجعل لهم تلاميذ مخلصين من أبناء المسلمين أنفسهم، يحملون رسالتهم، ويسيرون في الشوط إلى غاية مداه... وقد مكن الاستعمار لهؤلاء التلاميذ في أرض الثقافة والإعلام والتربية والتعليم والاقتصاد والقضاء والأمن والسياسة والحكم.. إلخ في بلادهم الإسلامية، فساقوها سوقًا نحو الغرب، وحملوها حملًا على أن ترد أسوأ موارده وأخسها..وتترك أرقاها وأنفعها، وعمل هؤلاء على سلخ العالم الإسلامي - بقصد وبدون قصد - من هويته وأصالته وذاتيته وخصائصه، ومن ثم ضاع الطريق من تحت أقدامه، لأنه لم يصبح غربيًّا، ولم يبق إسلاميًّا كما كان.. وإنك قد تقرأ لبعض تلاميذ المستشرقين بحوثًا وكتبًا فيصعب عليك أن تحدد ما إذا كانت لمستشرق أو مستغرب.. فالمنهج المتنكب للصراط السوي هو هو، والقضايا المثارة هي هي!! مثل قضية تطوير الشريعة، وإصلاح نقصها، وفصل الدين عن الحياة، وتطوير اللغة العربية.. وتركيز الإحساس بالعجز في نفوس المسلمين، وعدم صلاحية دينهم للعصر وعدم مواكبته لتطوره إلخ.

«حتى يترسخ في وجدان المسلم أنه لا يستطيع أن يعيش عيشة عصرية راقية وهو يتمسك بالشريعة، وأن الإسلام إذا كان صالحًا لمواجهة حالة البداوة، فإنه غير قادر على مواجهة العصر الحاضر بتعقيداته وظروفه المركبة، ومن ثم على المسلم أن يختار بين الدين والحضارة الغربية، وما يؤدي إليه أحدهما من جمود، وما يؤدي إليه الآخر من تطور ومدنية...

«ولا شك أن انقطاع المسلمين - فترة طويلة - عن ممارسة الاجتهاد، وتراكم عديد من الظواهر والمشكلات التي تنتظر الحل الإسلامي لها، كان من العوامل التي تستغلها هذه البحوث لزرع اليأس والقنوط، ودفع المسلمين إلى التخلي - ولو جزئيًّا - عن الإسلام، وكانت هذه الآثار والنتائج تلقي بظلالها الثقيلة على مفكري الإسلام الذين انشغلوا بالبحث عن سبل النهضة الإسلامية وإقامة المشروع الحضاري الإسلامي»[1].

(1) د. مدكور ص 153.

من إنجازات المستشرقين

بذل المستشرقون جهودًا ضخمة مضنية في دراسة الإسلام ولغته وآدابه وعقيدته، وتاريخه، وقرآنه وسنته، وحضارته، وأعلامه.. إلخ وألفوا كتبًا وقواميس ودائرة معارف، وحققوا مخطوطات، وعقدوا مؤتمرات كثيرة للتدارس فيما بذلوه وما ينبغي أن يقوموا به من عمل.

ومهما يكن من شيء، فإن الدارس المنصف لابد أن يقف مندهشًا أمام هذه الجهود الكثيفة المتكاملة المتضافرة المؤثرة إلى أبعد حدود التأثير للمستشرقين، كذلك حرصهم ودأبهم ومثابرتهم على تجميع المخطوطات الإسلامية بكل الطرق وترتيبها وفهرستها والتعريف بها وتحقيق الكثير منها.. ولابد أن نعترف أن كثيرًا من هذه المخطوطات ما كان لنا أن نعرفها إلا بواسطة بعض المستشرقين، بل ربما ما كان لها أن تبقى حتى اليوم - ولأصبح مصيرها مصير مخطوطات جدي رحمه الله - لولا عنايتهم بها ورعايتهم لشأنها.

وإن ما أثمرت جهودهم من مثل: تفصيل آيات القرآن، الذي تمخضت عنه فكرة المعجم المفهرس للقرآن الكريم، وكذلك المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لأمر غير منكور. أما دائرة المعارف الإسلامية التي وضعوها فإنها لا تزال عمدة الدارسين من العلماء والطلاب على ما بها من اضطراب وقصور.. ويؤسفني أن أقول في هذا المقام: إن جامعاتنا ومؤسساتنا ومراكز بحوثنا - على كثرتها ووفرة إمكانياتها - قد عجزت وفشلت في وضع البديل الذي يضارعها أو يسد مسدها، ومن الثمرات غير المنكورة للجهد الاستشراقي أنه حفز كثيرًا من العلماء الأجلاء إلى الاستجابة لهذا التحدي الكبير، ودراسة تراثنا دراسة عميقة واعية للتعرف على

ما ينطوي عليه من عوامل القوة والنهوض، وموجبات الرقي والتقدم، وحسنات الأخلاق، وفضائل القيم من ناحية، ولمقاومة الهجمة الاستشراقية والاستعمارية والتبشيرية الشرسة من ناحية أخرى. تلك ثمرة عظيمة غير مباشرة للاستشراق تحققت.. كما أن المستشرقين قد طرقوا موضوعات جديدة.. وفي بعض الأحيان طريفة لم تكن معروفة أو مألوفة، فلفتوا أنظار الباحثين المسلمين إليها، وشحذوا هممهم إلى العناية بها واستثمارها وتطويرها كما أنهم قد وظفوا منهجيات بحثية مفيدة.

وبعد: فإن آراء المستشرقين وافتراءاتهم قد راجت وانتشرت، وساعد على ذلك تكامل جهودهم، وامتلاكهم أدوات التأثير، وهيمنة الحضارة الغربية على العالم اليوم، كما ساعدهم تفرق جهود الباحثين في الشرق الإسلامي، وضعف مكانة الأمم الإسلامية في عالم الفكر والسياسة، واقتناع نخبهم الفكرية والثقافية وقياداتهم السياسية والإعلامية بأساليب وأنماط الحضارة الغربية.

المستشرقون والنظرة الاستعلائية للغرب

يبقى أن نشير إلى أن الاستشراق في منطقه المتعالي ينسجم تمامًا مع نظرة الاستعلاء والعنصرية الغربية... فالغرب كان - منذ الإغريق والرومان وحتى اليوم - يرى نفسه معدن الحضارة، ومركز العالم، والجدير بالسيطرة والتفوق... يرى نفسه السيد والشعوب الأخرى همجًا وبرابرة أو حتى رقيقًا، ولقد تمكنت نظرة الاستعلاء في الإنسان الغربي حتى أضحت بمثابة الغريزة المركوزة أو الجبلة الثابتة، وقد بررها لهم بعض كبار فلاسفتهم من لدن أفلاطون وأرسطو.. إلى نيتشه ورينان وجوزيف آرثر جوبينو، وجوتيه، وبروهيه، وكوزان... وقد كانت النظرة العنصرية (Racialism) الغربية السبب البعيد وراء معاناة الإنسانية بصورتها الأليمة البشعة حتى يوم الناس هذا.

وقد حاول كل من أفلاطون وأرسطو تقديم سند فلسفي للنزعة الغربية المتعصبة المستعلية، قال أفلاطون في كتاب «الجمهورية» - وهو من أهم ما كتب إن لم يكن الأهم - : «أليس من الدقة أيضًا أن نقول إن الشعوب اليونانية تجمعها رابطة القرابة ووحدة الأصل، وتختلف عن البرابرة في الجنس والدم؟ هذا صحيح!! فإن قاتل اليونانيون البرابرة، أو البرابرة اليونانيين، فعندئذ نقول: إن بين الفريقين حربًا، وأنهما بطبيعتهما أعداء.. ولكن ألن تكون الدولة التي نريد تشييدها دولة يونانية؟ هذا ضروري»[1] ثم يقيم دولته على أساس طبقي عنصري ويعمق تأكيد التفاوت العرقي الطبيعي بين البشر تحت شعار: أداء كل لوظيفته الطبيعية» «والعمال - عنده - من أي نوع كانوا - من أفراد القطيع أو الدهماء، وهم بحكم تعريفه لهم: بهائم منحطة التفكير، تريد أن تملأ بطونها، لها رغبات وليس لها مثل عليا»[2].

(1) أفلاطون: الجمهورية، ص 362 - 3 من نشرة الدكتور فؤاد زكريا، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(2) جورج سارطون: تاريخ العلم جـ 3 ص 38 ط 3 ترجمة الدكتور توفيق الطويل نشر دار المعارف.

كما فلسف كل من سقراط وأفلاطون العبودية والرق على أنها ظاهرة طبيعية، فإن هناك أناسًا ولدوا ليكونوا أرقاء، وأن الرقيق يستحق مصيره لأنه لا يصلح إلا له»[1].

وإني لأقدر موقف الدكتور فؤاد زكريا المنصف الذي عبر عنه بقوله: «أليس لنا أن نشك في قيمة وجدية كل مذهب أخلاقي يكون الرق عنصرًا أساسيًّا فيه، ومبدأ يبرره المذهب عن وعي.. هذا تجاهل للكرامة الإنسانية في أول وأهم مقوماتها»[2].

ويدين جورج سارطون الفيلسوفين - أرسطو وأفلاطون - لأنهما اعتبرا أن المتبربرين - أي غير اليونانيين - من جنس أدنى، وأنه من الصواب شهر الحرب عليهم، واستئصال شأفتهم، واسترقاقهم، وأن اليونانيين ولدوا أحرارًا، والمتبربريين ولدوا عبيدًا.. ومما يذكر للإسكندر الأكبر بالتقدير أنه استطاع أن يرتفع بنفسه عن مستوى أستاذه أرسطو»[3]، ويقول سارطون: «أدرك الإسكندر ما لم يدركه أفلاطون وأرسطو، وهو إمكان قيام وحدة بين جميع البشر... وأن أقوى دليل على فضل الإسكندر وعبقريته استطاعته وحده التغلب على ميول أفلاطون وأرسطو الخبيثة[4]». في العنصرية والاستعلاء واسترقاق الشعوب.

أما برتراند رسل فيقول: «لقد أخطأ اليونان خطأ فاحشًا حين أحسوا شعور السيادة على الشعوب البربرية - غير اليونانية - ولا شك أن أرسطو قد عبر عن فكرتهم العامة في ذلك الحين فقال: «من الخطأ أن يُتخذ اليونان عبيدًا، لكن ذلك عندهم جائز بالنسبة للشعوب البربرية، لأن اليونانيين وحدهم الذين يجمعون بين التحضر وشعلة الحياة التي تملؤهم»[5].

---

(1) مقدمة الجمهورية ص 87 وقد ربط سقراط بين العبيد وبين الأرض والعقار بوصفهم مصادر للدخل الذي يأتي بلا عمل.

(2) مقدمة الجمهورية ص 93.

(3) تاريخ العلم جـ 3 ص 178، 179.

(4) تاريخ العلم جـ 3 ص 178، 179

(5) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية جـ1 ص 351، 284، 295، ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود، ومراجعة الأستاذ/ أحمد أمين، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1967 القاهرة.

وعن الاستعلاء الغربي في العصر الحديث يحدثنا الدكتور ألبرت حوراني عن المستشرق الفرنسي المعروف Ernest Renan «وهو واحد من أهم المستشرقين الذين أثروا في تكوين أفكار الغرب تجاه الإسلام».

"E. Renan, one of the seminal figures in the formation of European idea about Islam"

«أقر رينان أن العالم ينقسم إلى قسمين كبيرين هما: (Semites) و(Aryans) وأن الجنس السامي قدم التوحيد والمسيحية والإسلام الذين فتحا العالم، لكن هذا الشرق لم يقدم للحضارة الإنسانية شيئًا يذكر أكثر من ذلك مثل: الأساطير، والأدب الرفيع، والفنون، بسبب البساطة المريعة للروح السامية، التي أغلقت العقل البشري دون فكرة دقيقة، أو عبارة فائقة، وأمام كل ضروب البحث العلمي؛... لذا فهي قد منعت التقدم العلمي.. ويكرر رينان أطروحته هذه في محاضرة له بعنوان: (الإسلام والعلم) فيقول: «كل شرقي وأفريقي وجد نفسه مغلولًا تمامًا بطوق حديدي ضرب على رأس كل مؤمن، وسد أمامه طريق العلم كلية، ولم يفتح أمامه القدرة على إنتاج أية فكرة جديدة.

بيد أن الروح الآرية هي التي أبدعت كل جديد؛ في السياسة بمعناها الحقيقي، والفن، والآداب التي لا يملك الساميون منها شيئًا على الإطلاق (باستثناء شيء يسير من الشعر) فضلًا عن العلم والفلسفة.

وبهذا الخصوص نحن إغريقيون تمامًا، وحتى ما يسمى بالعلم العربي لم يكن أكثر من امتداد العلم الإغريقي، الذي لم ينقل بواسطة العرب، لكن نقلته كانوا من الفرس والإغريق المرتدين على الإسلام، ويقال كذلك: إن المسيحية في تطورها الجديد إن هي إلا صناعة أوروبية.

ومسقبل البشرية - لذلك - مرهون بالشعوب الأوروبية وحدها، وهناك شرط ضروري لتحقيق هذا الهدف، ألا إنه تحطيم العنصر السامي (الشرقي)

في الحضارة، وتدمير قوة الإسلام الثيوقراطية.. ولم يكن هوى رينان مع العالم الإسلامي، بل مع الكنيسة الرومانية والقديس سلبيوسي»[1].

ويؤكد الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرزاق نزعة التعصب الغربية هذه قائلًا: «أما التعصب الجنسي على العرب الذي تبدو له بوادر في كلام (تنمان) فقد كان أيضًا روح العصر، ولم يلبث ارنست رينان الفيلسوف الفرنسي المتوفى 1892م أن زخرف له لباسًا علميًّا من أبحاثة في تاريخ اللغات السامية، ثم جعله حملة شعواء.. وشاركه في حملته تلك المستشرق الألماني كرستيان لاسن Ch. Lassen»[2] وكذلك جوتييه وبرهييه[3].

«ثم جاءت نظرية التفوق النوردي – شعوب أوروبا الشمالية – وهي فرع من نظرية التفوق الآرى – التي تحيا في ألمانيا لهذا العهد – التي تزعمها جوزيف آرثر جوبينو، الذي يرى أن الشعوب الآرية وحدها دون غيرها هي التي خلقت كل ما له قيمة في الحضارة، وحافظت عليه...، وأسندت إليها جميع الفضائل، وقيل إنها منبع جميع الحضارات العالمية من قديم الزمان إلى حديثه.... إلخ»[4].

ويذكر جوج سارطون مرة أخرى: «أن الزعم بأن الثقافة الغربية المستمدة من الأصليين الإغريقي والعبري، أرقى الثقافات، فيه خطر وشر، وهذا الزعم هو المحور الرئيس للمتاعب الدولية في العالم!»[5].

ولا يمكننا أن ننسى للغرب ممارسته العدوانية؛ بصورها المتعددة والمتنوعة..

(1) See: A. Hourani, Islam in European Thought, PP. 28 – 29.
H. Wardman, E. Renan: A Critical Biography, London, 1964 PP. 46 - 47.

(2) الشيخ مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص 9ط 3، مكتبة النهضة المصرية.

(3) المرجع السابق ص 22.

(4) المرجع السابق ص 29/ 28.

(5) جورج سارطون، تاريخ العلم جـ1 ص 21 – 22، طبعة 1979م وانظر ص 122 ومواضع أخرى. وانظر ما كتبه الدكتور توفيق الطويل في كتابه، (أسس الفلسفة) ص 44 الطبعة السابعة.

التقليدية منها والمبتكرة.. ومن بينها السيطرة على شعوب العالم الثالث (البرابرة)[1].... والأمثلة تفوق الحصر.. وليس حظر تصدير التكنولوجيا إلى الدول الفقيرة، مع تدفق الأسلحة والعتاد إليها واستنزاف العقول البشرية منها، واستقطابها إلى الغرب.. مع الحرب الثقافية الضروس لإعادة تشكيل العقل والثقافة في العالم النامي، بما يكرس تبعيته للغرب وذوبانه فيه، ليست إلا مجرد أمثلة من بين عشرات أخرى يمكن رصدها وإبرازها في هذا الشأن.

ومما يستحق التأمل أن الأب الدومينكي الدكتور جورج قنواتي يصرح بأن الغزو الثقافي الغربي للعالم الإسلامي أسطورة كبرى وخرافة لا حقيقة لها ولا أساس!!...، ولا خطر على ثقافتنا؛ ولا خوف على شخصيتنا، ويضيف: إن الدعوة إلى محاربة الغزو الثقافي دعوة باطلة، وناتجة عن مركبات النقص والخوف،..

(1) عن طريق الديون؛ فقد أعلن الرئيس المخلوع السيد حسني مبارك أنه يأخذ من الغرب خمسة مليارات فيطلب منه الأخير ردها أكثر من عشرين مليارًا من الدولارات، وبالأمس أعلن السيد شيفرنادزه في الأمم المتحدة: أن الغرب يغتال آمال وتطلعات التنمية والحياة لشعوب الدول الفقيرة، وأعلن أن الغرب قدم للدول الفقيرة عام 1988م قروضًا تبلغ خمسين مليارًا، وقد سددت هذه الدول الفقيرة في نفس السنة ثمانين مليارًا للدول الغنية.. وإن ما يتم سداده للأغنياء يمثل اقتطاعًا أليمًا وقاسيًا من القوت الضروري لاستمرار الحياة والوجود لهذه الشعوب، ولا يزال الغرب يرى أن الاستنزاف الصارخ للبقية الباقية من مقومات التنمية والوجود في دول العالم الثالث هو الحل الأمثل.

(الأهرام ووكالات الأخبار 1989/ 9/ 30)

والشواهد كثيرة جدًا على عنصرية الغرب واستغلاله؛ منها موقفه العدواني من قضايا الشعوب العادلة في فلسطين وجنوب أفريقيا ولبنان، وكشمير والبوسنة والهرسك وغيرها.. ومن الطرائف أن وكالات الأنباء أذاعت تصريحًا على لسان الدكتور روبرت هارتوج قال فيه إن نصف الأدوية التي تصنع في سويسرا وهي ثالث دولة منتجة للدواء في العالم – غير مطابق للمتطلبات العلاجية أو الأبحاث أو مواصفات مركبات العقاقير، وهذه الأدوية تباع لدول العالم الثالث، وبعضها خطير للغاية، والبعض الآخر بلا فائدة علاجية، كما أن كثيرًا من الأدوية قد منعت الدول الغربية استعمالها في بلادها، ومازالت تنتجها وتصدرها إلى الشعوب النامية الفقيرة.

(الأهرام والأخبار في 1989/ 9/ 30)

وينصح الشباب الطموح ألا يكتفي بما ينقل إليه من تراث لا يستقيم إلا إذا تشبع بروح العصر!![1].

ورغم أن دعوى الأب قنواتي يعارضها الواقع من جهة وتعارضها الدراسات الغربية نفسها[2] من جهة أخرى، فإن تصريحات الدكتور مصطفى هدارة التي نشرت في نفس اليوم الذي نشرت فيه تصريحات الأب المذكور جاء فيها: أن الاستشراق لا يزال يلعب دورًا مريبًا في توجيه الثقافة العربية، فضلًا عن الشبهة في اتصاله الوثيق بأجهزة المخابرات الغربية ضد هذه الثقافة العربية؛ وذلك عن طريق فك الارتباط بالتراث وتشكيكنا في قيمته وصلاحيته وأصالته، ثم عن طريق تركيز الاستشراق المعاصر على الأعمال الأدبية المتأثرة بالغرب فكرًا وأداء يبين أن ثقافته هي التي سادت أخيرًا؛ وكمثال على ذلك فإن حركة الحداثة بالمعنى الأيديولوجي التي سار وراءها أمثال (أدونيس) قد تركت آثارًا مدمرة في اتجاهاتنا الأدبية المعاصرة التي أصبحت محاكاة للفكر الغربي، ولا تعبر عن مجتمعاتنا ولا شخصيتنا... بل تعجب عندما تجد كاتبًا إسرائيليًّا يكتب عن يوسف إدريس ويهاجم كل الذين انتقدوا جنوحه إلى العامية في بعض أقاصيصه، وهو ما يذكرنا بالمعركة الاستشراقية القديمة التي حاولت فرض السيادة للعامية العربية على الفصحى؛ ليفقد العرب أحد مقاومات وحدتهم، بل أهم هذه المقومات... وهو وحدة اللغة ووحدة الفكر.

ما مدى ارتباط هذه الحركة الاستشراقية بالمؤسسات المخابراتية؟

لا شك أن حركة الاستشراق في بداياتها كانت موجهة لمعرفة تفصيلات الحياة الاجتماعية والنفسية للشعوب الواقعة في قبضة الاستعمار، بالإضافة إلى كل ما يقوم به الاستعمار من أمور سياسية ورصد اتجاهات الفكر... والعناصر

---

(1) (الوفد في 1989/ 9/ 21).

(2) Hamllton A. R. Gibb, " The Reaction of the Middle East Against Western Culture" Paris, 1951.

الاقتصادية، ثم عدل الاستشراق مساره، بعد أن دالت دولة الاستعمار، وحل محلها استعمار من نوع جديد، هو: استعمار الفكر، وتسلُّط المباديء الاجتماعية، ونمط الحياة؛ وصولًا في النهاية - إلى الخضوع السياسي والاقتصادي... وكانت (العلمانية) من بين الأغراض المهمة التي أراد الاستعمار بثها، عندما وجد أن الإسلام- خاصة - يرتبط باتجاهات الشعوب الإسلامية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. فكانت الخطوة الأولى «تحييد المسلمين بدعوى الليبرالية - المطلقة، وعدم الخضوع للغيبيات» فيما يسمونه. وقد أثرت هذه الحركة على بعض المفكرين ووجدوا أن نمط الحياة الأوروبية قد يكون مثلًا أعلى يحقق لمجتمعنا التقدم والرفاهية... ولكنهم أخذوا بالظاهر دون الجوهر.

وكانت هناك دعوات - ربما أخلص أصحابها في إعلانها - كدعوة د. طه حسين إلى تعليم اللاتينية واليونانية حتى في مدارسنا الثانوية تقليدًا لنمط التعليم في أوروبا، بالإضافة لاتخاذ النمط الأوروبي سبيلًا لحياتنا في كل جوانبها، ولم يتحرج من الدعوة لخروج مصر من آسيا وإفريقيا إلى حوض البحر المتوسط!!.

لقد تطورت المخابرات الغربية تطورًا هائلًا في السنوات الأخيرة - وأصبحت بحاجة لمعلومات على قد كبير من الخطر والأهمية... ولا شك أن وجود مستشرقين متخصصين في العربية وآدابها، ومعظمهم يأتي للبلاد العربية، ويقيم فيها فترات قد تطول يجمعون قدرًا كبيرًا من المعلومات التي قد تفيد مؤسسات الاستخبار في بلادهم... وإن لم يكونوا كما كان أسلافهم من المستشرقين القدماء مرتبطين ارتباطًا كليًّا بأجهزة هذه المخابرات أو متوجهين للدراسات العربية من أجل تحقيق هذا الهدف.

وسئل: «معنى هذا أنك تتهم مؤسسات الاستشراق المعاصرة بارتباطها ببعض أجهزة المخابرات في العالم؟ فأجاب: بالطبع[1]».

---

(1) (الأهرام في 1989/ 9/ 21م).

وأسوق من جانبي حديث الرئيس الفرنسي (ميتران) الذي جاء فيه: إن السوق الأوروبية قد أقمناها من أجل حماية شعوبنا من سموم الثقافة الأمريكية ومن خطر الاختراعات اليابانية... وكما أن هناك هواءً ملوثًا وماءً ملوثًا، فالجو الأوروبي ملوث بالتلفزيون الأمريكي!! ولابد من الوقوف والمعارضة والصمود»[1].

(1) (الأهرام في 1989/9/30).

الإسلام في كتابات علماء مقارنة الأديان الغربيين[*]

1 - صورة الإسلام كما رسمها المبشرون والمستشرقون:

لقد شعر الغرب أن الإسلام يشكل تحديًا هائلًا له منذ السنوات الأولى له[2].

ولقد تمثل هذا التحدي في الجوانب العقائدية، فقد جاء الإسلام بالتوحيد الواضح المفهوم السهل النقي، ووضع حدًّا فاصلًا بين الألوهية والبشرية عكس ما كانت عليه العقيدة النصرانية من غموض ولبس وتعقيد، تمثل في الجمع المتناقض بين التثليث والتوحيد، وتأليه البشر، والتجسد والحلول.. إلخ.

كما تمثل التحدي الإسلامي للغرب في الجوانب السياسية، فلقد جاء ليحرر الناس من الظلم والجور والبطش والعسف والاستكبار الذي مارسه ضدهم الأباطرة الغربيون في روما وبيزنطة، فلقد رحبت الشعوب في سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا وجزر البحر المتوسط، إلخ بالفتح الإسلامي أشد ترحيب؛ لأنه جاء ليخلصهم من نير الاستعباد الغربي لهم، ويعلن ويطبق مبادئ حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة، ويشيع روح العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، ويسقط كل أنواع التمييز الطبقي، ويحرر المستبعدين.. إلخ.

وقد تمثل التحدي الإسلامي للغرب في الجوانب الحضارية، حيث أرسى مبادئ التسامح وأغلق أبواب التعصب، وشجع على الانفتاح والتواصل، وفرض طلب العلم على الرجل والمرأة ويسّر سبل تحصيله، وحفظ حقوق الأقليات الدينية، ومنح الإنسان حرية الاعتقاد وحمي سلطانه هذه الحرية، ومن هنا فقد ازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهارًا عظيمًا، واضعة كرامة للإنسان هدفًا ساميًا لها.

(1) بحث لنا قدمناه في الندوة الدولية عن مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي بالرياض سنة 1999.

(2) Albert Hourani, Islam in European Thought, Cambridge Uni Press, 1991.
Karen Armstrong, Muhammad, New York, 1992.

ولقد تصرف الغرب إزاء هذه المشكلة العقائدية السياسية الحضارية التي استشعرها؛ تصرفًا ينسجم مع تعصبه وعنصريته واستعلائه، فراح ينسج لهذا الدين الجديد - الإسلام - صورة مزيفة، قلب فيها خصائص الإسلام، وحقائقه رأسًا على عقب، رسم له - بعناية وحرص - صورة سوداء كالحة السواد، بغية تسويق هذه الصورة البشعة المنفرة المخيفة للمواطن الغربي، بهدف تحصينه ضد الإسلام[1].

ولقد احتمل رجال الكنيسة كبر هذا العمل، وتحول رجال الكنيسة إلى مبشرين محترفين[2] Missionaries ومستشرقين Orientalists، يدرسون الإسلام من كل جوانبه، بهدف دحضه أو تشويهه، بغية تسميم عقل المواطن الغربي ووجدانه ضد الإسلام ليصبح كارهًا له خائفًا منه، وبذلك يبلغ الغرب هدفه في تحصين مواطنيه ضد هذا الدين.

ولقد أنجز المبشرون الغربيون والمستشرقون أكبر وأوسع عملية تزييف وعي أو غسيل مخ في التاريخ الإنساني كله، لقد خان هؤلاء أماناتهم ولم يقدموا لذويهم في الغرب الحقيقة - حقيقة هذا الإسلام بخصائصه السامية - كما هي عليه، فأساءوا إلى مواطنيهم، وأساءوا إلى الإنسانية كلها؛ إذ تسببت أعمالهم ودراساتهم في توتر العلاقات وتكريس العداء المزمن المستحكم بين الغرب والإسلام والمسلمين، فضلًا عن تأجيج نيران الحروب الصليبية في العصور الوسطى، ثم حروب الاستعمار، ثم محاولات الغرب المستميتة للهيمنة وفرض السيادة والسيطرة على المسلمين.. لقد برز تلاقي الاستشراق

---

(1) انظر كتابنا الاستشراق، دار الفكر العربي بالقاهرة، 1993م.

Edward said. Orientalism. New York. 1979.

(2) Conferences of Christian Workers Among Moslems 1942.

كتاب التبشير: خطة لغزو العالم الإسلامي، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين أيري (كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1978، ونشرته دار Marc بعنوان:

The Gospel and Islam" A 1978 Compendium.

وانظر: د. عمر فروخ، د. مصطفى الخالدي: الاستعمار والتبشير، ط2، المكتبة المصرية، بيروت.

مع التبشير في الأهداف بموافقة مجمع فيينا الكنسي[1] على إنشاء أقسام للدراسات العربية والإسلامية في جامعات أوروبا الكبرى سنة 1314م، ولقد تحالفنا فيما بعد مع الاستعمار العسكري والسياسي والاقتصادي والثقافي الغربي للعالم الإسلامي[2].

وهكذا قد أصبح العداء للإسلام والكره العميق له مسيطرًا على المناخ العقلي الغربي العام لدرجة أن عباقرتهم الكبار أمثال شكسبير ودانتي وفولتير وكارلايل لم يستطيعوا الإفلات منه، فما بالك بالإسلام العادي[3].

2 - صورة للإسلام كما رسمها علماء مقارنة الأديان الغربيون:

بعد أن أشرنا إلى الصورة الشائهة المزيفة التي رسمها للإسلام كل من المبشرين والمستشرقين، نأتي إلى الجماعة الثالثة التي هي محل عنايتنا في هذا البحث، وأعني بهم علماء مقارنة الأديان الغربيين.

يجدر بنا أن نشير - هنا - إلى أن علم مقارنة الأديان، أو علم دراسة الأديان علم حديث النشأة في الغرب[4]، فلقد وضع وثيقته التأسيسية في منتصف القرن الماضي عالم الفلولوجيا: ماكس ميوللر، ولقد ذهب علماء مقارنة الأديان إلى أن دراسة الأديان دراسة منهجية موضوعية تساعد على اكتشاف الذات في ضوء اكتشاف الآخر، ولعل ذلك يترجم الشعار الذي أعلنه ماكس ميوللر وقال فيه:

Who knows one knows none

أي أن الذي لا يعرف إلا ديانة واحدة، فهو لا يعرفها معرفة عميقة موضوعية، أو معناه حسب تفسير مؤرخ الأديان الكبير Eric sharpe: أن الذي يعرف المسيحية فحسب، فهو لا يعرف شيئًا.

(1) Francis Dovemik. The Ecumenical councils. NY 1961.

(2) راجع: تراث الإسلام، القسم الأول، شاخت وبزوت، سلسلة عالم المعرفة.

(3) الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة بالكويت، 1957م.

(4) Eric Sharpe. Comparative Religions. NY. 1961.

وقد اتخذ علم مقارنة الأديان لنفسه مناهج متنوعة، من أهمها:

- المنهج التاريخي الوصفي descriptive Historical Approach

- المنهج التحليلي المقارن، والمنهج الاجتماعي والأنثروبولوجي والمنهج النفسي والظاهراتي Phenomenological، والمنهج النقدي[1] إلخ.

وما قصدت التنبيه إليه هنا، هو أن علم مقارنة الأديان عندما نشأ في الغرب، كانت الصورة التي رسمها الاستشراق والتبشير للإسلام قد استقرت في العقل الغربي، وتشربها الوجدان الأوروبي تمامًا.

ويمكننا القول: إنه بالرغم من انفصال علم مقارنة الأديان عن الاستشراق والتبشير موضوعًا ومنهجًا، فإنه - أي علم مقارنة الأديان - قد وظف - إلى حد ما - في دراسته للإسلام بعض ملامح تلك الصورة السطحية النمطية Stereortype التي قد نسجت في البيئة الثقافية الغربية للإسلام واستقرت فيها.

لكننا نلاحظ أن كثيرًا من علماء الأديان الغربيين المعاصرين قد تحرروا من الوقوع في أسر تلك الصورة المزيفة الذائعة في الغرب عن الإسلام، وهنا تكمن أهمية النظر في دراساتهم عن الإسلام، وفيما يقدمونه لطلابهم من معلومات عنه، فهي أصح - إلى حد كبير - من تلك التي روجها المبشرون والمستشرقون، ومن تلك التي تنشرها وسائل الإعلام الغربية بهدف «شيطنة» الإسلام، و«أسلمة» الإرهاب[2].

ولعل السبب في تحسن صورة الإسلام في كتابات علماء الأديان الغربيين يرجع إلى أن معظمهم يعمل لحساب الحقيقة الخالصة في سموها ونبلها وجلالها، وليس لحساب مؤسسة الكنيسة الغربية، أو الحكومات الاستعمارية، كما أننا نلاحظ أن كثيرًا من هؤلاء العلماء يرجعون - عند الكتابة عن الإسلام - إلى مصادر الإسلام

---

(1) انظر: مناهج علماء الغرب في مقارنة الأديان، صفية عبد الله - رسالة ماجستير بإشرافنا، الجامعة الإسلامية - إسلام آباد.

(2) الأستاذ/ محمد سلماوي، عنوان مقاله الأسبوعي في صحيفة الأهرام القاهرة، أبريل 1991م.

الأصلية، وربما كان للمقارنة بين الأديان دور مهم في التعرف على الخصائص العامة لكل دين؛ لأنه عند المقارنة الموضوعية تتكشف الحقيقة وتستبين، وتفرض نفسها ساطعة آسرة، وقد لاحظنا أن بعض هؤلاء العلماء الغربيين قد تحولوا – مع الدراسة والمقارنة – من الكاثوليكية أو البروتستانية إلى العلمانية – secularism، وقد تعطي هذه الملاحظة ضوءًا على محاولة التعرف على الأسباب الحقيقية وراء إقلاع هؤلاء العلماء عن الافتراء على الإسلام وتشويهه والتنفير منه.

وقد بدأ هؤلاء العلماء – منذ مطلع القرن العشرين تقريبًا – في تأليف كتب عن الأديان الحية في العالم، بمنهج تأريخي وصفي، يتناولون فيه كل ديانة على حدة – من حيث نشأتها، ومؤسسها أو رسولها، والأسفار التي تقدسها، وعقائدها، وعباداتها وطقوسها، وشرائعها ونظمها، وفرقها وتطورها، وأتباعها وتوزيعهم على خريطة العالم المعاصر.

وهذه الكتب كثيرة تعد بالعشرات، وقد تخيرت عددًا من أهمها، وهي كتب تدرس في الجامعات الأمريكية والبريطانية (text Books)، أو تتخذ مراجع علمية أساسية للمختصين في هذا الحقل، وهذه الكتب هي:

* The World›s Religions، by Ninian Smart، Cambridge Unipress، 1989.

* Religions of the World، by Lewis Hopfe، London، 1987.

* Muhammad A Biography of the Prophet، by Karin Armstrong، H. Collins، NY 1992.

* Man›s Religions، by John Noss، Ny 1956.

* The Religions of man، by Huston Smith ، USA، 1988.

* The World›s Living Religions، by Geoffrey Parrnder، London، 1974.

* Six Religions in the 20th. Century ، by Owen Cole، G. B. 1984.

* History of the Religions; Doctrines & Ideas، by Mircea Elide ، USA. 1983.

وهؤلاء العلماء يمثلون مشيخة هذا التخصص في الجامعات الأمريكية والإنجليزية اليوم.

3 - بعض من أخطائهم وسلبياتهم:

لقد وقع بعض هؤلاء المؤلفين في بعض الأخطاء الصريحة، وهي صريحة لأنها تخالف ما عليه الواقع المعلوم، وهي صغيرة لأنها لا تحتاج إلا أن ننبه أصحابها إليها، وأظن أنهم سوف يصوبونها عند تنبيهنا لهم، ومن أمثلة هذه الأخطاء.

قولهم: إن جبريل عليه السلام، عندما نزل على الرسول (ﷺ) لأول مرة في غار حراء، كان ممسكًا بكتاب فيه كلام مكتوب، وقدمه إليه، وقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فالمعلوم من كتب السيرة والسنة أن جبريل لم يقدم كتابًا مكتوبًا للرسول (ﷺ) ليقرأ منه، وهذا خطأ شائع في كتب علماء مقارنة الأديان الغربيين[1] لم ينج منه إلا (هيوستن سميث) و(كارين أرمسترونج) من بين العلماء الذين ذكرنا أسماءهم.

ويذكر (لويس هويفي)[2] رأيًا مدهشًا، هو أن عدد الصلوات في حياة الرسول (ﷺ) كانت ثلاث صلوات، ثم زيدت فيما بعد إلى خمس صلوات.

ومن الأخطاء التي ذكرها المؤلف نفسه[3] أن الإسلام يفرض على الحجيج صيام نهارهم أثناء أداء مناسك الحج في مكة.

ويؤكد جفري برندر[4] أن الإسلام يفرض على المرأة أن تغطي جسدها تمامًا من الرأس إلى القدم أثناء أداء مناسك الحج، فيقول:

Completely veiled from head to foot.

ومن الحكايات العجيبة والطريفة قولهم: إن المسلمين عندما حطموا الأصنام الموجودة بالبيت الحرام بعد فتح مكة، وجدوا صورتين للمسيح ومريم عليهما

(1) See: Owen Cole. Six Religions in the 20 th. Contury. P. 41, Ninian Sman. P. 280. Mireia Elide. History of Religious , Doctrines & Ideas. Vol: 4, P. 76.

وله ترجمة عربية سقيمة، قام بها في سوريا عبد الهادي عباس، دار دمشق 1987.

(2) Lewis Hopfe. Religions of the world, P. 402.

(3) P. 405.

(4) Geoffrey Pamn.der, The word's Religions, P. 12.

السلام، فلم يمسوهما بسوء تكريمًا وتعظيمًا لهما، وقد تكررت هذه القصة في أكثر من كتاب[1].

ويذهب بعضهم[2] إلى أن الإسلام في بدايته كان للعرب خاصة، ومع تطور الظروف والأحوال أصبح عالميًّا تبشيريًّا للناس كافة.

ومن النقاط التي تكاد تشكل قاسمًا مشتركًا لدى أكثرهم، تفسيرهم لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة، بأن محمدًا في بداية الأمر قد جامل اليهود أملًا في اكتسابهم لرسالته، ولما تأكد من إعراضهم، أمر المسلمين بالتحول إلى الكعبة معلنًا الانفصال النهائي عنهم[3].

ومما ألح عليه بعضهم مثل (مرسيا إلياد) [4] مسأله الغرانيق المدسوسة على السنة النبوية المطهرة.

وقد أظهر (أوين كول) سوء فهم لطبيعة الحديث النبوي، فرآه تعليمات شفوية سرية أوحيت إلى الرسول (ﷺ)، وطلب منهم تبليغها إلى العامة وعدم تدوينها، ولعله بذلك يرى أن الحديث النبوي لا يختلف عن طبيعة التلمود لدى اليهود[5].

ومما نلاحظه على بعضهم[6] خلطه بين التعاليم أو التكاليف الشرعية وبين عادات المسلمين وتقاليدهم الشعبية، التي لا تشكل أهمية كبيرة في فكر المسلم وسلوكه.

---

(1) See: G. Parrindcr - P. 17.
Lewis Hopfe. P. 389: 390.

وهي مأخوذة من بعض الكتب التراثية الإسلامية

(2) See: john Noss. P.P. 698: 701.
See too: M. Eliade. P. 67 : compare: O.Cole. P. 40.

(3) M.Eliade.P.85.

(4) 0.P - 75 - 79.

(5) M. Eliade. P. 89
compare: John Noss. P.P. 683.

(6) N. Smart. P.279

هذه نماذج من تلك الأخطاء التي وصفناها بأنها صريحة وصغيرة في نفس الوقت، والتي لا ينبغي أن تشغلنا عن النظر في تلك الدراسات وما حفلت به من أفكار بناءة وآراء جادة، ولأن هذه الأفكار والآراء عديدة، فإننا نعطي أنفسنا حرية اختيار بعضها فحسب، لنلقي عليها بعض الضوء، ونترك بعضها لفرصة أخرى.

4 - إقرارهم بأن الغرب قد أساء فهم الإسلام وخصائصه عمدًا:

من اللافت لنظر الباحث أن أكثر علماء مقارنة الأديان الغربيين المعاصرين يقررون بأن الغرب قد أساء فهم الإسلام وخصائصه عمدًا، وأن هذه الإساءة قد بدأت بتغيير اسم الدين، من الإسلام إلى المحمدانية Mohamadanism (أو المهومتانية Mohamtanism) نسبة إلى النبي (ﷺ)، وهذه التسمية الغربية الغريبة للإسلام في رأي (هيوستن سميث): خاطئة ومستفزة[1]، ويقول: إنها خاطئة لأن محمدًا (ﷺ) لم يأت بهذا الدين من عند نفسه، ولكن الله عز وجل هو الذي أنزله كما هو عليه، ومهمة محمد (ﷺ) لم تتجاوز حمله من الله وبلاغه للناس، وأما أن التسمية مستفزة، فلأنها تعطي انطباعًا بأن الإسلام يتمحور حول محمد الإنسان بدلًا من الله تعالى.

ويضيف سميث: إذا كانت المسيحية قد أخذت اسمها من المسيح، فذلك مناسب للمسيحيين لأنهم يؤلهون المسيح، أما إن قلنا عن الإسلام: (محمدية) فذلك يشبه تسمية المسيحية بالبولسية (نسبة إلى القديس بولس)... والاسم الصحيح لهذا الدين هو الإسلام، وهو مشتق من كلمة Salam التي تعني الإسلام، وتعني إلى جانب ذلك إسلام الوجه لله؛ لأن السلام يغمر الإنسان حين يسلم وجهه لله.

ويحدد مؤرخ الأديان Eric sharpe نظرة الغرب إلى الإسلام بأنها مزيج من الكراهية والخوف[2].

(1) Huston Smith.P. 193.

(2) "Mixture of Hatered & Fear"وعبارته Eric Sharpc.P.12.

أما K. Armstrong فإنها قد خصصت فصلًا في كتابها المشار إليه جعلت عنوانه: «العدو محمد» كشفت فيه بشيء من التفصيل التشويهات الغربية المتعمدة للإسلام ولكتابه ولرسوله، وتاريخه وحضارته، تقول المؤلفة:

«إن الإسلام لا يزال خارج دائرة النوايا الطيبة، ولا يزال يحتفظ بصورته السلبية في الغرب، فالذين شرعوا في استلهام أديان مثل دين (زن) أو التاوية يندر أن ينظروا نفس النظرة المتعاطفة إلى الإسلام، فلدينا في الغرب تاريخ طويل من العداء للإسلام، ولكن الكراهية القديمة للإسلام تواصل ازدهارها على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يعد يمنع الناس أي وازع من مهاجمة ذلك الدين، حتى ولو كانوا لا يعرفون منه إلا القليل».

وتستطرد الأستاذة أرمسترونج قائلة:

«... كان من المحال على المسيحيين بسبب الخوف من الإسلام أن يلتزموا العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية، فراحوا يرسمون صورة شائهة للإسلام تعكس بواعث قلقهم الدفينة».

«كان علماء يهاجمون الإسلام باعتباره عقيدة تحريف في الدين، ويصفون محمدًا بأنه الدجال الأكبر، واتهموه بأنه أنشأ دينًا يقوم على العنف، ويمتشق السيف لغزو العالم، وأصبح اسم محمد (الذي تم تحريفه إلى: «ماهوميت») بمثابة البعبع - ما هو ميت - الذي تستخدمه الأمهات في تخويف أطفالهن العاصين. وكانت مسرحيات الرمز تصوره في صورة عدو الحضارة الغربية، الذي حارب قديسنا الشجاع سانت جورج».

«وأصبحت هذه الصورة الزائفة للإسلام تمثل إحدى الأفكار الراسخة في أوروبا، ولا تزال تؤثر في إرثنا ونظرتنا إلى العالم الإسلامي».

وتخاطب الأستاذ أرمسترونج مواطنيها الغربيين قائلة لهم:

«إن من يضع الإسلام في فئة غير مقدسة خاصة به، أو من يفترض أن تأثيره، كان سلبيًّا تمامًا، أو حتى تغلب عليه السلبية؛ يبتعد عن الدقة والإنصاف جميعًا،

بل إنه يعتبر خائنًا للتسامح وروح التراحم اللذين نفترض أن المجتمع الأوروبي يتحلى بهما، والواقع أن الإسلام يتميز بكثير من المثل العليا والرؤى التي ألهمت اليهودية والمسيحية، ومن ثم فقد ساعد الناس على غرس وتنمية القيم التي يشترك فيها مع ثقافتنا الخاصة. والتقاليد اليهودية والمسيحية (الغربية) لا تحتكر عقيدة التوحيد، ولا الحرص على العدالة والتأدب والتراحم واحترام الإنسانية...».

وتشعر أستاذة تاريخ الأديان بالمرارة والأسف لأن: «الحال لم يختلف كثيرًا عما كانت عليه في العصور الوسطى، فزيادة إدراك الحقائق لم تستطع طمس صورة الكراهية القديمة التي تسيطر سيطرة قوية على المخيلة الغربية».

«إن التعصب القديم كان راسخًا إلى الحد الذي جعل الكثير من الكتاب يعجزون عن مقاومة التعريض، دون مبرر، بالنبي من حين لآخر، مما يدل على أن الصورة التقليدية لم تمت. وهكذا نجد (سايمون أوكلي) يصف محمدًا بأنه: رجل بارع الدهاء واسع الحيلة، إذ كان يتظاهر فحسب بالصفات الحميدة المنسوبة إليه، أما دوافعه النفسية فهي الطموح والشهرة.

ويقول (جورج سيل) في مقدمة ترجمته للقرآن: إن أحد الأدلة المقنعة على أن العقيدة المحمدية لم تكن قطعًا سوى ابتكار بشري، هو أنها تدين بنشوتها وتطورها إلى السيف وحده تقريبًا.

وكتب «فولتير» مسرحية عنوانها «محمد أو التعصب»، وفيها يستعين بالكراهية الشائعة لمحمد في جعله نموذجًا لجميع الدجالين الذين أحالوا شعوبهم إلى عبيد للدين متوسلين بالتحايل والأكاذيب، وعندما وجد أن بعض الأساطير القديمة عن محمد (ﷺ) لم تكن فاحشة إلى هذا الحد الذي يرضيه، عمد إلى ابتداع أساطير جديدة أفعمت قلبه فرحًا.

و«جيبون» يزعم أن محمدًا قد دفع العرب إلى اتباعه من خلال إغرائهم بالغنائم

والجنس، أما عن اعتقاد المسلمين بأن القرآن قد أملاه الوحي المنزل على النبي، فقد اصطنع «جيبون» نبرة تعال وترفع قائلًا: إن الإنسان المتحضر حقًّا يرى ذلك من قبيل المحال.

إن تلك الحجة - القرآن - تخاطب، بكل قوة، العربي المخلص الذي يقبل عقله منطق الإيمان والنشوة الدينية، والذي تلتذ أذنه بموسيقى الأصوات، والذي يعجز جهله عن عقد المقارنات بين ثمار قرائح البشرية، فتناغم الأسلوب وجزالته لا يستطيعان التأثير بعد الترجمة، في الكافر الأوروبي، الذي سوف يضيق ذرعًا بمتابعة المعزوفة التي لا تنتهي، والتي تتسم بالنشاز، والحافلة بالأساطير والمفاهيم المجردة، والنبرات الخطابية، والتي نادرًا ما تثير إحساسًا أو توحي بفكرة ما، والتي أحيانًا ما تزحف في التراب.

أما «كارلايل» فإنه قد أنصف النبي (ﷺ) لكنه لم ينصف القرآن الكريم، فقال عنه: إنه خليط غير مترابط، يرهق القارئ، غليظ النسيج، ركيك التركيب، غاص بالتكرار، وبالإسهاب والمغالطات التي لا تنتهي، وباختصار فهو بالغ الغلظة والركاكة والغباء الذي لا يطاق.

وبعد الحملة الفرنسية على مصر كتب «شاتوبريان» يقول: إن الصليبيين حاولوا نشر المسيحية في الشرق، وهي أقرب الأديان إلى «إذكاء روح الحرية» ولكنهم اصطدموا في جهودهم الصليبية بالإسلام وهو عقيدة معادية للحضارة، وهي تشجع بانتظام على انتشار الجهل والاستبداد والرق.

أما القرآن فيقول عنه: إنه لا يتضمن مبدأ واحدًا من مباديء الحضارة، ولا فرضًا يسمو بأخلاق الإنسان، والإسلام على الجملة، يختلف عن المسيحية في أنه لا يحض على كراهية الطغيان أو على حب الحرية.

وتبرز «أرمسترونج» تناقض الغرب مع نفسه في موقفه العدائي من الإسلام قائلة:

«كان بعض نقاد الإسلام، أيام الفكر الطبقي الذي ساد العصور الوسطى، يهاجمون محمدًا لأنه منح الطبقات الدنيا سلطات أكثر مما ينبغي – مثل العبيد والنساء.

وقد انعكس بعد الثورة الفرنسية هذا الوضع، لا بسبب زيادة معرفة الناس بالإسلام، بل لأنه أصبح ملائمًا لما نحتاج «نحن» إليه»[1].

إن الإقرار بأن الغرب قد تعمد إساءة فهم الإسلام منذ نزوله حتى اليوم، وإظهار الأسف على ذلك، هو القاسم المشترك بين عدد كبير من علماء مقارنة الأديان في للغرب، ولقد أرجع بعضهم ذلك الموقف العدائي إلى انغلاق الغرب وتعصبه Ex-clusiveness and Intolerance، وبعضهم إلى الكراهية والخوف، وبعضهم إلى رد الفعل ضد التحدي العقدي والسياسي والحضاري الذي مثله الإسلام لأوروبا منذ تاريخه المبكر.

وإن هذه الروح الجديدة لدى بعض علماء الأديان التي تتسم بالشجاعة الأدبية والميل إلى الإنصاف والموضوعية، تستحق النظر والتشجيع.

5 – الردة العقائدية.. والردة الدستورية:

لم يقف هؤلاء العلماء عند هذا الحد، ولكنهم حاولوا بطريقة أو بأخرى تصحيح بعض الأخطاء والمغالطات التي وقع فيها بعض المستشرقين والمبشرين، ولنأخذ مثالًا على ذلك ما سمي في التاريخ الإسلامي «بحروب الردة» التي تلقفها هؤلاء وشغبوا بها على الإسلام قائلين: إن الإسلام دين لا يؤمن بحرية الاعتقاد ومن ثم لا يحترم حقوق الإنسان والإنسانية.

لم ينظر هؤلاء العلماء إلى المسألة نظرة المستشرقين والمبشرين، ولكنهم رأوا أن أولئك الذين وصفوا بالمرتدين ليسوا إلا ثائرين خارجين على سلطان الدولة وقوانينها.

(1) كارين أرمسترونج: (محمد): فصل «العدو محمد» ترجمة د. محمد عناني، د. فاطمة نصر، سلسلة كتب: سطور، رقم 1، القاهرة 1999، ص: 31 – 69.

يقول «ج بارندر»[1]: بموت محمد فإن كثيرًا من القبائل التي أقسمت له على الولاء والطاعة قد أثارت القلاقل وانفجرت في ثورة، لذلك أرسل أبو بكر الجيوش لإخضاع ثورتها To subdue them again فالمسألة لم تكن «ردة إيمان أو اعتقاد» فحسب، لكنها كانت ردة سياسية ودستورية إن جاز الوصف، والتعامل العسكري مع هذا النوع من الخروج السياسي غير المبرر على سلطان الدولة، لا يعتبر في عرف القوانين الدولية والدساتير الوطنية، مناقضًا لحقوق الإنسان أو منافيًا لحرية الاعتقاد.

ولقد أكد هذا المعنى كله (ل. هوبفي) بقوله[2]: لقد اضطر أبو بكر لإخضاع عصيان أو تمرد بعض القبائل للحفاظ على وحدة الأمة التي بناها الرسول (ﷺ).

And also try to unify the nation that prophet had built

فالأمر كما فهمه هؤلاء العلماء – وهو على صواب – لم يكن مجرد ردة عقيدة لكنه كان تمردًا سياسيًّا استهدف وحدة الأمة، فكيف يشغب أولئك النفر على الإسلام، ويزعمون أنه يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟!، أليست هذه الحرب خيرًا من الفوضى السياسية كما يرى «مرسيا إلياد».

6 - موقف الإسلام من المرأة:

من الموضوعات التي اعتبرها كثير من المبشرين [3] والمستشرقين نقاط ضعف في الإسلام موقفه من المرأة، ولا يكاد المرء يجد كتابًا أو بحثًا لكاتب غربي في الموضوع، يخلو من غمز الإسلام والتعريض بشخص الرسول (ﷺ) بسبب إباحة تعدد الزوجات، وبسبب تعدد أزواجه.

لكننا وجدنا أن علماء مقارنة الأديان الغربيين المعاصرين لا يتفهمون موقف الإسلام من المرأة فحسب، بل نراهم يدافعون عنه ويتحمسون له.

---

(1) G.parrinder. p. 18.

(2) L. Hopfe. P. 408.

(3) Behind the veil, unmasking Islam.

ولقد جذب انتباههم بشدة ما قامت به أم المؤمنين السيدة خديجة في سبيل الدعوة الإسلامية ومؤازرة زوجها إبَّان نزول الوحي لأول مرة، وما تقدير الرسول لها إلا تقدير للمرأة بعامة، ولقد تمثل هذا في مظاهر عديدة، منها أنه (ﷺ) لم يتزوج في حياتها بأخرى.

يتحدث «أ. كول» عن مكانة المرأة في الإسلام مقارنة بما كانت عليه قبل الإسلام فيقول: لقد منحت المرأة العربية في ظل الإسلام مكانة سامية على العكس تمامًا مما كان عليه حالها المزري قبل الإسلام، إذ لم تكن منزلتها أكثر من منزلة Chattles أي سلعة تباع وتشتري عند الحاجة، ولقد أكد محمد أهمية الزوجة والأم في تكوين الأسرة، ويؤكد «كول» أن الإسلام قد كلفها بالعبادة كما كلف الرجال فيقول: «لقد حض الرسول النساء على الصلاة، ولقد شكل النساء طوال حياته جزءًا من جماعة المصلين في المسجد، على الرغم من أن حضورهن إلى المسجد لأداء الصلاة لم يكن إجباريًّا.

ويستغرب «كول» – وله الحق في ذلك – من الجماعات الإسلامية المعاصرة التي تحرم على المرأة الذهاب إلى المسجد تحريمًا[1].

ولو قارنا ما كتبه علماء مقارنة الأديان الغربيين – عن وضع المرأة في الإسلام – بما جاء في كتابات المستشرقين والمبشرين مثل كتاب « Behind the veil.. Unmasking Islam» وبما تنشره وسائل الإعلام الغربية اليوم لعرفنا موضوعية هؤلاء العلماء وحيدتهم وصدعهم بالحق.

ولقد كتب الأستاذ «هـ. سميث» دفاعًا حارًّا عن وضع المرأة في الإسلام جاء فيه: إن النساء قبل الإسلام كن بمثابة أشياء مملوكة للرجال أكثر من كونهم بشرًا، وكان الرجل يستطيع أن يتزوج عددًا لا حد لكثرته من الزوجات، ويقول: ولنكن أكثر دقة ونذكر أن علاقة الرجل بزوجاته كانت منحصرة في واحدة أو اثنتين، ومن

(1) O. cole.p. 195.

عداهن من الزوجات كن يعاملن أسوأ معاملة وكن نادرًا ما يعاملن كزوجات[1].

ثم يتحدث «سميث» تحت عنوان (وضع المرأة في الإسلام) فيقول: لقد اتهم الإسلام بشكل واسع (في الغرب) بأنه يحط من شأن المرأة بسبب سماحه بتعدد الزوجات.

ولو أننا نظرنا إلى المسألة زمنيًّا، وقارنا بين وضع المرأة العربية قبل بعثة محمد (ﷺ) وبعدها لوجدنا أن التهمة زائفة تمامًا.

في أيام الجاهلية لم يكن للزواج ترتيبات أو إجراءات، وكان من النادر أن يعتد به، أما الزواج المؤقت والمشروط فكان هو المسيطر على الساحة، وكانت النساء في منزلة القطيع يعاملن حسب هوى أزواجهن أو آبائهن، ولم يكن للبنات حق في الميراث البتة، بل كن يدفن أحياء في طفولتهن.

وفي مواجهة تلك الظروف التي كانت تعتبر ولادة البنت فيها مصيبة، فإن الإصلاحات التي جاء بها محمد قد أعلت منزلة المرأة بشكل أساسي، لقد حرم الإسلام، وأد البنات، وفرض للبنت حقًّا في الميراث، نعم إنه لم يسو بينها وبين الرجل، وهذا أمر يتمشى مع مقتضيات العدالة في نظر محمد؛ لأن المرأة لا تتحمل المسئولية المالية في بيتها، بيد أن القرآن قد فتح باب المساواة التامة بين المرأة والرجل فيما يتعلق بالمواطنة والتعليم والانتخابات السياسية Suffrage & Vocation والعمل.

ويقول «سميث»: إن مساواة المرأة الأوروبية بالرجل، ووضعها الاجتماعي الحالي قد تحقق نتيجة التحول الصناعي والديمقراطي، ولم يكن ليتحقق بسبب الدين (المسيحي أو اليهودي).

ولقد قدم الإسلام أعظم إسهاماته لرفع شأن المرأة بوضع نظامه الخاص في الزواج. لقد قدس الزواج وجعل منه السبيل الوحيد المباح للعلاقات الجنسية. إن الادعاءات الغربية بأن الإسلام دين يحض على الشهوات الجنسية Lascivious اتجاه مريض حقًّا، هذا أولًا، أما ثانيًا: فإن الإسلام يتطلب الموافقة التامة للمرأة

(1) Huston smith, p. 218.

قبل زواجها، ولا يستطيع رجل ما، ولو كان السلطان نفسه، أن يتزوجها بدون موافقتها الصريحة، ولقد وثق الإسلام – ثالثًا – رابطة الزوجية توثيقًا عظيمًا.

ومع أن محمدًا لم يحرم الطلاق تحريمًا مطلقًا، فإن جعله بمثابة الحل الأخير لمشاكل الزوجين المستعصية، وقد أكد مرارًا على أن – الطلاق – أبغض شيء حلال عند الله... ولقد شرع لإتمام الطلاق ثلاث مراحل مستقلة للتوفيق والإصلاح للتقليل من نسبة الطلاق، ويذكر «سميث» أن أمر الطلاق مكفول للمرأة كما أنه مكفول للرجل في الإسلام.

ثم يناقش «هـ. سميث» مسألة تعدد الزوجات Polygamy ويذكر أن الآراء متفاوتة حولها، والإجماع يزداد على أن الوضع المثالي الذي يراه القرآن هو الزوجة الواحدة Monogamy والنص القرآني: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3] واضح في ذلك. والمساواة في الآية مطلقة، وتحقيق المساواة المطلقة بين الزوجات تؤكد أن القرآن يهدي إلى عدم التعدد في الظروف العادية.

كما أن هناك ظروفًا غير طبيعية قد تمر بالمجتمعات البشرية تجعل من السماح بتعدد الزوجات حلًّا مفضلًا من وجهة نظر أخلاقية، وتلك الظروف قد يمر بها الفرد في حالات المرض الميئوس منه، أو المجتمعات في حالات الحروب التي تحصد الرجال وتجعل عددهم أقل من نصف عدد النساء في بعض الأحيان.. وتعدد الزوجات هو الحل في مثل هذه الأوضاع حتى تحاط العلاقات الجنسية بالمسئولية مع المساواة التامة بين الزوجات والعدالة بينهن، وكفالة حقوق المرأة.

أما في ظل عدم إباحة تعدد الزوجات فإن المرأة تفتقر إلى العاطفة الزوجية، ولا تتمتع هي أو وليدها بالمسئولية والرعاية من الزوج والأب.

وقد ذكر رأيه في مسألة حجاب المرأة وتغطية نفسها كاملة شاملة، فقال: إن ذلك كان من أجل حاجة ماسة تحقق ميزة للنساء في أيام محمد (ﷺ) ﴿...ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ...﴾ [الأحزاب: 59] وهي أمن النساء بعدم إيذائهن، لكنه لم

يقصد إلى تكبيل المرأة بالبردة في غير ما حاجة إليه، أي أن أمر البردة أو الحجاب التام للمرأة ليس مطلبًا عامًّا مطلقًا في كل زمان ومكان ولعموم نساء المسلمين.

ثم يعلق ساخرًا من موقف الغرب من الإسلام فيقول: «إن الصورة الغربية النمطية الشائعة stereotype للمسلم هي أنه رجل ممتشق سيفه ويجر وراءه طابورًا طويلًا من الزوجات»[1].

والحق أن معظم هؤلاء العلماء - على تفاوت نسبي بينهم - قد ناقشوا مناقشة موضوعية ما أطلق عليه في الغرب: وضع المرأة في الإسلام: وقد تحدث كثير منهم بنزاهة عن الحكمة وراء تعدد زوجات النبي (ﷺ) فرأى بعضهم أنها تتعلق بالرحمة والإنسانية النبيلة حيث إن معظم زوجاته كن عجائز أو أيامى حروب.

ويجدر أن أنقل هنا رأي (جفري برندر) الذي يقول فيه: «إن شيئًا ينبغي أن يذكر عن اتخاذ محمد - في وقت متأخر بعد وفاة زوجه خديجة - زوجات عديدات، لأن هذه النقطة كانت محل انتقاد غربي واسع له، لكن هذا الأمر ينبغي أن ينظر إليه في بيئته الشرقية، وإن داود صاحب المزامير وسليمان اللذين كانت حكمتهما محل تقدير عظيم قد اتخذا لهما زوجات عديدات».

ويذكر لنا أمرًا طريفًا إذ يرى أن محمدًا (ﷺ) قد تزوج مرات كثيرة في محاولة منه لإنجاب ولد ذكر، ورغم أنه لم يوفق في ذلك فإنه لم يسيء معاملة أي من زوجاته[2].

7 - التوحيد الأنقى والأصفى:

اتفقت كلمة علماء الأديان الغربيين - من خلال دراستهم للإسلام مقارنًا بالأديان الأخرى - على أن الإسلام هو الصورة النقية الصافية للتوحيد، (مرسيا إلياد): إن رسالة محمد - كما صيغت في القرآن - تمثل التعبير الأكثر نقاء للتوحيد

---

(1) Huston smith, p. 216 - 218.

(2) G. parrinder, p.14.

المطلق، فالله هو الإله الأوحد، مطلق الحرية كلي العلم والقدرة، خالق السموات والأرض، خالق كل ما هو موجود، فعال لما يريد... يحكم إيقاعات الكون وأفعال البشر، له الحرية المطلقة[1].

ولقد كانت الرسالة الأساسية للقرآن - كما ذكر برندر - هي توحيد الله ومحاولة الوثنية، فالإسلام هو من آخر الديانات التوحيدية التي تدعو إلى الإيمان بإله واحد. أما (ل. هوبفي) فيرى أن الديانة الإسلامية تدعو إلى أشد أنواع التوحيد صرامة، وعقيدته - لا إله إلا الله محمد رسول الله - على النقيض تمامًا من تعددية أهل مكة polytheism، والبيزنطيين الذين كانوا إذ ذاك لا يزالون يتجادلون حول طبيعة المسيح والجزء الإلهي الذي حل فيه، يقول المسلمون: لا إله إلا الله الواحد الأزلي، الذي لا ينقسم ولا يتعدد.

ويرى (ننيان سمارت) أن الخيط الأساسي في الإسلام هو توحيد الله خالق العالم، الذي جعل الإنسان خليفة في الأرض التي هيأها لمنفعته[2].

وبعد أن يشرح «سميث» مفهوم التوحيد في الإسلام يعلق قائلًا: هذا التوحيد هو إضافة الإسلام الأساسية إلى الدين في كليته[3]. وترى «كارين أرمسترونج » أن التفسير الإسلامي لعقيدة التوحيد يتميز بعبقرية خاصة، وعلينا - نحن الغربيين - أن نتعلم منها أمورًا مهمة[4].

فالصورة الأصفى والأنقى للتوحيد هي بصمة الإسلام وخاتمه على الدين كله فيما يذكر هؤلاء العلماء.

---

(1) مرسيا إلياد، ص 88، من ترجمة عبد الهادي عباس.

(2) H.Hopfe.p. 283.

(3) H.smith. p. 205.

(4) كارين أرمسترونج، ص 22 من الترجمة العربية.

8 - الانتشار السريع المذهل للإسلام:

لقد كان الانتشار السريع المذهل للإسلام، وبلوغه ما بلغ الليل والنهار في وقت قصير جدًّا، من أبرز المسائل التي استرعت أنظار هؤلاء العلماء، فمثله بعضهم بالفيضان، وبعضهم بالبركان، وحاولوا التعمق في بحث الأسباب الحقيقية التي هيأت لهذا الدين ذلك الانتشار الهائل الذي لم يشبهه فيه دين آخر أو يقاربه.

يقول «جون نوس»: لقد بدا الإسلام لأولئك الذين وقفوا في طريقه وكأنه نار مستعرة تتأجج من مركزها وتتمدد مندفعة نحوهم بسرعة لا تعرف التوقف أو الإبطاء، ولم يظهر في الأفق ما يكفكف من غلواء نزوع هذا الدين الجديد إلى الفتح والانتشار، حقًّا لقد أوقف زحفه نحو أوروبا، لكنه انتشر بسرعة إلى عمق آسيا وأفريقيا، وزحف إلى مسافة ألف ميل أو يزيد من نقطة انطلاقه...» ثم يذكر «جون نوس» سبب ذلك قائلًا: «إن بساطة هذا الدين ووضوحه قد جذبا إلى تعاليمه تلك الملايين من الذين آمنوا به، وعلى العموم، فإن الإسلام لم يثقل عقول أتباعه بحشد هائل من الأسفار المقدسة، أو بفيض من العقائد الغامضة[1].

أما «مرسيا إليادي» فيرى أن السبب الحقيقي وراء ذلك يرجع إلى أن رسوله قد أظهر دينًا أكثر بساطة من الديانتين التوحيديتين السابقتين (اليهودية والمسيحية)، وأنه لم ينشئ كنيسة وليس فيه كهنوت، وأن العبادة في الإسلام يمكن أن تؤدي في أي مكان، وليس من الضرورة أن تمارس في معبد[2].

ويضيف «جون برندر» عملًا مهمًّا يتفق فيه مع زميله (لويس هوبفي) هو أن الشعوب السورية والمصرية، مع أنها كانت مسيحية إلا أنها قد رحبت أشد الترحيب بالفاتحين المسلمين؛ لأنهم كانوا يرسفون تحت نير البيزنطيين.

They were groaning under the Byzantine yoke

(1) John Noss

(2) مرسيا إليادى، ص 88 من الترجمة العربية.

وقد كان الحكم الإسلامي رحيمًا بهم ولم يقع اضطهاد المسيحيين إلا نادرًا، ومع مرور الوقت، دخل هؤلاء المسيحيون جميعًا في الإسلام، ولم يبق منهم إلا أقليات صغيرة في مصر والشام وشمال أفريقيا[1].

ويتحدث «ل. هوبفي» بشيء من التفصيل عن الأسباب الحقيقية وراء الانتشار السريع للإسلام فيقول: «حين ظهر الإسلام كانت الفترة التاريخية مناسبة جدًّا، لأن العرب كانوا مستعدين ليصبحوا قوة متحدة، بينما كان الرومان والفرس على حافة الانهيار بسبب الفساد الداخلي وسوء الحكم...».

وهناك أسباب عديدة وراء ذلك الانتشار السريع المكثف منها:

1 - أن الإسلام دين بسيط لا يشبه الأديان الأخرى التي تحتاج إلى تعليم معقد، أو تأملات طقسية شاقة، أو تضحيات باهظة، الإسلام سهل وواضح، فالذي ينطق بالشهادتين مسلم، والذي يحافظ على الأركان الخمسة مسلم حسن الإسلام.

2 - الإسلام دين عسكري يعد بالمثوبة أولئك الذين يقاتلون في سبيله.

3 - الإسلام دين عالمي، وعلى الرغم من أنه قد انبثق في العالم العربي فإنه لا يعرف الحواجز أو الفوارق بين الشعوب، فالجميع عيال الله، والجميع مقبولون في الإسلام بلا تمييز.

4 - أن العالم المحيط بالمسلمين الأوائل كان مرتكبًا وفاسدًا، ولقد أساء الحكام البيزنطيون المسيحيون معاملة العرب المسيحيين واضطهدوهم، ومن أجل ذلك، فإن الفاتحين المسلمين لم يكونوا يقابلون - في تلك البلاد - على أنهم غزاة، بل كانوا يستقبلون على أنهم مخلصون[2].

أما «ننيان سمارت» فقد أرجع تلك السرعة المذهلة Amazing Rapidity في انتشار الإسلام إلى ثلاثة أسباب محددة هي:

(1) G. parrinder.p.18.

(2) L.Hopfe.p. 407.

أن للإسلام مؤسسًا واحدًا هو محمد (ﷺ)

وأن له وثيقة تأسيسية واحدة هي القرآن الكريم.

وأن له جانبًا سياسيًّا يفرض اتخاذ القرارات السريعة، مما ساعد على نجاحه العظيم(1).

ولقد ذكر «جون نوس» وجهة نظر متقاطعة مع ما ذكرناه لزملائه آنفًا، يقول: يمكن أن يكون الانتشار السريع للإسلام - في مراحله المبكرة على الأقل - قد جاء نتيجة حسابات معينة، كما أن وجهة النظر الإسلامية القائلة بأن سبب هذا الانتشار السريع هو الحركة الدينية الخالصة التي استهدفت إنقاذ العالم (من الوثنية) ولو بالقوة حين تدعو الضرورة ليست مقنعه، كما أن وجهة نظر المسيحيين في العصور الوسطى التي فسرت انتشار الإسلام على أنه كان نتيجة للدجل والطمع ليست مقنعة كذلك.

والرأي عند «جون نوس» أن انتشار الإسلام سريعًا جاء نتيجة عاملين متداخلين هما: العامل الديني والعامل الاقتصادي معًا، ويسترعى «نوس» النظر إلى أن محمدًا (ﷺ) قد وحد العرب لأول مرة في التاريخ، وبذلك أصبحوا قوة عسكرية يمكنها أن تمزج بين طموحاتها الاقتصادية وعقيدتها الدينية، وأن تنتشر خارج الصحراء حيث الخيرات الوفيرة، كما أن ضعف الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية بسبب الحروب الممتدة بينهما، قد هيأ الفرصة لهذه الفتوحات أن تبتلع الشرق الأدنى بسهولة ويسر(2).

9 - لماذا لم يعتنق العرب المسيحية؟

لقد أثار هؤلاء العلماء هذه المسألة، فتساءلوا قائلين:

مع أن الجزيرة العربية قريبة جدًّا من الشام مهد المسيحية، وقد كانت هناك روابط تجارية بينهما، فإن العرب لم يتأثروا بالمسيحية بشكل يتناسب مع الالتصاق

(1) N. smart.p. 278.

(2) John Noss, P707 - 708.

الجغرافي والاتصال التجاري، فلم كان ذلك كذلك؟

لقد شغلت هذه النقطة أذهانهم وحاولوا تفسيرها، ولنقتبس محاولة «لويس هوبفي» حيث يقول: إن تأثير المسيحية على العرب كان ضعيفًا لسببين مهمين:

أحدهما: الانقسام العقائدي المسيحي البيزنطي (الغربي) إلى فرق ومذاهب فيما يتعلق بطبيعة المسيح (عليه السلام)، وقد نشبت معارك عسكرية ولاهوتية بينهم من أجل تحديد العلاقة الصحيحة بين الله وعيسى.

ويقول «هوبفي»: ربما كان ذلك سببًا في تمهيد الأرض لرسول جديد يقول: لا إله إلا الله.

والسبب الثاني: أن الحكام البيزنطيين قد عاملوا المسيحيين العرب في مناسبات عديدة بقسوة وعنف، ولا ريب أن ذلك قد دفع كثيرين إلى الترحيب بفتوحات دين العرب الجديد في القرن السابع»[1].

معنى ذلك أن عدم الوضوح العقائدي للمسيحية في رأي لويس هوبفي - وعنصرية القائمين على أمرها من البيزنطيين لم تكن مقنعة لعرب الجاهلية، ومن ثم كان الوضع الديني والسياسي مهيأ لرسالة تبشر بـ (لا إله إلا الله).

10 - حرية الإنسان في الإسلام:

من أبرز خصائص الإسلام في الفكر الغربي عمومًا أنه دين جبري قدري، أي أن الجبرية Predistnation والقدرية Fatalism هما عنوانا الإسلام، وسبب ذلك في رأينا هو عدم رؤيتهم للخيط الرفيع بين القيومية المطلقة لله تعالى والتسليم التام لإرادته، ولعل السبب في ذلك أيضًا عدم إحاطتهم بالنصوص الكاملة في هذه المسألة، كما أن دقة الموضوع وصعوبته لا تخفي، فلقد وصفه الفيلسوف الفقيه ابن رشد الحفيد بأنه من أعوص المسائل الشرعية والفلسفية أيضًا.

---

(1) L.Hopfe.p. 389.

ولقد كان لعلماء الأديان موقف معقول من هذه المسألة في الإسلام، فهم قد رأوا أن كثيرًا من النصوص تميل إلى الجبرية والقدرية ومن ثم قالوا: إن في الإسلام نزعة قوية باتجاه القدرية، لكنهم رأوا في نفس الوقت تأكيد المسلمين على حرية الإنسان تأسيسًا على النصوص الشرعية، أي أن هؤلاء العلماء نظروا إلى المسألة من جانبيها معًا، الجانب الذي يؤكد الجبر، والجانب الذي يؤكد حرية الإنسان، بناء على أن الإنسان سيبعث ويحاسب على أعماله، فلابد أن يكون حرًّا لكي يسأل، ثم يثاب أو يعاقب.

يقول «هيوستن سميث»: بسبب من تأكيد القرآن القوي على طلاقة القدرة والإرادة الإلهية الكلية المسيطرة، فإن بعض المفسرين قد استنتجوا أن الإسلام يصادر حرية الإنسان. ولا ينكر مسلم أنه لابد من التوفيق بين الإرادة الإنسانية الحرة وطلاقة القدرة والإرادة الإلهية.

والأمر الذي ينكره المسلم هو أولًا: أن هذه المشكلة أكثر حدة في الإسلام عن أي «لاهوت» متطور آخر.

وثانيًا: وهو دفن المسلم في القدرية Lands the Muslim in fatalism وفي التحليل الأخير: الإنسان سيد عمله، وهو مسئول تمامًا عن القرارات التي يقوم بها[1].

هذا رأي «سميث»، أما « هوبفي »[2] فقد فصل المسألة قائلاً في القرآن: إن الإنسان مخلوق لله وأنه يجب أن يطيعه، والإنسان الصالح الذي سيفوز وبرضوان الله عليه أن يسلم وجهه لإرادته، وبسبب من تأكيدات الإسلام على قيومية الله، وطلاقة إرادته، فإن كلمات مثل: الجبرية والقدرية قد استخدمت لوصف الإسلام، وأدت إلى استنتاج أن في الإسلام نزعة قوية باتجاه القدرية حقًّا، وأن أكثر كلمة تردد بين المسلمين قولهم: إن شاء الله، ثم يقول «هوبفي»: مهما يكن من أمر فإنه ليس من الصواب القول بأن الإسلام قدري خالص؛ لأن جميع فرق المسلمين لا

(1) H.smith، p. 207.

(2) L.Hopfe.p. 398.

توافق على ذلك، والمسلمون عمومًا يعتقدون أن الإنسان مسئول - إلى حد ما - عن السيئات التي يجترحها، وأنه سوف يحاسب عليها، وأن الله تعالى بحكمته ورحمته قد منح الناس اختيارًا في الأمور التي هي مناط محاسبتهم، ومن وجهة النظر هذه فإن الناس يملكون حريتهم.

ويشير «هوبفي» إلى أن تطرف الفلسفة اليونانية المبكرة والكالفينية كذلك في الاعتقاد بأن الناس ليس لديهم اختيار في حياتهم، وسواء على الإنسان أن يعمل خيرًا أو شرًا، وأن ينجح أو يفشل، لأن كل ذلك بيد الله الذي يحكم العالم بناء على تقدير سابق، ويقول «هوبفي» بالنظر إلى ذلك الغلو فإن الإنسان لا يملك حرية الاختيار، لذلك فلن يكون مسئولًا عن تصرفاته، فالله كل شيء والناس دمي له.

إنا نعلم أن المشكلة عويصة، لكن النظرة النمطية إلى الإسلام في الغرب على أنه دين جبري قدري، بدأ هؤلاء العلماء في تحليلها بمنهجية، مع استرعاء النظر إلى أن هذه ليست مشكلة إسلامية خالصة، بل إن فرق المسلمين عامة ترفضها ولا تقول بها.

وبعد فالنقاط البحثية التي أثارتها دراسات هؤلاء العلماء المسلمين للإسلام عديدة، ووجهات نظر أصحابها تستحق المتابعة والمناقشة، لكن طبيعة هذا البحث التمهيدي أو الأول من نوعه لا تسمح بعرضها، وحسبنا أننا لفتنا نظر الباحثين المسلمين إلى أهمية هذا النوع من الدراسات الغربية عن الإسلام.

كما أننا حاولنا أن نجعل من كتابات هؤلاء العلماء التصحيحية، مناقشات غربية لشبهات أثارها كتاب غربيون ضد الإسلام، فكأن الغرب يحاور نفسه، ويدحض شبهاته بنفسه ضد الإسلام، وهذا ما دفعني إلى إعطائهم الفرصة ليتحدثوا بأنفسهم، ولم أتحدث عنهم، أو أختصر كلامهم.

كما ظهر لنا أن دراسة الإسلام مقارنًا بالأديان الأخرى أمر بالغ الأهمية لنا

وللعلماء الغربيين في نفس الوقت.

لأن الحقيقة تستبين وتسطع من خلال المقارنة، وتفرض نفسها على الباحثين الموضوعيين، وهذا يساعد على تصحيح صورة الإسلام في الغرب ويسهم في تخفيف روح الكراهية والعداء[1]، وعدم التقبل؛ مما يعمل على تحسين العلاقات الدولية التي تشكل مطلبًا ملحًّا للإنسان المعاصر.

بقي أن أشير إلى أن علماء الأديان الغربيين الذين ذكرناهم في بحثنا هذا، وإن شكلوا اتجاهًا له سماته العامة، فإنهم قد تفاوتوا في اجتهاداتهم وأطروحاتهم، ومن ثم رأيناها تتفق أحيانًا، وتتوازى بل وتتقاطع أحيانًا أخرى، والحقيقة أن هؤلاء العلماء قد كتبوا دراساتهم للقارئ الغربي أساسًا، لكن ذلك لا يمنعنا من الاستفادة ببعض النقاط أو الملاحظات أو العلاقات أو النتائج التي انتهوا إليها، بل ويدفعنا إلى إعادة تقييم فهمنا لجوانب معينة في ديننا، وأن نفهم أنفسنا فهمًا نقديًّا بنّاءً.

(1) هناك شواهد عديدة أهمها الواقع الذي نعيشه، فإننا نتنفس عداء الغرب لنا مع الهواء ونشربه في الماء وكتابات علماء الغرب العدائية أظهر من أن يشار إليها، وانظر ما كتبه صمويل هنتنجتون عن صراع الحضارات وما كتبه نائب رئيس البنك المركزي الألماني وما يبثه فلدرز في هولندا مثلًا.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: في اللغة العربية:

1 – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، القاهرة 1343هـ

2 – ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، 1317هـ.

3 – ابن قتيبة: الشعر والشعراء، القاهرة، 1364هـ.

4 – اجناس جولدزيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وزميله، القاهرة 1948م.

5 – أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، نشر دار الأصالة بالرياض وأكسفورد.

6 – إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت 1981م.

7 – أفلاطون: الجمهورية، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

8 – الشيخ مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ط3، مكتبة النهضة المصرية.

9 – الفريد جيوم: الفلسفة والإلهيات (الجزء الأول من تراث الإسلام) ترجمة الدكتور توفيق الطويل، نسخة مصورة من طبعة لجنة الجامعيين للنشر بمصر.

10 – القاضي أبو الوليد الباجي: رسالة راهب فرنسا إلى المقتدر بالله وجواب القاضي عليها، تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت 1991م، طبعة رابعة.

11 – بابا دوبولوس: تاريخ كنيسة أنطاكية، ترجمة الأسقف أسطفانوس حداد، نشرة مكتبة النور، بيروت.

12 – جورج سارطون: تاريخ العلم، جـ3، ترجمة د. توفيق الطويل، دار المعارف.

13 – جيمس فريزر: الفلكلور في أسفار العهد القديم، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، نشر دار المعارف.

14 – خوان غويتسلو: الاستشراق الإسباني، ترجمة كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987م.

15 – ديبور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة د. أبو ريدة. نشرة مكتبة النهضة المصرية، سنة 1948م.

16 – رودنسون: (مقال في التراث الإسلامي) شاخت وبوزورث، ترجمة زهير السمهوري، جـ1، الكويت 1978م، عالم المعرفة.

17 – رودي باريت: الدراسات العربية الإسلامية في اللغة الألمانية: من المستشرق الألماني تيودور نولدكه، ترجمة د. مصطفى ماهر، نشر دار الكاتب العربي، 1967م.

18 – سنتلانا: دروس في التعاليم الفلسفية، نشرها د. عصام الدين محمد، الرياض، 1981م.

19 – سوذرن: نظرة الغرب إلى الإسلام في العصور الوسطى، ترجمة د. على فهمي خشيم د. صلاح الدين حسني، مكتبة الفكر، ليبيا، 1975م، وانظر كذلك ترجمة رضوان بعنوان (صورة الإسلام في الغرب) بيروت ط2، 2006.

20 – شارل جنير: نشأة المسيحية وتطورها، ترجمة الإمام عبد الحليم محمود، نشرة دار المعارف، بمصر.

21 – د. صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، طبعة دار الآفاق، بيروت.

22 – د. طه حسين: في الأدب الجاهلي، القاهرة 1958م.

23 – د. عبد الجليل شلبي: الإسلام والمستشرقون، دار الشروق بالقاهرة.

24 – د. عبد الجليل شلبي: صور استشراقية، دار الشروق، 1977م.

25 – الإمام د. عبد الحليم محمود: أوروبا والإسلام، طبعة دار المعارف بمصر.

26 – د. عبد الحميد مدكور: دراسات في الفكر الإسلامي، نشر مكتبة الزهراء، 1990م.

27 – عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، طبعة القاهرة، 1322هـ.

28 – د. عرفان عبد الحميد، المستشرقون والإسلام، ط2، المكتب الإسلامي بدمشق.

29 – د. عمر حسن فلانة، الوضع في الحديث النبوي، مكتبة الغزالي، 1981م (ثلاثة مجلدات).

30 – د. عمر فروخ ود. مصطفى الخالدي: الاستعمار والتبشير، ط2، المكتبة العصرية بيروت.

31 – د. قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعي بالرياض، 1983م.

32 – كارل جوزف كوشل: الأديان من التنازع إلى التنافس، ترجمة د.أبو يعرب المرزوقي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2009.

33 – كارين أرمسترونج: الحرب المقدسة، ترجمة سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م.

34 – كمال اليازجي: يوحنا الدمشقي وآراؤه اللاهوتية ومسائل علم الكلام، نشرة مكتبة النور، بيروت 1984م.

35 – لورا فاجليري: دفاع عن الإسلام، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم

للملايين، ط3، بيروت، 1976.

36 – لويس جارديه والدكتور جورج شحاته قنواتي: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ترجمة الدكتور صبحي الصالح، وفريد جبر، نشرة بيروت.

37 – مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الآداب، ط2، بيروت، 1983.

38 – مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، القاهرة 1970م.

39 – د. محمد البهي: المبشرون والمستشرقون، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

40 – محمد حسين هيكل، حياة محمد، طبعة القاهرة.

41 – محمد طاهر التنير البيروتي: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة.

42 – د. محمد عبد الله الشرقاوي: ترجمة وثيقة أندلسية عن اضطهاد النصارى للمسلمين الأندلسيين، للمستشرق مونرو، دار الهداية 1986م.

43 – محمد عبد الواحد العسري: الإسلام في تصورات الاستشراق الغربي، مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض، 2003م

44 – د. محمد غلاب: نظرت استشراقية في الإسلام.

45 – د. محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، ط3، 1981م (مجلدان).

46 – د. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الحضارية كتاب الأمة، الدوحة/ قطر.

47 – د. محمود حمدي زقزوق، الإسلام في الفكر الغربي، الكويت، 1981م.

48 – محمود شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الخانجي، القاهرة.

49 – د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 1978م.

50 – د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، نشر المكتب الإسلامي بدمشق.

51 – مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية، (مجلدان) نشر مكتبة التربية العربي لدول الخليج.

52 – مونتجمري واط: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م.

53 – نجيب العقيقي: المستشرقون، نشرة دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة (3 مجلدات).

54 – نيكلسون: الصوفية في الإسلام، ترجمة الأستاذ نور الدين شريبة، القاهرة.

55 – يوسف كرم: الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، نشر دار الجيل، بيروت.

ثانيًا: في اللغة الإنجليزية:

1 - A. J. Arberry : The Cambridge School for Arabic ، 1948

2 - Albert Hourani، Islam in European Thought، Cambridge University Press. 1991.

3 - Anwar Abdulmalek ، Orientalism in Crisis، 1963، (Diogenes 44).

4 - Arberry، The Quran Interpreted، Oxford، 1964.

5 - Blachere، The Problem of Muhammed، 1952.

6 - Conferences of Christian Workers Among Moslems، 1924

7 - Francis Dovemik، The Ecumential Councils، New York،1961.

8 - George Makdisi، Hanbalite، See : Studies on Islam، Translated and Edited by Martin L. Swartz، New York.

9 - Gibb _ Coulson، A history of Islamic Law، Edinburgh، 1904.

10 - Goitein، Jews and Arabs، New York، 1955.

11 - H. A. Gibb، Muhammadanism، London، 1947.

12 - H. A. Gibb، Studies on the Civilization of Islam، Edited by Stanford J. Shaw، Lahore 1987.

13 - H. A. R. Gibb، Orientalism Studies in U. K. Cambridge، 1951.

14 - H. Kramer، Religion and the Christian Faith. London، 1956.

15 - Hamilton Gibb، The reaction of the Middle East Against Western Culture، Paris، 1951.

16 - Hengel، Judaism and Hellinism. London ، 1974 SCM.

17 - Ignaz Goldziher، Muslim Studies. London ، 1967 _ 1971(2Vo»s).

18 - James Kritzeck، Peter the Venerable and Islam، Princeton،1964.

19 - John Hick، (Editor) the Myth of God Incarnate. SCM، '' 1985.

20 - Juynboll، The Authenticity of the tradition Literature Discussions in Modem Egypt، Lieden، 1968.

21 - K. Cragg ، Islamic Survey، Edinburgh، 1965.

22 - Levonian، Islam and Christianity، London ، 1940.

23 - M. Cook، Muhammad، 1983.

24 - Mackdonald، Development of Muslim Theology، 1965.

25 - Margaret Marcus، Islam and Orientalism، Anarki _ Lahore، 1981.

26 - Maxime Rodinson، A critical Survey of Modem Studies on Muhammad.

27 - Maxime Rodinson، Mohamed، (English Trans. Peguin) 1971.

28 - Mortimer Graves، A Cultural Relations Policy in the Near East، 1950.

29 - Nicholas P. Agnides، An Introduction to Muhammadan Law and Bibliography، SMP. 1981، Lahore.

30 - Nicholson، A Literary History of the Arabs، Cambridge، 1962.

31 - Norman Daniel، Islam and the West، Edenburgh، 1960.

32 - Norman Daniel، The Arabs and Medieval Europe، London،1975.

33 - Dr. Philip Hitti، Islam and the West، an Historical Cultural Survey، Princeton ، U.S.A 1962.

34 - R. Bell، The Quran : Translated with a Critical Rearrangement of the Surahs، Edinburgh، 1937.

35 - Richter. A History of Protestant Missions in the Near East، 1910.

36 - Roper Hugh، The Rise of Christian Europe، England، 1973.

37 - Rudi Parrot. European Research on Life and Work of Prophet Muhammad، JPHS. Pakistan، 1958.

38 - Tor Andrae، Muhammad : The Man and his Faith، New York. 1936.

39 - Guillaume، New Light on the Life of Muhammad ، Manchester.

40 - Guillaume. The Traditions of Islam، An Introduction to the Study of the Hadith literature، Oxford ، 1924.

41 - J.Fuek، The Originality of the Arabian Prophet. Oxford Univ، Press، 1981.

42 - The Cambridge History of Islam،1971.

من مؤلفات الأستاذ الدكتور محمد الشرقاوي

البحوث والدراسات المنشورة في الدوريات العلمية والمؤتمرات المتخصصة:

1 – New Era in Egypt and in the Arab world محاضرة ألقيناها في جامعة توبنجن بألمانيا في مايو 2011م ونشرنا نصها بالإنجليزية ضمن كتاب (جين شارب) بعنوان: من الدكتاتورية إلى الديمقراطية، نشره: ميدان التحرير للبحوث والنشر، القاهرة، 2011م

2 – مناهج مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، مجلة مركز الدراسات الإسلامية، جامعة لندن، 2000م.

3 – الاستشراق والنقد الذاتي، مجلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، 2000م.

4 – Islamic Concept of Human Security، مؤتمر Wana Region، مكتبة الإسكندرية، 2010م.

5 – The Role of Religion in Present Day Societies، مؤتمر المجلس الأوروبي للأديان، سراييفو، 2006م.

6 – الفكر الإسلامي والفكر الغربي: من التوالي إلى التوازي، المؤتمر الدولي الخامس عشر للفلسفة الإسلامية بدار العلوم، 2010م.

7 – دور الاستشراق في تشكيل العلاقة بين الإسلام والغرب، مؤتمر الجامعة الإسلامية العالمية كوالالمبور، 2006م.

8 – الإسلام والمجتمع المدني، مؤتمر الحوار بين علماء الإسلام وعلماء الفاتيكان، عمان، 2009م.

9 – Religious Pluralism – And Islamic Thought، زيورخ، 2008م.

10 - Global Commons And Universal Values in the Euro Mediterranean Partnership. Challenges and Options of the Intercultural dialogue. نيقوسيا، 2009م.

11 – ملاحظات على تدريس العقيدة في الجامعات الإسلامية، كوالالمبور، 2006م.

12 – الحالة القبطية في مصر: المشكلات والحلول، مؤتمر المجلس الأوروبي للأديان، عمان، الأردن، 2009م، وزيورخ بسويسرا.

13 – تفعيل الإيمان... حلًّا لأزمة الإنسان المعاصر! المؤتمر العالمي عن الإيمان والعلم والأخلاق في تراث النورسي، استانبول، 2010م.

14 – الغرب والاعتراف بالآخر في ضوء وثيقة نادرة كتبها هنري ستوب، في القرن السابع عشر، ندوة الحوار الإسلامي المسيحي لجامعات البحر المتوسط، مؤسسة التميمي، تونس، 1999م.

15 – العولمة وتكريس الهيمنة، المؤتمر الدولي للفلسفة الإسلامية، دار العلوم، 1998م.

16 – الحوار الإسلامي المسيحي في الأندلس، المؤتمر الدولي للدراسات الأندلسية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1997م.

17 – الإسلام في كتابات علماء مقارنة الأديان الغربيين في القرن العشرين، الندوة الدولية عن مصادر المعلومات عن الإسلام، الرياض، 1999م.

18 – مقارنة الأديان في مصر في القرن العشرين، الجمعية الفلسفية المصرية، 1997م.

19 – ثلاث وثائق أندلسية، مؤتمر العلاقات الأندلسية المغربية، تطوان، المغرب، 2000م.

20 – مجمع البحرين (الهندوسية والإسلام) للأمير محمد داراشيكوه، مجلة رواق عربي، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، 1999م.

21 – النزعة العقلية في فكر القاضي عبد الجبار المعتزلي، مجلة رواق عربي، القاهرة، 2000م.

22 – محيى الدين بن عربي: الرجل والمذهب، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1983م.

23 – الاتجاهات المعاصرة في دراسة التصوف الإسلامي، مجلة الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، 1994م.

24 – قواعد منهج الشيخ شلتوت في دراسة العقيدة، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، 1997م.

25 – الأخلاق بين الدين والفلسفة، المنتدى الثقافي الإسلامي، واشنطن، 1996م.

26 – رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي الباجي عليها، مجلة كلية الدعوة والإعلام بالرياض، 1984م.

27 – الأناجيل بين تناقض المتن وانقطاع السند، مجلة مركز البحوث، جامعة الإمام، الرياض، 1983م.

28 – "وجعلنا من الماء كل شيء حي" العلاقة الوثقى بين العقيدة والنظر في الكون، مجلة كلية الدعوة والإعلام، جامعة الإمام، 1982م.

29 – قاعدة المسيحية الأصولية الأولى، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1989م.

30 – لم يكن المسيح إلهًا قط!! (ترجمة وتعليق)، مجلة دار العلوم، جامعة القاهرة، 1990م.

الكتب المرجعية المنشورة (تأليفًا وتحقيقًا وترجمة) :

1 – بحوث في مقارنة الأديان، ط6، دار الجيل، بيروت، ودار الفكر العربي، القاهرة.

2 – الإيمان: أصوله وفروعه، دار الجيل في بيروت.

3 – مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، دار الجيل، بيروت.

4 – القرآن والكون، دار الجيل، بيروت.

5 – الاستشراق: دراسات تحليلية تقويمية، دار الفكر العربي بالقاهرة.

6 – الفكر الأخلاقي: دراسة مقارنة، دار الجيل، بيروت.

7 – الأسباب والمسببات في الفكر الإسلامي، (رسالة دكتوراه)، دار الجيل، بيروت.

8 – الصوفية والعقل (رسالة ماجستير)، دار الجيل، بيروت.

9 – الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، دار الفكر العربي بالقاهرة.

10 – منهج نقد النص بين ابن حزم واسبينوزا، دار الفكر العربي، القاهرة.

11 – بولس الرسول ودوره في بناء المسيحية، دار الفكر العربي، القاهرة.

12 – الآراء الكلامية لابن الأنباري، دار الفكر العربي.

13 – في الفكر الإسلامي المعاصر: بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور محمد الجليند، مكتبة الزهراء، جامعة القاهرة.

14 – المنطق ومناهج البحث، دار الهاني بجامعة القاهرة.

15 – تحقيق كتاب: الرد الجميل لإلهية عيسي بصريح الإنجيل، لأبي حامد الغزالي، دار الجيل بيروت.

16 – تحقيق كتاب: إفحام اليهود، للسموأل بن يحيى المغربي، كان حبرًا يهوديًّا فأسلم، دار الجيل بيروت.

17 – تحقيق: رسالة راهب فرنسا وجواب الباجي عليها، طبعة الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بالرياض.

18 – تحقيق كتاب: النصيحة الإيمانية في فضيحة الملّة النصرانية، لنصر بن

يحيى المتطبب، كان عالمًا نصرانيًّا فأسلم، دار الصحوة بالقاهرة.

19 – تحقيق كتاب: المختار في الرد على النصارى، للجاحظ، دار الصحوة، القاهرة.

20 – تحقيق كتاب: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، دار الجيل في بيروت، ودار الصحوة بالقاهرة.

21 – تحقيق كتاب: مسالك النظر في نبوة سيد البشر، لسعيد بن حسن الإسكندراني، كان يهوديًّا فأسلم، مكتبة الزهراء بالقاهرة.

22 – الكنز المرصود في فضائح التلمود، دار الجيل في بيروت، ودار الفكر العربي بالقاهرة.

23 – ترجمة: دراسة جيمس مونرو لوثيقة أندلسية حول سقوط غرناطة، دار الجيل، بيروت.

24 – ترجمة كتاب (جين شارب): من الدكتاتورية إلى الديمقراطية، ميدان التحرير للبحوث والنشر، 2011م.

25 – ترجمة كتاب: المسلمون يسألون، والمسيحيون يجيبون، للراهب البروفيسور كريستان ترول، (تحت الطبع).

26 – بحوث في مقارنة الأديان، الكتاب الثاني (تحت الطبع).

***

فهرس المحتويات